

# الهجاء في الأدب الأندلسي

دكتور  
فوزي عيسى

منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)

<https://twitter.com/SourAlAzbakya>



# منتدی سور الازبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

[\*https://twitter.com/SourAlAzbakya\*](https://twitter.com/SourAlAzbakya)

<https://www.facebook.com/books4all.net>



الهجاء فى الأدب الأندلسى



# الهجاء فى الأءب الأءءلسى

ءكءور

فوزى عىسى

كلية الآءاب - ءامعة الإسكءءرىة

الطبعة الأولى

م ٢٠٠٧

الناشر

ءار الوفاء لءنبا الطباعة والنشر

ءللفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكءءرىة



## مقدمة :

ازدهرت الدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة ازدهاراً ملحوظاً ، وتنوعت جهود الباحثين المتخصصين فى هذا الميدان ، فأزىل غبار النسيان عن كثير من المخطوطات ، وأفردت دراسات تؤرخ للعصور الأدبية فى الأندلس ، وتستنبط الظواهر والسمات ، وتبرز نشاط الشعراء والأدباء ، وأقبل فريق من الباحثين على دراسة الموشحات والأزجال باعتبارها فنين أندلسيين خالصين ، بينما عكف آخرون على ما كتبه المستشرقون من إسبان وغير إسبان فنقلوه إلى اللغة العربية لتكتمل الصورة ويتحقق التواصل بين الباحثين العرب وغيرهم .

وقد وجد فى الدراسات الأندلسية اتجاه يهدف إلى إفراد كل غرض من أغراض الشعر الأندلسى بدراسة مستقلة ، فدرس الغزل الأندلسى كما درست الطبيعة والرياء وشعر الغربة والشعر الدينى ... إلخ .

غير أن موضوع الهجاء لم يستأثر بدراسة مستقلة ، وغاية ما كتب عنه لا يتجاوز الإشارات العابرة المتناثرة أو الأحكام العامة ، حتى لقد ظن كثير من الباحثين أن الهجاء لم تقم له سوق رائجة فى الأندلس ، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فأنكر وجود الهجاء كغرض من أغراض الشعر الأندلسى معللاً رأيه هذا بأن البيئة الأندلسية المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه ، ومما قوى هذا الزعم أن بعض المصادر الأندلسية لم يتسع صدرها لشعر الهجاء فأسقطته وأغفلت ذكر شعرائه ، بيد أن صدور بعض نقاد الأندلس وبعض أصحاب المصادر الأندلسية عن هذا الموقف لدوافع دينية وأخلاقية وسياسية لا ينفى وجود هجاء أندلسى ، بل لا ينفى ازدهاره ، وهذا ما نحاول أن نتتبعه فى هذه الدراسة .

ولا شك فى أن الهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وهو فن عرفته الآداب الأجنبية قديماً وحديثاً ، وإذا استبعدنا هذا الضرب من الهجاء الذى يقوم على البذاءة والفحش والسب والمباشر ، فإن الهجاء بضروبه الأخرى

التي تقوم على التلميح والرمز والإضحاك ورسم الصورة الكاريكاتورية الساخرة يبقى في نظرنا فناً له سماته وملامحه الخاصة ، وهو بهذه الصورة التي أشرنا إليها يبدو فناً عسيراً لا يقدر عليه إلا من منحه الله موهبة خاصة ، ومن زود بمقدرة تتيح له أن يلحم الدقائق والجزئيات ويبرزها بمهارة تستدعي السخرية والإضحاك .

ولست مع أولئك الذين يرون أن الهجاء " صار اليوم في عداد الأغراض الشعرية المنقرضة ، أو التي أشرفت على الانقراض " (١) ، فالهجاء لم ينقرض ولم يمت ، ولكنه اتخذ وجهات أخرى ، فلم يعد هو ذلك الهجاء القبلي أو الشخصي أو الذي يعتمد على السب الصريح ، بل تطور بتطور الزمن والحضارة والثقافة ، وأصبح يختفي وراء مسميات أخرى كثيرة .

ولا أتفق مع من ينادون بإسقاط الهجاء أو استبعاده من أبواب الشعر العربي لأن ذلك تراث خلفه أسلافنا فضلاً عن أن الهجاء لا يقوم كله على البذاءة والإفحاش ، بل إن النظر إلى الهجاء من هذا الجانب وحده لا يخلو من قصور وإجحاف ، فالهجاء من زاوية أخرى يمثل روح النقد والمعارضة لكثير من سلبيات الأفراد والمجتمع ، ووسيلة لإظهار أوجه القصور والخلل ، وكشف العابثين والمخادعين ، إنه يسعى إلى تحقيق عالم مثالي عن طريق السلب لا الإيجاب أو بطريقته الخاصة التي لا تتفق مع الطريقة التي تعارف الناس عليها ، وقد سبقنا إلى تقرير هذه الحقيقة أستاذنا الدكتور محمد حسين حين قال : " الواقع أن في الهجاء قوة هجائية بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام ، الذي هو أول ما يطالع المتصفح له ، فهو حين يهاجم شخصاً من الأشخاص أو نظاماً من النظم أو نزعة من النزعات ، يتصور في حقيقة الأمر حياة أخرى

---

(١) أدب الفقهاء تأليف عبد الله كنون ص ١٦٤ .

بأشخاصها ونظامها وأسلوبها . هي مثله الأعلى الذى يطمح إليه ويدعو له  
فالهجاء له فلسفة فى الحياة يريد أن يؤديها إلينا " .<sup>(١)</sup>  
لهذه الأسباب كلها آثرت أن أفرد الهجاء الأندلسى بدراسة مستقلة ،  
ولم تقتصر هذه الدراسة على شعر الهجاء وحده بل جمعت بين الهجاء شعراً  
ونثراً ، وهى تشتمل على ثلاثة أبواب فتعرض فى الباب الأول لمعنى الهجاء  
ومفهومه ومراحل تطوره . ويختص الباب الثانى بدراسة اتجاهات الهجاء فى  
الأندلس ، كالهجاء السياسى ، والاجتماعى ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ،  
وهجاء التندر والسخرية ، والمعارك الهجائية بين الشعراء .  
أما الباب الأخير فيقف عند الجوانب الفنية للهجاء ويقع فى فصلين ،  
أحدهما عن لغة الهجاء وأساليبه ، والآخر عن صور الهجاء الفنية .  
ولا أريد أن أشير إلى الصعوبات التى واجهتنى فى التنقيب عن  
النصوص خاصة وأن بعض المؤلفين أبوا أن يدرجوا الهجاء فى مؤلفاتهم .

## والله الهادى إلى سواء السبيل .



# الباب الأول

## ( مراحل تطور الهجاء )

- معنى الهجاء
- مراحل تطوره
- العوامل المؤثرة فيه



## الهجاء بمعناه اللغوى والأدبى :

تدور مادة ( هجو ) فى المعاجم العربية حول عدة معان نجم لها فيما

يلى :<sup>(١)</sup>

- ١- الهجاة : الضفدع .
  - ٢- وهجو يومنا : اشتد حره .
  - ٣- وهجيت عين البعير : غارت .
  - ٤- وهذا على هجاء هذا : على شكله وقدره ومثاله .
  - ٥- والمرأة تهجو زوجها وتهجو صحبتته : أى تذمه وتشكو منه .
  - ٦- وجاء فى الحديث الشريف : " اللهم إن عمرو بن العاص هجانى وهو يعلم أنى لست بشاعر ، فاهجه اللهم والعنه عدد ما هجانى أو مكان ما هجانى "
  - ٧- والهجاء تقطيع اللفظة بحروفها : أى تعدادها وتفصيلها .
  - ٨- ويقال : هجى البيت هجياً : أى انكشف .
  - ٩- والهجى : الشبع من الطعام .
  - ١٠- ومما هو قريب من المادة : الهياج بمعنى الغضب والقتال والحرب .
  - ١١- والهوج بمعنى الحمق والتسرع .
  - ١٢- والرياح الهوجاء : التى تقتلع البيوت .
- وهذه المعانى كلها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمعنى الأدبى لكلمة ( هجاء ) ، فقد يكون الهجاء بمعناه الأدبى مأخوذاً من الضفدع ، فهو قبيح الشكل ، بشع الصوت ، وقد يكون مأخوذاً من اشتداد الحر ، ففيه معنى التنكيل والتعذيب وقد يكون مأخوذاً من الأصل الهجانى ، فهو يكشف عن سيئات المهجو ...

<sup>(١)</sup> انظر لسان العرب المجلد ١٥ ص ٣٥٣ وما بعدها . أساس البلاغة ٢ / ٥٢٥ .

فمعانى الكلمة تدور حول البشاعة والشدة والنكال والكشف ، والكلمة مرنة تحتتمل الزيادة ، وليس هناك ما يمنع من توسيع مدلولها الأدبى بحيث يشمل غيرها من المعانى القريبة جداً من المعنى الأول ، وهى وإن كانت قد أخذت شكلاً ثابتاً بهذا المعنى الذى اصطلح عليه القدماء ، فما ينبغى لها أن تجمد على هذا الشكل إن فرض عليها تطور الفنون الأدبية أن تتسع أو تضيق <sup>(١)</sup> .

فالهجاء - بمعناه الأدبى - فن من فنون الشعر " يصور عاطفة الغضب أو الاحتقار والاستهزاء ، وسواء فى ذلك أن يكون موضوع العاطفة هو الفرد أو الجماعة أو الأخلاق أو المذاهب " <sup>(٢)</sup> .

والهجاء باب قديم من أبواب الشعر العربى ، وقد أشار النقاد القدماء إلى رسوخ هذا الفن وثباته فى الشعر . فذهب ابن سلام إلى أن الشعر يندرج فى أربعة موضوعات عد الهجاء واحداً منها وهى : الفخر والمديح والنسيب والهجاء <sup>(٣)</sup> وجعل أبو تمام الهجاء واحداً من أغراض الشعر العشرة التى ضمنها حماسته ، ورأى ( قدامة ) أن الشعر ينحصر فى أربعة موضوعات هى المديح والهجاء والحكمة واللهو <sup>(٤)</sup> وجاء ( أبو هلال العسكرى ) فأحل الهجاء محلاً أثيراً فى ( ديوان المعانى ) ، فوضعه فى الباب الثالث من أبواب الشعر التى قسمها إلى اثنى عشر باباً <sup>(٥)</sup> وحذا حذو أولئك النقاد المرزبانى فى ( موشحه ) وابن رشيق فى ( عمدته ) .

ورأى بعض النقاد أن الهجاء هو نقيض المدح على نحو ما نجد عند قدامه <sup>(٦)</sup> وذهب ( أبو هلال ) إلى أن أبلغ الهجاء ما كان " بسلب الصفات المستحسنة التى تخص النفس من الحلم والعقل وما يجرى مجرى ذلك . وليس

<sup>(١)</sup> الهجاء والهجاءون فى الجاهلية تأليف الدكتور محمد حنين ص ١٤ - ١٥ .

<sup>(٢)</sup> الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١٢ .

<sup>(٣)</sup> طبقات فحول الشعراء ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .

<sup>(٤)</sup> نقد النثر ص ٨١ .

<sup>(٥)</sup> ديوان المعانى ٣ / ٣١ .

<sup>(٦)</sup> نقد الشعر ص ٣٥ .

الهجاء بقبح الوجه وضئولة الجسم وقصر القامة وما فى معنى ذلك بليغاً مرضباً<sup>(١)</sup> أى أنه يفضل الهجاء الذى يزرى بأخلاق المهجو لا بخلقته .

والواقع أن فن الهجاء مر بمراحل تطور عديدة على مدى عصور الأدب وتغيرت مفاهيمه وأساليبه وصوره من عصر لآخر لاختلاف دوافعه وأسبابه ولتباين أذواق الناس من حقبة لأخرى ، ففى العصر الجاهلى كان هجاء الشعراء يدور فى معظمه حول الانتقاص من نسب المهجو والإزراء بمكانة القبيلة والصاق المخازى بها ، وكان الهجاء يضطلع بدور خطير فى المجتمع الجاهلى حيث كان للكلمة أو للشعر مكانة لا تقل عن مكانة السيف ، وجاء الإسلام فغض من الهجاء وحاربه لأنه يتعارض ومبادئه السمحة التى تنبذ التجريح والتشهير ، ويروى عن الرسول عليه السلام قوله : " من قال فى الإسلام هجاء مقذعاً فلسانه هدر " <sup>(٢)</sup> .

وقد أكد عمر - فى خلافته - موقف الإسلام من الهجاء حين نهى عن الهجاء المقذع الذى يقوم على الإفحاش وكشف العورات ، كما أمر بسجن الحطيئة عندما علم بهجائه للزبير قان بن بدر فى قصة ذائعة الصيت .

غير أن الهجاء ما لبث أن عاد بصورة قوية فى العصر الأموى بعد أن بعثت العصبية القبلية من جديد وتطور الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض غير أنه لم يكن يراد بها الجد كما كان شأن الهجاء فى الجاهلية ، ولكن أريد بها اللهو والإضحاك ، كما كانت أشبه بمناظرات أدبية أوجدتها ظروف الحياة الاجتماعية والعقلية فى العصر الأموى أكثر من كونها أهاجى بالمعنى القديم المعروف فى الجاهلية <sup>(٣)</sup> .

(١) ديوان المعانى ١ / ٢٠٢ .

(٢) العمدة ٢ / ١٢٨ .

(٣) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٠٤ .

وطراً على فن الهجاء تطور كبير فى معانيه وأساليبه لدى شعراء النقائض الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ، وإن تباينت أساليبهم فى تناول هذا الفن " فغلب على الأخطل فنه الشعرى الرصين الذى يعنى بالألفاظ ، ويدقق فى اختيار العبارات ، فكان فى هجائه يرضى فنه الشعرى الرفيع بأكثر مما يستجيب لغضبه ، وللغيظ الذى يأكل نفسه ، فهو لا يسف ولا يهبط إلى سباب العامة والدهماء ، ولكن رصانة ألفاظه ، وجزالتها ، وما تضمنته من معانى شعرية ، أضفت على هجائه كثيراً من الوقار الذى حرمة روح الدعابة ، وحالت بينه وبين جمهور الناس ، الذين لا يعنيه من الهجاء إلا النكتة المضحكة والسخرية البارعة المسلية . وكذلك ظل الأخطل فى هجائه - كما هو فى كل شعره - شاعر خاصة كما يقول قدماء النقاد وأما جرير فقد غلب عليه مرحة ودعابته ، فكان مذهباً فى الهجاء قوله : ( إذا هجوت فأضحك ) . وكان أسهل زملائه الثلاثة وأحظاهم عند جمهور الناس ، ولم يكن يتكلف فى شعره ما يتكلف أصحابه من العناء ، فكان هجاؤه أكثر ذبوعاً على السنة العامة. أما الفرزدق فكان معنياً بفنه ، ولكنه لم يكن موهوباً كجرير ، ولذلك فقد كان يشق على نفسه ويجهدهما ، حتى لقد وصفه النقاد بأنه ينحت من صخر " (١) .

وما إن نصل إلى القرن الثانى الهجرى حتى نرى " الهجاء قد تطور تطوراً كبيراً ، تطور فى معانيه وأهدافه وأسلوبه وألفاظه وصوره ، وقد تراوح هذا التطور بين الهبوط إلى درجة السباب والفحش والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذى يدل على طاقة فنية مبدعة وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل وروح مرحة ضاحكة تترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة ... وهذا التطور كان أمراً لا بد منه خضوعاً للعوامل المختلفة التى أثرت فى تطور المجتمع نفسه واختلاف معاييره وقيمه " (٢) .

(١) الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ص ١٣١ .

(٢) الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٦ .

والواقع أن التطور الفنى الحقيقى للهجاء بدأ فى القرن الثانى الهجرى كما لاحظ أستاذنا الدكتور محمد مصطفى هدارة ، وهذا التطور " لا يتضح فى القصائد الزاخرة بالسباب والاتهامات والفحش - وخاصة فى تلك الأهاجى التى كانت تدور بين أفراد عصابة المجان وتزخر بألفاظ وتعابير يندى لها الجبين ولكننا نعتبر أن التطور الفنى الذى حدث أساسه الهجاء الساخر الذى يستهدف إضحاك الناس على المهجو وسخريتهم منه ، ولهذا يعتمد على فن أصيل فى رسم شخصية المهجو من ناحية معنوية أو جسمية ، ولكنه ليس رسماً تصويرياً بل هو رسم ( كاريكاتيرى ) يبعث على الضحك ، ويستعين الشاعر فى هذا النوع الأصيل من الهجاء بكل معارف عصره ، وبجميع عناصر الفكاهة ، والهزل الشائعة بين الناس " (١) .

وهذا الهجاء ( الكاريكاتيرى ) الساخر هو الفن الذى نماه ( ابن الرومى ) بعد ذلك ، واعتمده كفن أصيل ، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقى ضيف فقال (٢) : إن الهجاء يعد من أهم الجوانب التى تلفت النظر فى شعر ابن الرومى فقد أعده مزاجه الحاد ، وقدرته البارعة فى لمح الدقائق والعيوب الجسمانية لضرب من الهجاء يمكن أن نسميه " الهجاء الساخر " إذ كان يعبث بمهجويه عبثاً لا ذعاً يشبه عبث أصحاب ( الصور الكاريكاتورية ) ، فهو يقف عند نواحي الضعف ويكبرها ويظهرها فى أوسع صورة لها . وعلى نحو ما كان يلتقط العيوب الجسدية كان يلتقط العيوب الصوتية والمعنوية " .

وقد برع ابن الرومى فى هذا الضرب من الهجاء براعة كبيرة ، وشهر به حتى لقد أصبحت طريقته فى الهجاء نمطاً يحتذىه كثير من الشعراء بمن فيهم شعراء الأندلس على نحو ما سيتضح فى حديثنا فيما بعد .

(١) المرجع السابق ص ٣١٣ .

(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٢١٢ - ٢١٣ .

## العوامل المؤثرة في الهجاء الأندلسي :

وعلى نحو ما وجد الهجاء في الشعر المشرقي ، وجد كذلك في الشعر الأندلسي ، وقد رشحت لوجوده عوامل شتى ، نجملها فيما يلي :

### العوامل السياسية :

إن المتتبع للأحداث التاريخية في الأندلس يشعر أن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة ، " فعهد الولاة كان عهداً مضطرباً ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق وانتقلت معهم العصبية القبلية وبدأ نزاعها ظاهراً بين القيسية واليمينية " <sup>(١)</sup> .

دأخذت عوامل الضعف والانقسام تدب في كيان المجتمع الأندلسي ، ففي أواخر حكم الأمويين ابتليت الأندلس بخلفاء ضعفاء ، وسرعان ما أضحت البلاد نهباً لفتنة عاتية قضت على الخلافة الأموية ، ومزقت وحدة الأندلس ، فانقسمت إلى دويلات يستأثر بكل واحدة منها حاكم أو أمير ، وأنفق أمراء الطوائف أموالاً طائلة في تشييد الحصون لحماية ملكهم ، وانساقوا وراء مصالحهم الذاتية ، حتى انتهى بهم الأمر إلى أن يدفعوا صاغرين الجزية للروم ، ودارت رحى الحرب فيما بينهم ، واستعانوا بالروم في حل خلافاتهم ، بل إن بعضهم تحالف مع الروم ضد جيرانه من المسلمين ، وبعد أن دالت دولة الطوائف خضعت الأندلس لحكم الأفارقة ، وأصبحت تابعة لا متبوعة ، وفي أواخر عصر الموحدين أخذت المدن الأندلسية تتهاوى في يد الإسبان مدينة إثر أخرى ولم يبق سوى غرناطة وبعض الحصون التي ظلت تقاوم ردهاً من الزمن إلى أن سقطت في آخر الأمر مؤذنة بأفول شمس الإسلام عن الأندلس .

ولد يقف شعراء الأندلس موقفاً سلبياً إزاء هذه الأحداث ، وإنما ارتفعت أصوتهم تندد بسياسة حكام الأندلس . وتنتقد تصرفاتهم . وتصمهم بالخزي

<sup>(١)</sup> في الأدب الأندلسي ، الركابي ، ص ١٤ .

والمهانة ، كما عبر الشعر عن الصراعات القبلية والدعاوى الشعبوية كما سنرى فى حديثنا عن الهجاء السياسى .

### العوامل الاجتماعية :

إذا قرأت ما نظمه الأندلسيون من أشعار فى الزهد والتصوف ، أو وقفت على جهودهم فى الفقه والعلوم الدينية ، خيل إليك أن المجتمع الأندلسى مجتمع زهد وتقى ، وإذا قرأت ما قالوه من شعر فى الخمر والغزل والمجون تراءى لك أن الأندلسيين لم يعرفوا غير المجون واللهو ، وأنت فى كلا القولين محق ، فقد اتصف الأندلسيون بالحدة والتطرف فى نظرتهم للأشياء فقد وجدت بيئات الفقهاء والزهاد الذين كانوا يأخذون بالأشد فى كل حكم من الأحكام المتصلة بأمور الدين ، كما وجدت معها بيئات أخرى مالت إلى التساهل والتحرر فصار فيها المحظور مباحاً ، وأصبح غير المؤلف مألوفاً ، وأسرف كثير من الناس فى سلوكهم الاجتماعى ، وعاش بعضهم حياة لاهية صاخبة وانساق كثير من الحكام وراء هذا التيار العابث ، فوصف أحدهم بأنه كان " ينغمس فى لذاته ويقيم فى ذلك مصطبحاً ومغتبقاً " (١) ووصف آخر بأنه كان " يركن إلى ملذاته ولا يعنيه شىء من أمور مملكته " (٢) وظهرت منابر كثيرة فى المجتمع الأندلسى ، وفى " نفع الطيب " إشارات كثيرة إلى ضروب التحلل والفساد ولاسيما ما كان يحدث فى وادى اشبيلية ، " فقد سعد هذا الوادى بكونه لا يخلو من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكر ، لانه عن ذلك ولا منتقد " (٣) .

وقد أفاض الشعراء فى وصف ما كان يدور فى مجالس الخمر من تهتك وعبث ، وانتشر تيار المجون ، وكثرت عصب المجان من الشعراء الذين كانوا يتحللون فى حياتهم من كل قيد ، فيرتكبون المآثم فى غير موارد ، ويدعون

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفسه ص ١٦٠ .

(٣) نفع الطيب ٢ / ص ٥ .

إلى اللذة والمجون جهراً ، وينادون بالزندقة ، ويدعون إلى اعتناق الخمر وتقديسها " (١) .

وتمتعت المرأة الأندلسية بحرية كبيرة حتى لقد لهجت بعض شوارع الأندلس مثل نزهون الغرناطية ، وولادة بأشعار فى الهجاء بالغة البذاءة والفحش . وكان من الطبيعى أن يفرخ الهجاء ويزدهر فى هذا المناخ الاجتماعى ، فكثر السباب والملاحاة وانتقاد بعض المظاهر الاجتماعية الفاسدة .

### **أثر البيئة المتحضرة :**

قد يتوهم بعض الباحثين أن البيئة المتحضرة تعاف الهجاء وتمجه فلا تقوم له قائمة فيها ، وهذا - فى ظنى - رأى خاطئ ، فالتحضر يرقى بالعقول والأذهان والأذواق ، وكلما ارتقى العقل صار أكثر قدرة على لمح الدقائق والعيوب ، وجلبت أمامه أوجه الخلل والقصور . وقد تختلف طريقة تناول هذه العيوب من بيئة لأخرى ولكن الموضوع نفسه يظل ثابتاً ، فالشعراء الذين هاشوا فى بيئة بدوية خشنة يتلون هجاؤهم بما طبعوا عليه من بدائة وغلظة . أما الشعراء الذين وجدوا فى بيئة متحضرة فهم يتناولون ما وقعت عليه أعينهم من نقائص وعيوب بصورة مغايرة تتميز بالسخرية والتهكم وتناسب الذوق المتحضر . وربما ساهمت البيئة المتحضرة فى تهيئة الجو الملائم للهجاء بما تنطوى عليه من تعقيد وعلاقات متشابكة وبما يشيع فيها من فراغ وجدة ، وهى - فى جملتها - أسباب تدعو إلى الهجاء وتحفز الشعراء إليه .

### **التكسب بالهجاء :**

ومما أعان على شيوع الهجاء فى الأندلس وجود طبقة من الشعراء الذين احترفوا الهجاء واتخذوه وسيلة للكسب والارتزاق ، وقد وجد هؤلاء الشعراء رواجاً لبضاعتهم فى المجتمع الأندلسى . فقد ذكر المقرئ أن أهل الأندلس

(١) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢١٠ - ٢١١ .

” كان لهم فى الترف والنعيم والمجون ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد ” (١) .

ولم تكن الرهبة من الهجاء وقفاً على أهل الأندلس وحدهم ، بل تجاوزتهم إلى الحكام أنفسهم ، فمنهم من كان يتقرب إلى شعراء الهجاء ويداريهم خوفاً من حدة ألسنتهم ، بل لقد لجأ بعضهم إلى حيل طريفة لصرف الشعراء عن الهجاء على نحو ما فعل إبراهيم بن حجاج حاكم اشبيلية مع الشاعر محمد بن يحيى القلظاط (ت ٣٠٢) ، إذ أمعن هذا الشاعر فى هجاء أهل بلده ، وأفحش فى ذكر كبرائها وعظماء دولتها ، وهجا إبراهيم بن حجاج نفسه لأنه لم يجزل له العطاء فقال :

**أبغى نوال الأكرمين معاولا      أبغى نوال البومة التكبء**

وبلغت القصيدة مسامع ابن حجاج فغضب ولكنه احتال لصرفه عن الهجاء إذ دس إليه من يخبره بأنه سيرسل إليه من يأخذ رأسه على فراشه ، فخاف القلظاط على نفسه وكف عن الهجاء ، فحمد الناس لابن حجاج هذا التصرف لشدة ما كان يلحقهم من هجاء القلظاط (٢) .

وكان سراة القوم من الأندلسيين أشد الناس خوفاً من الهجاء وتذكر الروايات أنهم كانوا يتملقون شعراء الهجاء ويخصونهم بالأموال والهدايا اتقاء لألسنتهم . ويمكن أن نعد الأعمى المخزومي (ت ٥٤١هـ) زعيم شعراء هذه الطبقة المتكسبة بالهجاء ، وقد وصفه الحجارى فى المسهب بأنه ” بشار الأندلس انطباعاً ولسناً وأذاة ، وهو الذى أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس فمقت ، وكان لا يسلم من هجوه أحد ، ولا يزال يخبط الآفاق بعصاه ، ويقع فيمن أطاعه أو عصاه ، وأصله من المدور ، وقرأ بقرطبة ثم جال على البلدان وأكثر الإقامة فى

(١) نفع الطيب ١ / ١٩٠ .

(٢) البيان المغرب ٢ / ١٩٣ .

غرناطة<sup>(١)</sup> وقال عنه ابن الخطيب في الإحاطة<sup>(٢)</sup> " كان أعمى ، شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً على الأعراض ، سريع الجواب ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً في ديوان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " ووصف في (خريدة القص) بالإجادة في الهجاء ، والإغارة على الأعراض ، والإصابة فيها إلى الأضرار ، وكان مهيب الصولة ، مرهوب الجولة ، مخصوصاً بالتحايا والتحف والهدايا والطرف " <sup>(٣)</sup> .

ومن أبرز شعراء هذه الطبقة أيضاً ( على بن حزمون ) أحد شعراء الهجاء في عصر الموحدين ، ويشير المراكشي إلى أن ابن حزمون نال عند قضاة المغرب وعماله جاهاً عظيماً وثروة ، كل ذلك خوفاً من لسانه ، وحذراً من هجائه <sup>(٤)</sup> .

وكان لهذه الطبقة من الشعراء أثر في شيوع ضرب من الهجاء المقذع الصريح فهم لم يتورعوا عن شيء ، ولم يراعوا حرمة ولا ذمة ، ولم يبالوا بما تقذفه ألسنتهم من بذاءة وفحش .

### نقاد الأندلس والهجاء :

سيطرت النزعة الخلقية والاتجاه المحافظ على النقد الأندلسي ، فخضع النقاد لهذه النزعة حين أبوا أن يدرجوا الموشحات في مؤلفاتهم وهي نبت بهنتهم ، ولبتكار قرائحهم ، كما نفروا من الهجاء ، فصانوا كتبهم عنه ، ولم يستجيزوا روايته مما حجب عنا كثيراً مما قيل فيه . وقد صدر ابن حزم في آرائه النقدية عن هذه النزعة فلم يستجز من رواية الشعر إلا ما تضمن الحكم والخير مجدداً دعوة ابن قتيبة التي نادى بها من قبل ويرى ابن حزم أنه ينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

(١) المغرب ١ / ٢٢٨

(٢) الإحاطة ١ / ٤٢٢ .

(٣) خريدة القصر ٢ / ٢٥٥

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

**أحدها :** الأغزال والرقيق . فإنها تحث على الصبابة وتدعو إلى الفتنة وتحض على الفتوة ، وتصرف الناس إلى الخلاعة واللذات وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنهى عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلات العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات ، ويرى أن سماع شعر رقيق ينتقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة ، لاسيما ما كان يعنى بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق . ويهون المعاصى . ويردى جملة<sup>(١)</sup> .

**والضرب الثانى :** الأشعار المقولة فى التصعلك وذكر الحروب كشعر عنقرة وعروة بين الورد وسعد بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهيج الطبيعة ، وتسهل على المرء موارد التلف فى غير حق وإلى خسارة الآخرة مع إثارة الفتن وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

**والضرب الثالث :** أشعار التغرب وصفات المفاوز والبيد والمهامه ، فإنها تسهل التحول والتغرب ، وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

**والضرب الرابع :** الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون فى حالة أهل السفه من كناسى الحشوش والمعاناة لصنعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والنذالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأميات . وفى هذا حلول الدمار فى الدنيا والآخرة . وهناك ضربان من الشعر يعتبرهما ابن حزم من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء .

<sup>(١)</sup> رسائل بن حزم رسالة (مراتب العلوم) ص ٦٥ ٦٧ .

فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والمدوح ، وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبة فى مثل ذلك الحال ، وأما كراهتنا لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين من الكذب ولا خير فى الكذب <sup>(١)</sup> .

ولا يستغرب رأى ابن حزم فى الهجاء بالنظر إلى نظرتة لأغراض الشعر الأخرى ، فهو يخضع الشعر لمقياس خلقى صارم ، ويصدر فى أحكامه عن نزعة فقهية متشددة تزدري الشعر وتناصبه العداة ولا ترى ما فيه من فن وجمال.

### موقف ابن بسام :

وتحكمت هذه النزعة المحافظة فى نظرة ابن بسام للهجاء ، فهو يصرح بأنه صان كتابه عن شين الهجاء ، وأكبره أن يكون ميداناً للسفاهة <sup>(٢)</sup> .

ويقسم ابن بسام الهجاء إلى قسمين :

” قسم يسمى ( هجو الأشراف ) ، وهو ما لم يبلغ أن يكون سباباً مقذعاً ، ولا هجواً مستبشعاً ، وهو طأطأ قديماً من الأوائل ، وثل عرش القبائل ، إنما هو توبيخ وتعبير ، وتقديم وتأخير ” ، ويمثل لهذا النوع من الهجاء بقول النجاشى فى هجاء بنى العجلان :

قبياته لا يقدرون بدمية	ولا يظلمون الناس حبة خردل
ولا يردون الماء إلا عشية	إذا صدر الورد عن كل منهل
وما سمي العجلان إلا لقولهم	خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

ومن أمثله هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر ، وهو قوله :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها      واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

<sup>(١)</sup> رسائل ابن حزم ص ٦٥ - ٦٧ .

<sup>(٢)</sup> الدحيرة ١ / ١ ص ٥٤٤ .

أما القسم الثاني من الهجاء عند ابن بسام فهو " هجو السباب الذى أحدثه جرير وطبقته ، وكان يقول : إذا هجوتهم فأضحكوا " ، وهذا النوع هو الذى صنأ هذا المجموع عنه ، وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه ، فإن أبا منصور الثعالبي كتب فى يقيمته ما شأنه وسمه ، وبقي عليه إثمه <sup>(١)</sup> .

ويفهم من كلام ابن بسام أنه يؤثر الهجاء الذى يميل إلى التعريض والتلميح بدليل أنه يورد أبياتاً يصفها بأنها " من مליح التعريض " كقول أحد الأندلسيين فى غلام كان يصحب رجلاً يسمى بالبعوضة <sup>(٢)</sup> :

أقول لشادتكم قولية      ولكنها رموزة غامضة  
لـزوم البعوض له دائماً      يدل على أنها حامضة  
وهو يعجب أيضاً بقول القائل :

بينى وبينك سر لا أبوح به      الكل يعلمه والله غافره

وفى ظنى أن نظرة ابن بسام للهجاء لا تقوم على أساس دينى أو أخلاقى ، وما يقوى هذا الظن عندى قوله فى ترجمة ابن صارة الشفترينى : " ولقد رأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء تربي على حصى الدهناء ، وهو فيه صائب السهم نافذ الحكم ، طويت عليه كشحاً ، وأضربت عن ذكره صفحاً ، وربما ألمعت منه بالأقل ، لترى فتستدل ، ولو استجزت أن أثبت فى هذا الكتاب ، بعض ماله فى هذا الباب لتحققت أنه بالجملة بائقة محاجاة ، وصاعقة مهاجاة وقد كتبت من ذلك فى كتابى المترجم " ذخيرة الذخيرة " جملة موفورة له ، ولطوائف كثيرة .. " <sup>(٣)</sup> .

وهذه العبارة الأخيرة توضح أن ابن بسام لم يلتزم بموقفه المتشدد من الهجاء إلا فى كتاب " الذخيرة " - وإن كان قد أخلّ أحياناً بهذا الالتزام فى بعض ما

(١) الذخيرة ١ / ١ ٥٤٦

(٢) المصدر نفسه ١ / ١ ص ٥٤٦ - ٥٤٧

(٣) الذخيرة ٢ / ٢ ص ٨٣٥

ذكره من روايات وأشعار - ويمكن أن نرجع إقصاء الهجاء عن كتاب الذخيرة إلى عامل آخر يتمثل في " حرص ابن بسام على المواضع والعلاقات الاجتماعية وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه " (١).

وكان " عبد الواحد المراكشي " ممن أقصوا الهجاء عن مؤلفاتهم ، وقد صرح برأيه هذا في ترجمته لابن حزمون فقال : " ولعلى بن حزمون هذا قدم في الآداب ، واتساع في أنواع الشعر ، .. وله مع هذا في الهجاء يد لا تطاول غير أنه يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، ابتداءً فيها بهجو نفسه " (٢) ويعتق على أبيات ابن حزمون بقوله " وله في هذا المعنى أحسن من هذا بكثير إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق لأنى لا أستجيز أن ينتقل مثل هذا عنى " (٣).

وقد ابتعد بعض الشعراء عن الهجاء تائراً بهذه النزعة ، فصدق عنه ابن حمديس - لا عجزاً منه عن مزاولته - ولكن لأن السب ليس من شيمه ولأن الإسلام يأبى أن يجرح المسلم أخاه - ويتضح هذا في قوله : (٤)

يقولون لى : لا تجيد الهجاء	فقلت : ومالى أجيد المديح
فقالوا لأنك نرجو الثواب	وهذا القياس لعمرى صحيح
فقلت : صفاتى ، فقالوا : حسان	فقلت نسيبى ، فقالوا : مليح
فقلت : إلسيكم ، فلى حجة	وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل	وفسق اللسان مقال القبيح
ومالى ومالا مريء مسلم	بروح بسيف لسانى جريح

(١) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - للدكتور إحسان عباس ص ١٠٠ .

(٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٧٤ .

(٤) ديوان ابن حمديس ص ٩٤ .

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته ، فلم يعرف عنه أنه هجا أحداً أو انزلق في معارك هجائية مع أحد ، بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين <sup>(١)</sup> وقد أشار إلى ذلك فقال <sup>(٢)</sup> :

وما أنا ممن يرتضى الهجو خطة      على أن بعض الناس أصبح يهجوني  
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول      يحيل على الأعراض حد السكاكين

ويتكرر موقف ابن حمديس من الهجاء عند الأعمى التطيلي كما في قوله <sup>(٣)</sup>

وساقط نال من عرضي فقلت له      إليك عنى فليس السب من شيمي  
أعرضت عنه ولو أنى عرضت له      سقيته حمة الأفعى من الكلم

ويصدر الرصافي عن الموقف نفسه فيقول <sup>(٤)</sup> :

عفا الله عنى فإني امرؤ      أتيت الصناعة من بايها  
على أن عندي لمن هاجني      كنانن عضت بنشابها  
ولو كنت أرمى بها مسلماً      لكان (السهبلى) أولى بها

غير أن هذه النزعة كانت محدودة ولذلك فهي لم تمنع من رواج شعر الهجاء ، كما أن العوامل التي أدت إلى ذيوع الهجاء كانت أقوى من هذه النزعة ، فالمجتمع الأندلسي - بتكوينه السياسي والاجتماعي والحضارى - كان مهياً لتقبل الهجاء ، وليس أدل على ذلك مما ذكره المراكشى من أن أهاجى ابن حزمون على ما فيها من إقذاع وفحش - كانت تحفظ وتدرس في جميع بلاد المغرب والأندلس <sup>(٥)</sup> ، وقد أشرنا من قبل إلى ما روى عن بعض شواعر الأندلس من هجاء مقذع ، ومن الطريف أن نجد الحكام أنفسهم

<sup>(١)</sup> الشعر العربى فى صقلىة ص ٤٠٧ .

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن حمديس ص ٥١٥ .

<sup>(٣)</sup> فلانء العقيان ص ٢٨٢ .

<sup>(٤)</sup> فلانء العقيان ص ٢٨٢ .

<sup>(٥)</sup> المعجب ص ٣٧٤ .

يشاركون فى الهجاء ، فثمة رواية تقول إن مجاهد العامرى كتب إلى المنصور ابن أبى عامر رقعة لم يضمنها غير قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيثها      واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فرد عليه المنصور برقعة جاء فيها :

شتمت موالىها عبيد نزار      شيم العبيد شتيمة الأحرار<sup>(١)</sup>

ويذكر المقرئ أن الخليفة الموحدى عبد المؤمن بن على امتحن الشعراء بهجو وزيره أبى جعفر بن عطية<sup>(٢)</sup> .

---

(١) المغرب ١ / ٣٣٢ .

(٢) نفع العليب ٥ / ١٨٦ .

# الباب الثاني

( اتجاهات الهجاء الأندلسي )



درج النقد على تقسيم الهجاء تقسيمات مختلفة وإن كانت تنحصر في ثلاثة موضوعات هي الهجاء السياسى والهجاء الاجتماعى والهجاء الشخصى . ولكن هذا التقسيم قد يضيق أو يتسع تبعاً لظروف كل عصر من العصور ، فالهجاء الجاهلى كان ينحصر فى هجاء الأشخاص والقبائل ، ثم اتسعت موضوعات الهجاء بعد ذلك فأصبحت تشمل الأفراد والجماعات والأخلاق والمذاهب ، وتطرق الهجاء إلى كل أمر من أمور الحياة ، حتى ليقول الجاحظ وهو محق فى ذلك - " إن الشعراء يهجون بكل شيء ، ويهجون كل شيء " (١) وعبارة الجاحظ تصدق كل الصدق على الهجاء الأندلسى ، فقد اتسعت مجالاته ، وتعددت اتجاهاته ، فوجد الهجاء السياسى ، والهجاء الاجتماعى وهجاء أصحاب الوظائف الرسمية ، وهجاء العلماء وأصحاب المهن ، وهجاء المدن ، وهجاء التطرف والسخرية ، كما نشبت بين الشعراء معارك هجائية .

وسنؤثر كل موضوع من هذه الموضوعات بفصل مستقل .

---

(١) الحيوان ١ / ٢٥٦



# الفصل الأول

## الهجاء السياسى

- هجاء الملوك والحكام
- الهجاء القبلى
- هجاء البربر
- هجاء اليهود
- هجاء الشعوبية



الهجاء السياسى هو كل ما يتصل بشئون الحكم وأمور السياسة ، وفيه يصدر الشاعر عن عصبية للوطن أو الإقليم أو القبيلة أو الحزب أو الدين .  
والشاعر - فى هذا اللون من الهجاء - " يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصيته إلا فى حدود هذه المجموعة التى يرتبط مصيره بها كل الارتباط ، فهو يفنى فيها وجوده ، ويتجرد من نزعاته وأهوائه ، ليحس بإحساسهم ، ويرى بأعينهم ، ف شخصية الفرد هنا ضئيلة نحيلة ، لا تكاد تحس لها أثراً ، والدولة أو الوطن شىء حى له وجود قوى وكيان ظاهر وملموس " (١) .

وقد جاء الهجاء السياسى فى الشعر الجاهلى ولكن بمفهوم ضيق إذ انحصر فى تصوير ما شجر بين القبائل من خلافات ومنازعات ، فاقصر على لون واحد من ألوان الهجاء السياسى هو " الهجاء القبلى " ولم يتجاوز هذا اللون إذ " لم يكن الوطن عند الجاهليين يصور حدوداً جغرافية معينة كما نتصور اليوم من هذه الكلمة ولكنه يصور جماعة من الناس تربطهم أواصر النسب ، فكان الوطن هو العصبية " (٢) .

واتسع مفهوم الهجاء السياسى بعد العصر الجاهلى بتطور الظروف السياسية وتعددت ألوانه ، فبرزت فيه عصبية الوطن والتعصب للدين أو الجنس ، واتجه جانب منه إلى تصوير الميول الحزبية ، وانصب بعضه على نقد سياسة الملوك والحكام .

( وباستقراء ما خلفه الأندلسيون من شعر فى الهجاء يتضح أن الهجاء السياسى هو أكثر اتجاهات الهجاء رواجاً . وذلك نتيجة للعوامل السياسية التى أشرنا إليها من قبل ، وقد تباينت صور الهجاء السياسى فى الأندلس ، وتوزعت بين هجاء الملوك والحكام ، والهجاء القبلى ، وهجاء الشعبوية . وهجاء البربر والروم واليهود .

(١) الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ص ١١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٤ .

## هجاء الملوك والحكام :

راج هذا اللون من الهجاء فى الأندلس بصورة كبيرة وذلك لأسباب كثيرة من أهمها تقلب الأحوال السياسية واضطرابها ، واستبداد بعض الحكام بالسلطة وإهمالهم شئون الرعية ، وتقاعسهم عن الجهاد ، ومن هذه الأسباب أيضاً ما يرد إلى عوامل ذاتية أو شخصية تتمثل فى فساد العلاقة بين الشاعر والحاكم كأن يبعده الحاكم عن دائرة اهتمامه أو يضمن عليه بالعطاء .

ونلاحظ أن أغلب قصائد هذا الضرب من الهجاء لا تنسب إلى قائل بعينه وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام ، وتحفل مصادر الأدب بروايات تشير إلى مواقف بعض الحكام الصارمة إزاء شعراء الهجاء ، حتى أن بعضهم كان يأخذ الشعراء بالمظنة والشبهة ، كما فعل المستنصر المروانى مع ابن فرج الجياني - صاحب كتاب الحدائق - وكان ابن فرج صديقاً للمستنصر وقريباً منه ، وألف له كتاب " الحدائق " ومع هذا فقد رفع له أنه هجاه ، فسجنه حتى مات فى سجنه <sup>(١)</sup> كما تذكر الروايات أن هشاماً المؤيد قطع لسان انشاعر أبى المخش عاصم بن زايد لأنه كان جسوراً على الأعراض <sup>(٢)</sup> وكان يوسف بن هارون الرمادى ( ت ٤٠٣هـ ) أحد الشعراء الذين تعرضوا لضرر الحكام وبطشهم ، فقد اتهم فى أيام الحكم مع جماعة من الشعراء بشعر قيل فى ذم السلطان ، ومنه هذا البيت :

يولى ويعزل من يومه فلاذا يتم ولاذا يتم

ويقول ابن خاقان <sup>(٣)</sup> : " وشاعت عنه أشعار فى دولة الخليفة وأهلها . سدد إليهم صائبات نبلها . وسقاهم كؤوس مهلها ، أو غرت عليه الصدور

<sup>(١)</sup> المغرب ٥٦ / ٢ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ١٢٣ / ٢ .

<sup>(٣)</sup> معتمد الأنفس ص ٧٢ .

وفغرت عليه المنايا ، ولكن لم يساعدها المقدور ، فسجنه الخليفة دهرأ وأسلكه من النكبات وعراً ” .

ويوضح ابن حيان فى المقتبس قصة الإيقاع بالرمادى ونفر من رفاقه فيقوا فى حوادث سنة ٣٦١هـ : ” وفى يوم السبت لخمس بقين من جمادى الآخر منها أوقع صاحب المدينة بالزهراء محمد بن أفلح عن عهد الخليفة بالعصبة البطراء من أهل قرطبة ، المستخفين بالطاعة ، العاملين بذرب الألسنة أنبههم عيسى بن قرمان الملقب بالزبراقة ، الكاتب الشاعر ، ومؤنس الكاتب مولى الأئ المنذر بن الناصر ، وأحمد بن الأسعد الملقب بصدام الكاتب ، وجماعة إليهم رموا بالاستخفاف والتعطيل والغمص للخليفة والوقوف فى أعراض الناس ونش مثالبهم ، فى أشعار يجتمعون على صوغها ، ويتبارون فيها ، فرأى أمية المؤمنين دفع أذاهم وقطع مضرتهم بنفيهم من الأرض وإيداعهم السجن والإبلا فى إهانتهم جزاء بما كسبت أيديهم ومازورت ألسنتهم ، فكان ممن ألسن الطلب له والبحث عنه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاء المعروف بأبى جنيش زعيمهم ، غاب مدة والطالب له حثيث ، والنداء عليه متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تليقه ، والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعب مستبسلاً لحتفه ، فأقبل مغيراً طلعتة ، شاداً حيازيمه ، واضعاً لبدأ له فوز رأسه كيما يتوطأه فى السجن فلم يؤبه له حتى انتهى إلى باب السجر بالزهراء... ” (١) .

ويذكر صاحب المعجب أن الرمادى نكب مرة أخرى فى خلافة المنصور ابر أبى عامر ، لأن الرمادى - كما زعم - كان مشايعاً للمصحفى وأغراه هذ بهجاء المنصور ، فلما حدثت نكبة المصحفى ، واستصفيت أمواله ، التفت المنصور إلى الرمادى وأوسعه عقوبة ونكالا ، وأمر بتغريبه ثم شفع له عنده فقيل الشفاعة فيه ولكنه أمر الناس ألا يكلموه ، وطاف بذلك مناد فى جميع جهات

(١) المقتبس ص ٧٢ وما بعدها (ط. بيروت)

قرطبة ، فأقام الرمادى كالميت إلى أن توفى فى أواخر حكم المنصور بن أبى عامر<sup>(١)</sup> .

وهذه الروايات صادقة الدلالة على ما كان يلقاه الشعراء من عنت الحكام وقسوتهم مما دفع كثيراً منهم إلى إخفاء أسمائهم خشية ورهبة " ولا شك أن صدور شعر الهجاء الموجه للسلطة من أناس مجهولين ، يجعلنا نقرر مطمئنين ، وجود المعارضة ، وهذه المعارضة لا تتمكن من إبداء آرائها ، فهى تتخفى وتتستر وتسلك سبلاً مختلفة لإظهار وجهة نظرها تجاه الحكومة ، فقد تستغل ما يحدث بين الملك وأحد وزرائه من خلاف أو فتور التنطقه بهجاء الملك ، والتشهير بالحكم والحكام .. وقد تلتصق أهاجيتها بأحد الشعراء البعيدين عن سطوة الحكم ، أو تترك أهاجيتها من غير قائل معين " <sup>(٢)</sup>

ومهما يكن من أمر ، فإن تشدد الحكام مع شعراء الهجاء لم يؤد إلى تكميم أفواههم أو إسكات ألسنتهم عن المجاهرة بمساوئهم ومطالبهم ، ، فعبروا عن ضيقهم بهم ، وكشفوا عن أوجه الفساد فى سياستهم ، وتحدثوا عن انغماسهم فى الترف والملذات ، وتشبثهم بكرسى الخلافة على حساب مصالح الرعية وتظاهرهم بالنسك والورع ، وتضليل عقول الناس ، وإيثارهم الخمول والدعة ، والتخلى عن أداء الجهاد ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يهاجمون سياسة الحكم وينتقدون تصرفاتهم ، فكان الهجاء السياسى " من الموضوعات الشعرية التى برزت فى فترة الحجابة ، وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسى فى نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة ( صبح ) ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد ، ووضع كهذا

<sup>(١)</sup> المعجب ص ٢٠ - ٧١ .

<sup>(٢)</sup> الشعر فى ظل بنى عباد ص ٢٠١ .

من شأنه أن يثير بعض الشعراء ، وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرؤ المتبرمين <sup>(١)</sup> .

ونجد أحد الشعراء المجهولين يصف دولة المنصور بن أبى عامر كلها بالفساد ويقذف المنصور نفسه بأفظع التهم فيقول : <sup>(٢)</sup>

اقترب الوعد وحن الهلاك      وكل ما تحدره قد أتاك  
خليفة يلعب فى مكتب      وأمه جلى وقاض .....<sup>(٣)</sup>

والشاعر فى هذا الهجاء الموجه يعنى بالخليفة ( هشاماً المؤيد ) لأنه كان صغير السن آنذاك ، ويعرض بأمه ( صبح البشكنسية ) وكان الأعداء يتهمون بها المنصور ، ولم ينج القاضى من لسان الشاعر ، فرماه هو الآخر بهذه التهمة الشنيعة .

ويشير المقرئ إلى بعض تصرفات المنصور بن أبى عامر التى أثارت النقد والسخط فيذكر أن المنصور حجر على هشام المؤيد بحيث لم يره أحد منذ ولج الحجابة ، وربما أركبه بعد سنين وجعل عليه برنساً ، وعلى جواريه مثل ذلك فلا يعرف منهن ، ويأمر أن ينحى الناس من طريقه حتى ينتهى المؤيد إلى موضع تنزهه ثم يعود ، غير أنه أركبه بأبهة الخلافة فى بعض الأيام لغرض له ، وكان المنصور إذا سافر وكل بالمؤيد من يفعل معه ذلك ، فكان هذا من فعله سبباً لانقطاع ملك بنى أمية من الأندلس ، وأخذ مع ذلك فى قتل من يخشى منه من بنى أمية خوفاً أن يثوروا به ، ويظهر أنه يفعل ذلك شفقة على المؤيد ، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ثم فرق باقيهم فى البلاد ، وأدخلهم زوايا الخمول عارين من الطراف والتلاد ، وربما سكن بعضهم البادية ، وترك مجلس الأبهة وناديه ، حتى قال بعض من ينقم على المنصور ذلك الفعل من قصيدة :<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> الأدب الأندلسى . من الفتح إلى سقوط الخلافة تأليف الدكتور أحمد هيكل ص ٣١٢ .

<sup>(٢)</sup> نفح الطيب ١ / ٦٠٢ ، البيان المغرب ٢ / ٤١٨ .

<sup>(٣)</sup> حدثنا هذه الكلمة لقبها وهى واضحة من السياق والقافية .

<sup>(٤)</sup> نفح الطيب ١ / ٥٩١ .

أبني أمية ابن أقمار الدجى      منكم؟ وأين نجومها والكوكب  
غابت أسود منكم عن غايها      فلذاك حاز الملك هذا الثعلب

ويشير ابن عذارى إلى ما جرت عليه سياسة بعض ملوك بني أمية من سوء وفساد فينقل عن ابن حيان قوله عن المستعين بالله : " كان ملكه بقرطبة وغيرها أولاً وآخراً ست سنين وعشرة أيام كلها شداد نكرات كريهات المبدأ والفتاحة لم يعدم فيها حيف ولا أمن فيها خوف لتغير السيرة واشتعال الفتنة . دولة كفاها ذماً أن أنشأها شانجة ووزرها دب فتمخضت عن الفاقة الكبرى" (١)

ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار بأبشع الصفات فيذكر أنه أظهر من الخلاعة والضعف ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ، واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب ، واشترى له صقلبي كان يتعشقه عند ابن الزيات العطار ، وبعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية أبي القاسم المصرى الخيالى ، التى يقال لها ( بستان ) وامرأة ابن الشرح التى اسمها ( واجد ) ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل الدعارة المتهتكين فيها ، فكان هذا من أسباب القيام عليه وإشعال الفتنة لديه ، ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق ، مظهراً للخلاعة ، لا يفيق من سكر، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهى ، حتى قال بعضهم فيه : (٢)

أمير الناس سخنة كل عين      يبيت الليل بين مخنثين  
يجشم ذا وبلثم خد هذا      ويسكر كل يوم سكرتين  
لقد ولوا خلافتهم سفيهاً      ضعيف العقل شيناً غير زين  
وقيل فيه أيضاً : (٣)

أشأم خلق على العباد      والناس من حاضر وباد  
أبو الوليد الذى افشعرت      لنحسه شعرة البلاد

(١) البيان المغرب ص ١١٨ .

(٢) البيان المغرب ص ٧٩ - ٨٠ .

(٣) نفسه ص ٨٠ .

كان على قومه جميعاً مزار عاد لقوم عاد

ويفهم من كلام ابن عذارى أن هشاماً كان أكثر ملوك بني أمية عرضة لهجاء الشعراء وانتقادهم لتصرفاته فيعقب على الأبيات السابقة بقوله :  
" وقيل فيه كثير من هذا يطول الكتاب به " (١)

وفي عصر الطوائف لم يضعف هذا اللون من الهجاء خلافاً لما يراه " غرسيه غومس " إذ يظن أن استبداد طواغيت الحكام بالناس أيام الطوائف أدى إلى زوال هذه الفن (٢) . وقد مال إلى هذا الرأي أيضاً الدكتور إحسان عباس فرأى أن صوت النقد الموجه ضد الحكام لم يكن قوياً جهيراً في أيام الطوائف (٣) وكرر الرأي نفسه في موضع آخر فقال (٤) : " وقد نقدر أن حرية التعبير في عصر الطوائف كانت ضيقة الحدود ، وأن الخوف ألجم الناقلين والمتذمرين عن الإفصاح بما كانوا يحسونه " .

وفي تقديرى أن اختلال الأحوال السياسية كان من أكبر العوامل التي وجهت الشعراء إلى هجاء ملوك الطوائف ، فقد غضب الشعراء لما أصاب الأندلس من تمزق ، ولما رأوه من تنازع الحكام وانصرافهم عن مصالح الرعية وانشغالهم بإرضاء أهوائهم وإشباع غرائزهم ونزواتهم ، فكان الشعر لهم بالمرصاد ، يفضح تصرفاتهم ويكشف زيفهم وخداعهم ، ومما يدل على رواج الهجاء السياسى فى عصر الطوائف - أن أحداً من الحكام لم يسلم من هجاء الشعراء حتى بنى عباد حكام اشبيلية الذين عرفوا بالفضل وتشجيع الأدب فقد قيل فى ذمهم شعر كثير ، غير أن هذا لا يعنى أن كل ما صوب إلى ملوك الطوائف من أسهم الهجاء كان لدوافع سياسية أو لأسباب تتصل بالعصبية للوطن أو للدين ، فهناك جانب من هجاء الشعراء للحكام قيل لدوافع ذاتية ،

(١) البيان المغرب ص ٨٠ .

(٢) الشعر الأندلسى ص ٦١ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٤٩ .

كان يخيب رجاء الشاعر في عطائهم فينقلب عليهم من المدح إلى الهجاء كقول  
أبي الحسن جعفر بن إبراهيم اللورني الذي ارتحل إلى اشبيلية للظفر بعتاء بنى  
عباد ولكنه لم يظفر منهم بطائل فهجاهم بقوله <sup>(١)</sup> :

تعز عن الدنيا ومعروف أهلها      إذا عدم المعروف في آل عباد  
حللت بهم ضيفاً ثلاثة أشهر      بغير قرى ثم ارتحلت بلا زاد

ومن هذا الضرب قول الحصرى يعرض بهم عندما أرسل غلامه - وهو في  
طنجة - يبنى عطاء المعتمد فلم يجبه : <sup>(٢)</sup>

نـبـه الـركـب الـهـجـوعـا      ولم الدهر الفجوعا  
حمص الجنة قالت      لغامى لا رجوعا  
رحم الله غلامى      مات فى الجنة جوعا

ويعرض ابن شرف بالمعتضد بن عباد ، ويندد بما قيل عن بطشه بكثير من  
وزرائه وندمائه حتى لقد خاف أن يفد إليه لئلا يتعرض لما تعرض له غيره من  
مصير مؤلم فيقول فى أسلوب لاذع <sup>(٣)</sup> :

أإن تصيدت غيرى صيد طائرة      أوسعتها الحب حتى ضمها القفص  
حسبني فرصة أخرى ظفرت بها      هيهات ما كل حين تمكن الفرص  
لك الموالد للقصاد مترعة      تروى وتشبع لكن بعدها غصص  
ولست أعجب من قوم بها انتشبا      لكنما عجبى من معشر خلصوا  
ولم يطب قط لى من لا يلد ولا      سلوى إذا كان فى عقابها مغمص

ولم يقف الشعراء فى هجائهم لبنى عباد عند هذا الجانب من هجائهم بل  
أكثرُوا من ذمهم ونقد سياستهم ووصفهم بالجور والطغيان ويبدو أن المعتضد كان  
أكثر بنى عباد تعرضاً لهجاء الشعراء ، فهو لم يسلم من هجائهم حتى بعد

<sup>(١)</sup> نفح العليب ٤ / ٢٢٦ .

<sup>(٢)</sup> وفيات الأعيان ٣ / ٢٠ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة ٤ / ١ / ١٤٢ .

وفاته على نحو ما نجد في قول ابن زيدون يعبر عن شماتته عندما نعاه الناعي  
ويصفه بالطاغية ، فيقول : <sup>(١)</sup>

لقد سرنا أن السنئ موكل      بطاغية قد حم منه حمام  
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى      ومر عليه البرق وهو جهام

ومما ينسب إلى ابن رشيق قوله في هجاء بني عباد : <sup>(٢)</sup>

مما يزهدني في أرض أندلس      تلقب معتضد فيها ومعتمد  
ألقاب مملكة في غير موضعها      كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ولم يسلم المعتمد من هجاء الشعراء برغم ما عرف عنه من صفات طيبة وثمة  
رواية - إن صحت - فهي بالغة الدلالة على حساسية المعتمد تجاه الهجاء ،  
فقد ذكر المقرئ نقلاً عن الحجارى أن يوسف بن تاشفين أهدى المعتمد جارية  
مغنية قد نشأت بالعدوة وجاء بها إلى إشبيلية ، فخرج إلى قصر الزاهر على نهر  
إشبيلية وقعد على الراح ، فخطر لها أن غنت - عندما انتشى - هذه  
الآبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم      ولووا عمانهم على الأعمار  
وتقلدوا يوم الوغى هندية      أمضى - إذا انتضيت - من الأقدار  
إن خوفوك لقبك كل كريمة      أو أمنوك حللت دار قرار

وتقول الرواية أن المعتمد عندما سمع أبيات الجارية وقع في قلبه أنها  
عرضت بساداتها فلم يملك غضبه ورمى بها في النهر فهلكت <sup>(٣)</sup> .

ويذكر ابن بسام أنه نسب إلى ابن عمار شعر كثير فيه قدح في المعتمد وآله  
وذويه وغياله ، منه هذه القصيدة التي عرض فيها بأمر بنيه المعروفة بالرميكية ،  
وفيها يقول : <sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> ديوان ابن زيدون ص ٥٩٢ .

<sup>(٢)</sup> اشمال الاعلام (ط. بيروت) . ص ١٤٤ .

<sup>(٣)</sup> نوح العليب ٤ / ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

<sup>(٤)</sup> ديوان ابن عمار ص ٢٩١ .

أنا خوا جمالا وحازوا جمالا  
ونم فعسى أن تراها خيالا  
ولم تر للنار فيها اشتعالا  
حميت الحمى وأبحت العيالا  
وقدماً عهدتك تهوى الرجالا  
رميكية ما تساوى عقالا  
لنيم النجارين عمأ وخالا  
رماهم فجاءوا حيارى كسالى  
أقاموا عليها قروناً طوالا  
وأنت إذا لحت كنت الهلالا  
وأرشف من فيك ماء زلالا  
فتقسم جهدك أن لا حالالا  
وأهتك سترك حالالا

ألا حى بالغرب حياً حالالا  
وعرج بيومين أم القرى  
لتسأل عن ساكنيها الرماد  
أيافارس الخيل يازيدها  
أراك تورى بحب النساء ،  
تخيرتها من بنات الهجان  
فجاءت بكل قصير العذار  
بصفر الوجوه كان استها  
قصار القدود ولكنهم  
أتذكر أيامنا فى الصبا  
أعانق منك القضيبي الرطيب  
واقنع منك بدون الحرام  
سأكشف عرضك شيئاً فشيئاً

ويقول صاحب الخريدة إن هذه القصيدة كانت من أقوى الأسباب التي جعلت المعتمد يأمر بقتل ابن عمار<sup>(١)</sup> ولكن أحد الباحثين يتشكك في نسبتها ابن عمار الذي كان له حساد ومنافسون كثيرون لا يستبعد صدورها عنهم ، ويرجح أن تكون هذه الأبيات " نظمت بتحريض من ابن عبد العزيز أمير بلنسية وعدو ابن عمار اللدود الذي هجاه ابن عمار قبل هذا " ويبني تشككه أيضاً على " أن الأفكار والمعاني التي تقوم عليها القصيدة من فحش بذيء ، وإقذاع مقزز ، وتشهير شنيع ، لا تسمح بنسبتها إليه ، مهما تصاعد الحقد والكراهية بينهما ، بالإضافة إلى عدم انسجامها مع أفكاره ومعانيه ، لأنه حتى في هجائه لابن عبد العزيز وهو من أشد أعدائه لم يقذع ، ولم يصل إلى ما وصل إليه في هجائه لصديقه الحميم المعتمد من إسفاف وانحطاط " (١)

<sup>١</sup> حريدة القصر ٧١ / ٢ .

نشر في نزل بى تباد ص ١٩٩ - ٢٠٠

وفى رأى أن الفهم الدقيق لشخصية ابن عمار يؤكد نسبة هذه القصيدة إليه ، فقد عاش هذا الشاعر فى مجتمع يخضع للمصالح والأهواء " وفى هذا الجو المتقلب المتموج ، برزت شخصية الرجل القلق المغامر الذى يتجول من بلد إلى بلد عارضاً مهارته على من يقدرها حق قدرها ، يستوى فى هذا مختلف ذوى المهارات المطلوبة من جندى وكاتب وشاعر ومعماري وصاحب أى حرفة أخرى ، ولم يكن اختلاف الدين حاجزاً فى هذه الأمور ، فكان السيد القنبيطور يخدم المصلحة ، فتارة يحارب من أجل أمير مسلم ، وتارة من أجل أمير نصرانى ، ولما سقطت طليطلة فى يد النصارى حلق الفقيه أبو القاسم بن الخياط وسط رأسه وشد الزنار وأخذ يعمل كاتباً عند الأذفونش<sup>(١)</sup> وأنموذج هذه الشخصية من الجانب الإسلامى - فى مقابل القنبيطور - شخصية الشاعر ابن عمار ؛ فقد نشأ فقيراً محروماً ، ولكنه كان مشرباً بالطموح ، انتهازياً . مكياً فيلياً ، مستعداً لأن يركب إلى غايته كل واسطة ، مؤمناً بالصدقة بمقدار ما تبلغ أهدافه " (٢) .

ويكاد الدارسون لابن عمار يتفقون على ما عهد فيه من طباع أقرب إلى التدنى . يقول باحث آخر<sup>(٣)</sup> " كان ابن عمار وصولياً - إذا صح التعبير - مخلصاً لأصدقائه ، فقد خان المعتمد صديقه وولى نعمته ، واستغل ضعف ابن طاهر ، رغم ما بينهما من علاقات وثيقة ليوقع به ، كما لم يسلم من لسان السليط ، أمير بلنسية ، عبد العزيز بن أبى عامر ، والمعتصم بن صمادح أمير دانية الذى كانت تربطه بالشاعر أوثق الصلات " .

وفى إطار هذا الفهم لطبيعة ابن عمار تبدو نسبة هذه القصيدة إليه أمر طبيعياً ، وحتى إذا كانت هذه القصيدة محل شك - وهو ما لا نميل إليه

(١) المغرب ٢٢ / ٢ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ٣٤ .

(٣) محمد بن عمار الأندلسى تأليف الدكتور صلاح خالص ص ٨١ .

فماذا نقول فيما ذكره ابن بسام من أن لابن عمار شعراً كثيراً نسب إليه في ذم  
المعتمد وآله وبنيه ؟

وعلى أية حال ، فلم يكن بنو عباد هم وحدهم المستهدفين لأهاجي ابن  
عمار ، فقد هجا أيضاً بنى عبد العزيز أمراء بلنسية في عصر الطوائف ، ويقول  
ابن بسام <sup>(١)</sup> : " وكانت حال ابن عمار ، حين تردد بتلك الأقطار من بلد بنى  
هود ، قد تمكن منهم بالمؤتمن ، إلا أن بنى عبد العزيز كانوا يشرقونه بريقه ،  
ويوعرون عليه السهل من طريقه ، ويبلغه عنهم ما تتوقد له ضلوعه ، وتنسكب  
منه دموعه ، بلغه عنه - يعنى ابن عبد العزيز - وعن ابن طاهر أنهما ندرا  
فيه بسبب خاتمين كان المؤتمن ختمه بأحدهما ، والآخر أذفونش ابن فرذلند ،  
فكتب ابن عمار إلى ابن عبد العزيز : <sup>(٢)</sup>

قال للوزير وليس رأى وزير	أن يتبع التندير بالتندير
إن الوزارة مدبست رداءها	وقف على التغيير والتزوير
وأرى الفكاهة جل ما تأتي به	رحمك في التعجيز والتصدير
بلغت دعابتك التي أهديتها	في خاتم التامين والتأمير
وأظنها للطاهري ، فإن تكن	فجديرة التقديس والتطهير
فرسار هان أنتما فتجاريا	بالقول في التقديم والتأخير
وإذا سلكت سبيله فحقيقة	كى يتبع التصغير بالتصغير
وأرى بلنسية وأنت قدارها	سينالها التدمير من تدمير

وكان ابن عمار شديد التنقص للوزير أبى بكر أحمد بن محمد بن عبد  
العزيز ، أمير بلنسية ، وأكثر من هجائه وهجاء أسرته ، فمن ذلك قوله يغرى  
أهل بلنسية بهم <sup>(٣)</sup> :

<sup>(١)</sup> الذخيرة ١ / ٢ / ص ٤١٠ .

<sup>(٢)</sup> الذخيرة ١ / ٢ / ص ٤١٠ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ١ / ٢ / ص ٤١١ - ٤١٢ ، الحلة السراء ٢ / ص ١٥٥ .

أن قد تدلت في سواء النار  
جرروا إليكم أسوأ الأقدار  
ملكاً يقوم على العدو بئار  
وكلاهما أهل لتلك الدار  
عن سوءة سوى وعار عار  
ودهاة خذلان من الأنصار  
وقضى على الإقبال بالإدبار  
فرماكم من طاهر بقدار

بشر بلنسية وكانت جنة  
جازوا بني عبد العزيز فإنهم  
ثوروا بهم متأولين وقلدوا  
هدا محمد أو فهذا أحمد  
جاء الوزير بها يكشف ذيله  
وأوى لينصر من بنا المثنوى به  
نكت اليمين وحاد عن سنن التقى  
ما كنتم إلا كأمة صالح

وعلى نحو ما هجى بنو عباد ، وبنو عبد العزيز ، هجى أيضاً غيرهم من  
أمرء الطوائف ، فقال عبد الملك بن حصن يهجو المأمون بن ذى النون : <sup>(١)</sup>

لآمن كلباً حيث لست مؤمنه  
وأما الندى فاندب هنالك مدفنه  
بحجابيه للقاصدين معنونه

تلقيت بالمأمون ظلماً وإننى  
حرام عليه أن يجود ببشره  
سطور المخازى دون أبواب قصره

ويتألق المنفتل فى هجائه لصاحب ( لبلة ) مصوراً إياه تصويراً مزريه  
فيقول : <sup>(٢)</sup>

واذكر به خدام نار جهنم  
كالكلب أسقط شعره لعق الدم

إن ابن يحيى ضحكة فتوسم  
أكل الخبيث فشعره متساقط

ويسخط ابن عبدون على الملوك جميعاً لأسباب ذاتية تتعلق بإهمالهم ل  
وعدم الاكتراث به عندما عرض عليهم بضاعته ، يقول : <sup>(٣)</sup>

سوى ذا الحظ من أيدي الزماع  
ووجه الموت محذور القناع  
كما مرق الهلال من الشعاع  
خبيراً فاقض حق الإستماع

ساطلب لا بالسنة اليراع  
وأخبط بالسرى ورق الدياجى  
وأمرق من أسارير المواضى  
فسلنى عن ملوك الأرض تسأل

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٣ / ٣٦٣ .

<sup>(٢)</sup> الدخيرة ١ / ٢ ص ٧٦١ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة ٢ / ٢ ص ٧١٢ - ٧١٣ .

لأوضح غبنهم عند البيع  
ولا سلخوا سبيلاً في اصطناعي  
على ضمير ورأس في صداع  
شكت بسكونها نحل النخاع  
ولا تصفى المودة للذراع  
وأذن لا تألم من قذاع  
ونقل الطبع ليس بمستطاع  
لما احلوت مراعيه لراع  
ولا شرط ولا درك ارتجاع  
فحسبى ما تقدم من قراع

عرضت عليهم نفسى ونفسى  
فما اتبعوا دليلاً فى اجتنابى  
كأعضاء بها ألم فقلب  
ومن عصب إذا سنلت حراكاً  
ويمنى لا تجود على شمال  
وعين لا تغمض عن قبيح  
فما أبقوا ولا هموا ببقيا  
فلوسقت السماء الشرى أربا  
فبعثتهم بتاتاً لا بنسباً  
ولم أجعل قرابى غير بيتى

ولعل أجمل ألوان الهجاء هو ما يتجاوز فيه الشاعر رغباته ومصالحه الذاتية إلى أحاسيس الناس عامة ، فيصور مشاعر الغضب والسخط التى تختلج فى نفوسهم إزاء حاكم خائن أو ملك ظالم مستبد ، وكلما مال الشاعر إلى التعمية والتعميم كان هجاؤه أوقع وأقرب إلى الخلود ، فمن ذلك هذه الأبيات لأحد الشعراء ينحى فيها باللائمة على أولئك الحكام الذين عميت أبصارهم ، وافتقدوا الحزم فى تدبير شئونهم ، وتصاغروا أمام أعدائهم ، وقد نظمها صاحبها بعد خراب قرطبة ، وفيها يقول :<sup>(١)</sup>

ستعلمون معاً عقبى البوار غدا  
بكيتم بدم إن دمتم بددا  
فالبستكم ثياباً للبلى جددا  
ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا  
فى شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا  
تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا  
جميعكم محنة لا تنقضى أبدا

أضعتم الحزم فى تدبير أمركم  
فلورأيتم بعين الفكر حالكم  
لكن سبل العمى أعمت بصائركم  
يا أمة هتكت مستور سوءتها  
فى سورة الحشر آيات مفصلة  
نعم وفى الكهف فى العشرين خاتمة  
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت

<sup>(١)</sup> البيان المنرب ص ١١٠ .

ويعد ( السميسر ) أحد الشعراء الذين يمثلون هذا الاتجاه تمثيلاً صادقاً واسمه خلف بن فرج . من أعلام شعراء البيرة . وهو من أبرز شعراء الهجاء فى الأندلس عامة . قال عنه ابن بسام : " كان باقعة عصره . وأعجوبة دهره ، له طبع حسن ، وتصرف مستحسن فى مقطوعات الأبيات ، وخاصة إذا هجا وقـدح .. وله مذهب استفـرغ فيه مجهود شعره من القدح فى أهل عصره " (١) ووصفه المقرئ بأنه " كان كثير الهجاء " ، وذكر أنه ألف كتاباً سماه ( شفاء الأمراض فى أخذ الأغراض ) (٢) .

والظاهرة التى نلاحظها فى هجاء السميسر أنه ليس هجاء فردياً يعبر عن عن حقد ذاتى أو يستهدف تحقيق منفعة خاصة ، ولكنه هجاء " تعميمى المنزع يدل على قلق وعدم ارتياح لبعض ما يراه من أوضاع " (٣) ، فهو لا يوجه هجاءه إلى حاكم بعينه ، وإنما يهاجم ملوك الطوائف عامة ، معبراً عن تسخطه وتسخط الناس جميعاً إزاء أولئك الحكام الذين شغلوا عن مصالح المسلمين بالجرى وراء مصالحهم الخاصة ، وأصبح اهتمام كل واحد منهم موزعاً بين شراب يعكف عليه ، وجارية يتعشقها ، وقينة يلذع لسماع صوتها ، وحرب يشنها على جيرانه ، وتخاذل أولئك الملوك أمام أعداء الإسلام ، وتقاعسوا عن أداء فريضة الجهاد ، فسقطت طليطلة ، وتهاوت القلاع والحصون ، وانحسر المد الإسلامى عن بعض بقاع الأندلس ، ويرتفع صوت السميسر الشاعر الغاضب داعياً إلى الثورة على أولئك الحكام المتخاذلين الذين شقوا عصا طاعة النبى وأصابوا الإسلام فى صميمه ، يقول : (٤)

ماذا الـدى أحدثتم  
أسر العدى وقعدتم

ناد الملوك وقل لهم  
أسلمتم الإسلام فى

(١) الدخيرة ٢ / ١ ص ٨٨٢ - ٨٨٣ .

(٢) نفع الغيب ١٠٨ / ٤ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٤١ .

(٤) الدخيرة ٢ / ١ ص ٨٨٥ .

وجب القيام عليكم      إذ بالنصاري فمستم  
لا تنكروا شق العصا      فصا النبي شققتم

وفي أبيات أخرى يتهم السميسر أولئك الحكام بالخيانة ، ويشير إلى  
تضاؤل مكانتهم ، واهتزاز صورهم في أعين الناس <sup>(١)</sup> .

خنتم فهنتم فكم أهنتم      زمان كنتم بلا عيون  
فأنتم تحت كل تحت      وأنتم دون كل دون  
سكنتم يا رياح عاد      وكل ريح إلى سكون

ويكثر السميسر من توجيه انتقاداته اللاذعة إلى أمراء الطوائف ، ملوحاً بما  
ينتظرهم من مصير مؤلم ، كقوله : <sup>(٢)</sup>

رجوناكم فما أنصفتمونا      وأملناكم فخذلتمونا  
سنصبر والزمان له انقلاب      وأنتم بالإشارة تفهمونا

ويقول أيضاً : <sup>(٣)</sup>

وليتم فما أحسنتم مدوليتم      ولا صنتم عمّن يصونكم عرضا  
وكنتم سماء لا ينال منالها      فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا  
ستسترجع الأيام ما أقرضتكم      ألا إنها تسترجع الدين والقرضا

وما نقرؤه من هجاء السميسر يدل على أنه كان من أكثر شعراء الأندلس  
غيرة على الوطن الأندلسي ، فهو يصدر في هجائه عن دافع وطني أصيل ،  
ويتعدى هجاؤه النظرة الذاتية أو الإقليمية إلى وجهات أعم وأشمل ، وأشد ما  
كان يؤلم السميسر أن يرى بعض حكام زمانه يصانعون أعداء الإسلام ، وتشير  
إحدى الروايات إلى موقف للسميسر اتسم بالجرأة والجسارة إزاء ( باديس  
ابن حبوس ) أمير غرناطة عندما استوزر وزيراً يهودياً ، ولما هلك استوزر بعده

<sup>١</sup> نفتح العليب ٤ / ص ١٨٠ .

<sup>٢</sup> الذخيرة ١ / ١ / ٣٧٨ .

<sup>٣</sup> نفتح العليب ٤ / ١٠٨ .

وزيراً نصرانياً فنظم السميصر أبياتاً كتب بها نسخاً عدة ورمها في شوارع البلد والطرقات وسار من ساعته إلى المرية معتصماً بالمعتصم ابن صمادح ، وطارت الأبيات في أقطار الأندلس ، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه أصحاب الخيل فقاتهم ولم يلحقوه ، يقول السميصر في هذه الأبيات :<sup>(١)</sup>

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصاري	فانظر إلى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا	لطاقعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاهاً	كأنه دودة الحريير
دعوه يبني فسوف بدرى	إذا أتت دورة القدير

إن السميصر في اتجاهه هذا يذكرنا بالشاعر الإنجليزي ( Pope ) الذي تصور الهجاء تصوراً حسناً حين قال :<sup>(٢)</sup>

استمعوا إلى هذا وارعدوا أيها الهاربون من القانون  
فلن يستطيع الأغنياء والمخادعون من النبلاء ما دبت في الحياة  
أن يقطعوا حياتهم إلى القبر في ثقة واطمئنان  
للفضيلة وحدها ولأصدقائها أنصا صديق  
ما أبالي ضج الناس من حولي ساخطين ، أو لنا ما دحين

لقد لفت السميصر بمقطعاته الهجائية اللاذعة أنظار بعض الباحثين فرأى أحدهم أنه يعد أكثر شعراء عصر ملوك الطوائف جرأة وجسارة ، وأنه عبر بحق عن ضمير الأمة ، وكان صوته الغاضب هو صوت الشعب بأسره<sup>(٣)</sup> ويقول عنه الدكتور الطاهر مكي " وله من زمنه موقف رافض حين رأى اختلال القيم . وزهوة الباطل ، وغلبة الصغار . وعجزه عن التغيير . فأدار ظهره لكل ما حوله ، وجاء شعره رافضاً بكل ما تعنيه الكلمة في عصرنا الحديث ، سخر مما

(١) معجم السفر للسلفي (مخطوط) الورقة ٢٦٥ .

(٢) الهجاء والهجاءون في الجاهلية ص ١٧ .

(٣) مجلة عالم الفكر - المجلد الثاني عشر - العدد الأول . مقال للطرابسي أحمد أعراب بعنوان ( الأصوات العالية والإنزامية في الشعر الأندلسي ) ص ١٣٥ .

يعظم الناس ، وهجا من يمدحون ، واحتقر ما يحبرون ، وجاء هجوه لهم  
مفحشاً ، ونقده قاسياً ، فأهمله المؤرخون خوفاً ممن هجاهم . . كان داعية ثوره  
حين استطاب الناس المتع واللذة ، وخلدوا إلى الدعة والراحة وآثروا الأمن  
والسلامة<sup>(١)</sup>.

ويرى الدكتور إحسان عباس أن مقطعات السميسر فى الهجاء تشبه أن  
تكون نوعاً مما يسمى فى اللاتينية " الإبجرام " *Epigram* اللاذع المستدير  
سواء أقصد بها قصد الهجاء العام أو التعبير عن نظرة فلسفية<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن هجاء السميسر لأمر الطوائف يمثل موقفاً فردياً ، ولكنه كان  
تجسيداً لموقف عام صدر عنه كثير من شعراء الأندلس ، وإن كان السميسر يعد  
أبرزهم تمثيلاً لهذا الموقف - فهناك شعراء آخرون شاركوا السميسر ثورته على  
أمراء الطوائف المتخاذلين ، فانطلقوا يتوعدونهم ، ويلوحون بتخاذلهم  
وخيانتهم للمسلمين ولاسيما بعد سقوط طليطلة بسبب مصانعة أولئك الأمراء  
للمنصارى واتفاقهم فيما بينهم على التخاذل وإيثار القعود ، وتواطئهم على خطة  
زائفة عجلت بسقوط هذه المدينة العظيمة ، وإلى ذلك يشير أحد الشعراء  
بقوله:<sup>(٣)</sup>

وقيل تجمعوا لفراق شكل	طلبيطة تملكها الكفور
فقل فى خطة فيها صغار	يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعول	على نبا كما عمى البصير

وحين سقط ملوك الطوائف تشفى فيهم الشعراء ، وارتفعت أصواتهم معبرة  
عن أحاسيس الشماتة إزاء أولئك الملوك الذين طالما استمرأوا أو الفساد ، وشغلوا  
أنفسهم بالقصف واللهو والغناء عن الجهاد ، ولم يفكروا فيما ينتظرهم من نهاية

<sup>(١)</sup> دراسة أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ص ٧٤ .

<sup>(٢)</sup> تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ١٢٩ .

<sup>(٣)</sup> فتح العليب ٦ / ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

أليمة ، ويعبر أبو الحسن بن الجد عن هذه المعاني مصوراً ملوك الطوائف  
تصويراً مزيياً . فيقول <sup>(١)</sup>

نلقاه أو يتلقانا به خبر	فى كل يوم غريب فيه معتبر
دوائر السوء لا تبقى ولا تدر	أرى الملوك أصابتهم باندلس
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا	ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
يحدو به ملهياه : الناي والوتر	وكيف يشعر من فى كفه قدح
فما تمر به الآيات والصور	صمت مسامعه فى غير نعمته
له خوار ولكن حشوه خور	تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه

وعندما جاء المرابطون لم يتعاطف معهم الأندلسيون ، ونظروا إليهم على اعتبار أنهم دخلاء اقتحموا بلادهم واستمتعوا بخيراتها ، وخلق حكمهم الأندلس أوضاعاً جديدة أثارت غضب الأندلسيين وتمثلت هذه الأوضاع فى استئثار المرابطين بالوظائف والمناصب الهامة ، وافتئاتهم على السكان ، وتمتعهم بنفوذ خاص ، حتى بات من العسير أن يحاسب المرابطى فى عمله ، أو ينكر عليه شىء فى الخطة التى وليها <sup>(٢)</sup> . كما اشترط المرابطون أن كل من يلثم يجب أن يكون صنهاجياً أو لتونياً أو لمطياً ، أما من هم من الحشم والعبيد فإنهم حين يلثمون يهيبون على الناس ، ويأتون أبواباً من الفجور كثيرة ، بسبب اللثام وهماً <sup>(٣)</sup> . واضطربت أحوال الأندلس فى أواخر حكم المرابطين ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال <sup>(٤)</sup> : " فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا فى أعينهم . واجترأ عليهم العدو " .

<sup>(١)</sup> أعمال الاعلام ص ٢٤١ .

<sup>(٢)</sup> ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة لابن عبدون التجيبى ص ١٦ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ص ٢٨ .

<sup>(٤)</sup> المعجب ص ٢٧٧ .

يضاف إلى بواعث هجاء المرابطين باعث آخر على جانب كبير من الأهمية، ونعنى به موقف المرابطين من الشعر، فقد تقهقرت مكانة الشاعر في عهدهم " وأصبح التصريح بكساد الشعر أشد وأوضح - ذلك أن الشاعر حتى في أسمى ما غدا يستطيع بلوغه من مكانه لم يعد في طوقه منافسة رجل السيف ( وهو من الملتئمين ) والفقير والكاتب، ولعل الأعمى التطيلي قد عبر في بعض لحظات الإحساس بالنعاسة عن هذا المعنى بأجلى عبارة حين قال " إن قال مالك " قد طردت " قام زيد " أى أن الفقه قد أبعد الأدب واللغة، وأصبحت الكلمة العليا للفقهاء<sup>(١)</sup> يقول التطيلي معبراً عن هذه الأحاسيس :<sup>(٢)</sup>

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه	على أنها للمكرمات مناسك
وللشعراء اليوم ثلث عروشهم	فلا الفخر مختال ولا العز نامك
إذا ابتدر الناس الحظوظ وأشرفت	مطالب قوم وهى سود حوالك
رأيتهم لو كان عندك مدفع	كما كسدت خلف الرنال التراك
فيادولة الضيم اجملى أو تجاملى	فقد أصبحت تلك العرى والعرائك
ويا " قام زيد " أعرضى أو تعارضى	فقد حال من دون المنى " قال مالك "

ويعبر ابن بقی عن هذا الإحساس بالخمول وضآلة الشأن مصرحاً بكساد العلم والشعر في دولة المرابطين فيقول :<sup>(٣)</sup>

أقمت فيكم على الإقتار والعدم	لو كنت حراً أبى النفس لم أقم
فلا حدیقتكم یجنی لها ثمر	ولا سماؤکم تنهلُ بالديم
أنا امرؤ إن نبت بی أرض أندلس	جنت العراق فقامت بی على قدم
ما العیش بالعلم إلا حيلة ضعفت	وحرفة وكلت بالقعدد البرم

وقد اشتهر بهجاء المرابطين شاعران هما ابن سهل اليكى والأبيض . أما اليكى فقد حمل عليهم حملة شديدة، فوصفهم بالدناءة والخسة . ورماهم بأبشع الصفات كقوله :<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - ص ٩٠ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ص ٩٠ .

<sup>(٣)</sup> فتح العليب ٤ / ٤١٠ .

<sup>(٤)</sup> المغرب ٢ / ٢٦٧ .

فى كل من ربط اللثام دناءة  
ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا  
المنتمون لحمير لكنهم  
لا تطلبن مرابطاً ذا عفة  
ولوانه يعلو على كيان  
من بطن زانية لظهر حصان  
وضعوا القرون مواضع التيجان  
واطلب شعاع النار فى الغدران

وفى قصيدة أخرى يعرض اليكى ببخل المرابطين ويتندر باستخدامهم اللثام  
فيرى أنهم اضطروا إلى ذلك لإخفاء وجوههم مما يرتكبون من أفعال قبيحة<sup>(١)</sup>.

إن المرابط ياخذ بنواله  
الوجه منه مخلوق بقبيح ما  
لكنه بعيناه يبتكرم  
بأنه فهو من أجله يتلثم

ويصفهم اليكى بالجبن ويعرض بهم فيقول :<sup>(٢)</sup>

إن المرابط لا يكون مرابطاً  
تجلو الرعية من مخافة جوره  
حتى تراه إذا تراه جباناً  
لجلائه إذ يلتقى الأقراناً  
يجنى الرجال فناخذ النسواناً  
إن تظلمونا نتصف لنفوسنا

ويهاجم أحد حكام المرابطين واصفاً إياه بالعجز عن تسيير دفة الحكم  
وبالضعف فى مواجهة الثوار والمنشقين فيقول :<sup>(٣)</sup>

على حمى الملك من ساسة  
من السوس أصبحت تخش النفاق  
وما أنت لملك بالسائس  
وقد جاءك النحاس من بادن

أما أبو بكر محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بالأبيض ، فقد وقف هجاءه  
على الزبير بن عمر اللمتونى أمير قرطبة وغرناطة على عهد المرابطين ، وولع  
بهجائه حسبما يقول ابن سعيد<sup>(٤)</sup> ويبدو أن عداً الأبيض لهذا الأمير كان  
ناجماً عن بعض التصرفات السلوكية التى لم تعجبه فى شخصه فهو يتهمه

<sup>(١)</sup> نفع العليب ٢٠٥ / ٣ / ٢٠٦ .

<sup>(٢)</sup> المغرب ٢ / ٢٦٨ .

<sup>(٣)</sup> نفعه ٢ / ٢٦٨ .

<sup>(٤)</sup> المغرب ٢ / ١٢٧ .

بالغنى والعكوف على اللهو والانهماك فى الخلاعة والمجون ، كما يبدو فى قوله : <sup>(١)</sup>

عكف الزبير على الضلالة جاهداً      ووزيره المشهور كلب النار  
مازال يأخذ سجدة فى سجدة      بين القيان ونغمة الأوتار  
فإذا اعتراه السهو سبح خلفه      صوت القيان ورنة المزمار

وتتكرر هذه المعانى فى قصيدة أخرى مشيراً إلى أن انغماسه فى الخمر والقصف أضاع الجيش وأودى ببيت المال <sup>(٢)</sup>

يا سائلى عن زبير أين مسكنه      هيهات تطلب شمساً ما لها وضح  
لا تطلبين زبيراً فى مساكنه      واسأل عرابة عنه حين يصطحب  
نشوان يكرع فى فرج وفى قدح      والملك تحت لبان العود مطرح  
يا ضيعة الجيش لن ببقى لهم سبد      أودى السماع ببيت المال والقدح  
ويقول أيضاً فى هجائه : <sup>(٣)</sup>

أما زبير فقد أودى باندلس      ما كان من حرمة فيها وصدىق  
وصده عن قراع الدارعين بها      فرع القواكير أفواه الأباريق

ويفحش الأبيض فى هجائه للزبير مركزاً على عيب خلقى فيه إذ كان مصاباً بالبرص ، فيقول : <sup>(٤)</sup>

قالوا الزبير مبرص فأجبتهم      لا تعدلوه ، فداؤه من عنده  
رضعت مباعره الأيور فأكثرت      حتى بدأ وسم المنى بجلده

وهذه الصورة القاتمة التى رسمها الأبيض للزبير تتعارض مع صورته فى نظر المؤرخين ، فصاحب الإحاطة يصفه بأنه " ندرة الزمان كرماً وبسالة وحزماً

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٣ / ٤٨٩ .

<sup>(٢)</sup> حريدة القصر ٢ / ٢٥٩ .

راد المسافر ص ١١٢ .

<sup>(٣)</sup> نسد ص ١١٢ .

وأصالة " (١) وتشير إحدى الروايات إلى مشاركته في المعارك حتى قيل إنه قتل في إحدى هذه المعارك سنة ٥٣٧هـ في موضع يقال له " وادي الدروع " . (٢)

ونستبعد إرجاع هجاء الأبيض للزبير إلى الدوافع المادية لأن ثمة رواية يعزو فيها الأبيض هجاءه إلى ما رآه في شخص الزبير من تصرفات شائنة ، فيقال إن الزبير لما بلغه هجاء الأبيض له أمر بإحضاره ، فقرعه ، وقال : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إنى لم أر أحق بالهجو منك ، ولو علمت ما أنت عليه من المخازى لهجوت نفسك إنصافاً ولم تكلها إلى أحد ، فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته وأمر بقتله (٣) .

وهذه الرواية تنفي الدافع المادي أو المصلحة الذاتية وإن ظل التناقض قائماً بين رأى الأبيض فى الزبير ورأى المؤرخين الآخرين فيه .

وقد شارك النثر فى هجاء المرابطين ، ويحتفظ المراكشى بجزء من رسالة لأبى مروان بن أبى الخصال يذم فيها المرابطين لتقاعسهم عن قتال الأعداء فمن ذلك قوله : " أى بنى اللثيمة وأعيار الهزيمة ، إلام يزينكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ، فليت لكم بارتباط الخيول ، ضاناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونظهر الجزيرة من رحضائكم " (٤) .

وإذا تركنا عصر المرابطين إلى عصر الموحدين ، فإن أكثر الظواهر وضوحاً هى خضوع الهجاء السياسى للتوجيه الرسمى ، فالخليفة عبد المؤمن بن على يمتحن شعراءه بهجاء أحد الوزراء عندما أمر بسجنه (٥) ، وعندما ثار المأمون الموحدى على فكرة الإمامة التى قامت عليها الدولة ، وسخر من دعوة المهدي

(١) الإحاطة / ١ / ٤٥٠ .

(٢) خريدة القصر / ٢ / ٢٥٩ .

(٣) نفع الطيب / ٣ / ٤٩٠ .

(٤) المعجب ص ١١٤ .

(٥) نفع الطيب / ٥ / ١٨٦ .

ابن تومرت المؤسس الروحي للدولة ، الذي زعم أنه المهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، نجد بعض الشعراء يسخرون من هذه الدعوة وينكرونها ويعرضون بصاحبها خضوعاً لرغبة المأمون مع أنهم طالما امتدحوا المهدي وأشادوا بدعوته حين كان الخلفاء السابقون يميلون إلى ذلك ، فمن أمثلة التعريض بالمهدي ودعوته قول أحد الشعراء :<sup>(١)</sup>

وجد النبوة حلة مطوية      لا يستطيع الخلق نسج مثالها  
فأسر حسوا في ارتقاء بيتي      بمحاله نسجاً على منوالها

وعندما نشبت الفتن بين أمراء البيت الموحدى فى أواخر خلافة الموحدين اتجه كل منهم إلى تكليف من يشاءه من الشعراء بهجاء منافسيه ، ففي الفتنة التى تشبت بين المأمون وأخيه يحيى الناصر انقسم الشعراء فريقين ، فانضم فريق منهم إلى جانب المأمون ، وانحاز الفريق الآخر إلى جانب يحيى الناصر ودارت معركة هجائية بين الطرفين ، وعندما نظم أحد شعراء المشايخين للمأمون قصيدة يؤيد فيها بيعته ويعرض بأخيه أمر يحيى شعراءه أن يردوا عليها ، فرد عليها ابن الصغار بقصيدة يعرض فيها بالمأمون الذى صانع النصارى واستعان بهم فى حربه ضد أخيه ، وفيها يقول :<sup>(٢)</sup>

يحيى خليفة رب العالمين ومن      بجهله بعلمه حظُّ السُّمر والقُضْبِ  
نال الخلافة عن خُبْرٍ وعن خُبْرٍ      محقق وبإرثٍ عن أخٍ وأب  
لم ينتصر بالنصارى والبغاة على      مطهرين من الأدناس والريب

وعلى هذا النحو خضع شعراء الموحدين فى هجائهم لتوجيه الحكام ، ولم نسمع فى ذلك العصر أصواتاً غاضبة تهاجم أمراء الموحدين وتندد بسياستهم على النحو الذى رأيناه فى عصر المرابطين ، وربما يرجع السبب فى ذلك إلى اختلاف طبيعة حكم المرابطين عن الموحدين ، فبينما ضيق المرابطون على

(١) أزهار الرياض ٢ / ٣٧٩ .

(٢) البيان المغرب ٣ / ٢٦٢ (ط . قطوان) .

الشعراء وأهملوا قدرهم ، جاء الموحدون فأعلوا منزلتهم ، وتنافسوا فى تقربهم ، وكان يهتزون للشعر ويثيبون عليه <sup>(١)</sup> وظهر من بينهم شعراء مثل الأمير أبى الربيع سليمان بن عبد المؤمن ، وفى ولايته جمع حوله أهل الأدب ، وكان جواداً لمن يتعلق به بأدنى سبب يجب رعيه . <sup>(٢)</sup> فانتفت بذلك البواعث المادية التى حفزت بعض الشعراء إلى هجاء الحكام ومن جهة أخرى ، فإن الروايات التاريخية تشير إلى أن الموحدين " كانوا يبدون اهتماماً كبيراً بالأندلس باعتباره دار جهاد ، ولذلك فلعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن المجتمع الأندلسى تمتع فى هذا العصر إلى حد ما بالاستقرار والأمن ، ونستطيع أن نرى فى الرسائل الموحدية الرسمية شيئاً من هذا الاهتمام فكانت الكتب تنفذ بانتظام إلى ولاية الأندلس ، وفيها يوصى الخلفاء بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وألا يقضى الولاة فى أحكام القتل من تلقاء أنفسهم إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل وكذلك فى سائر المعاملات والأموال ، فلا يبت فى أمرها إلا بعد التثبت والمطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة <sup>(٣)</sup> وتشير رواية أخرى إلى أن أحد خلفاء الموحدين انتصر لأحد الشعراء على بعض عماله ، فمن الطبيعى إذاً أن ينكمش هجاء الحكام فى عصر الموحدين .

وقد تضائل هجاء الملوك والحكام أيضاً فى العصر الغرناطى وذلك بسبب الظروف التى طرأت على الأندلس ولاسيما بعد أن تساقطت المدن الأندلسية خلا غرناطة وبعض الحصون ، وشغل الأندلسيون بالتأقلم مع هذه الأوضاع الجديدة ، ولم يعد المناخ مهياً لاستمرار هذا اللون من الهجاء .

(١) المعجب ص ٢٩٣ .

(٢) النصوص الهانئة ص ١٣١ .

(٣) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٤١ .

## الهجاء القبلي :

كان العنصر العربي الذي استقر في الأندلس بعد الفتح ينتمي إلى قبائل عربية عديدة ، وانتشر النازحون من هذه القبائل في شتى بقاع الأندلس ، فاستقرت لخم في الجزيرة الخضراء وإشبيلية وكان منهم بنو عباد ، وأقام بنو صخر من غطفان بناحية قرمونة ، وبنو مرة بالبيرة ، وبنو منذر بن الحارث من ثقيف بهاجة ، وبنو عقيل بجيان ووادي آش ، وختعم وهمدان بالبيرة وعنس بجهة قلعة محصب ، وخولان بقرطبة ، والمعافر ببلنسية وجيان وجدام بشذونة وتدمير ، وهوازن بالقرب من إشبيلية ، وبلى في شمال قرطبة ، وبنو عذرة بجيان وسرقسطة .<sup>(١)</sup>

وانتقلت العصبية القبلية إلى الأندلس مع طلائع العرب الفاتحين الذين وفدوا من المشرق ، وظهر النزاع من جديد بين القيسية واليمانية .

يقول لين هول *Lane - Poole* " ما كادت موجات الفتوحات العربية تهدأ ويستقر سلطان المسلمين بالأندلس حتى تيقظت فيهم روح العصبية القبلية عاتية مدمرة مما أسلم البلاد إلى طوفان من الفوضى والانحلال " <sup>(٢)</sup> وبلغت هذه العصبية ذروتها في عصر الولاة ، وكان كل وال يتعصب لبنى جلدته ، فحين تولى أبو الخطار الحكم انحاز لقومه اليمانيين ضد القيسيين لاسيما وقد كانت له ترات قديمة " منها أنه كان هو ذاته ضحية ظلمهم في إفريقية ومنها قتلهم واحداً من أعظم رجال قبيلته في الأندلس وهو سعيد بن حواس .<sup>(٣)</sup>

وقد أغلظ الخطار في معاملة القيسية لاسيما بعد مقتل ابن حواس الذي يقول عنه .<sup>(٤)</sup>

فليت ابن حواس يخبر أننى سعت به سعى امرىء غير غافل

<sup>(١)</sup> تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيطرة قرطبة ص ١٤ .

<sup>(٢)</sup> The Moors in Spain By Stanly Lann - Pool, 51, London, 1920 .

<sup>(٣)</sup> تاريخ مسلمي أسبانيا - الحرب الأهلية - ص ١٦٨ .

<sup>(٤)</sup> تاريخ مسلمي أسبانيا ص ١٦٨ .

قتلت به تسعين بحسب أنهم جدوع نخيل صرعت بالمسائل  
وأمن الخطار فى إهانة القيسيين حتى لقد طرد الصميل بن حاتم أحد  
شيوخ القيسية من قصره فانصرف الصميل غاضباً وغادر القصر مائل العمامة  
فلقيه رجل عند الباب فسأله " يا أبا جوشن ما بال عمامتك مائلة " فأجابه  
الشيخ القيسى : " إن كان لى قوم فسقيمونها " (١)

وجمعت القيسية جموعها بعد أن تحالفت مع الجذاميين واللخميين  
وتقابلوا مع الكلبيين فى " وادى لكة " سنة ١٢٧هـ وانتهت المعركة بهزيمة  
الكلبيين ووقوع ابن الخطار فى الأسر . (٢)

ودارت رحى الحرب مرة أخرى بين الفريقين حين حاول الكلبيون الثأر من  
القيسية وأمروا عليهم يحيى بن حريث الذى كان يكره الشاميين كرهاً شديداً  
وكان يقول " لو أن دماء أهل الشام جمعت لى فى قدح لشربتها حتى الثمالة "   
ولكن الكلبيين منوا بالهزيمة مرة أخرى ، وقال الصميل ليحيى بن حريث  
معرضاً به - وقد سيق إلى الموت بعد هزيمته : " يا ابن السوداء هل بقى فى  
قدحك شىء لم تشربه ؟ ! " (٣)

وظلت العصبية القبلية محتدمة فى الأندلس حتى جاء عبد الرحمن  
الداخل فانتهج سياسة جديدة للقضاء على هذه العصبية وذلك بالإكثار من  
شراء عبيد وإلحاقهم بديوان الجند ، كما جلب من إفريقية أعداداً كبيرة من  
البربر .

ومن هذا العرض يتضح أن العصبية القبلية لم تشتعل إلا فى العصور الأولى  
فى الأندلس ثم خمدت بعد ذلك لانصهار عناصر السكان من العرب فى بوتقة

(١) تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٨ .

(٢) نفسه ص ١٧٢ .

(٣) أخبار مجموعة ص ٥٩ - ٦٠ .

واحدة ولظهور الإحساس بالانتماء إلى الوطن الأندلس ، وتأصل النزعة الأندلسية الأصلية في نفوس الأندلسيين .

و برغم ندرة شعر الهجاء الذى يصور هذه العصبية القبلية إلا أن هذا لا يمنع من افتراض ازدهار الهجاء القبلى فى تلك العصور الأولى ، لا سيما وأن الروايات تشير إلى أن كل شيخ من شيوخ العرب فى الأندلس كان له شاعره الخاص<sup>(١)</sup>. كما كان بعض شيوخ العرب وقادتهم ينظمون الشعر ، وثمة رواية تقول إن الصميل نظم قصيدة يعبر فيها عن غضبه من اليمنيين ورغبته فى الانتقام منهم ولكن لم يصلنا منها غير هذا البيت :<sup>(٢)</sup>

ألا إن مالى عند طى وديعة      ولا بد يوماً أن ترد الودائع

واشتهر بالهجاء القبلى فى عهد الولاة أبو الأجرى جعونة بن الصمة الكلابى وكان من الطارئين الأوائل ، كما كان فارساً شجاعاً ، ولم يكن يقيم فى مكان معين وإنما كان ينتقل فى النواحي ويحل أكناف قرطبة ، وقد هجا الصميل بن حاتم القيسى ، ويشير ابن حزم إلى أن منزلته فى الهجاء لم تقل عن منزلة جرير والفرزدق .<sup>(٣)</sup>

ويعكس الهجاء القبلى بعض الصراعات والفتن التى احتدمت من أجل الاستئثار بالحكم أو الخلافة ، وفى عهد المستنصر بالله خرج حسن بن قنون القرشى عن الدعوة ، وزعم بأحقية فى الخلافة لانتسابه لقريش ، وقد هجاه محمد بن شخيص شاعر المستنصر فقال :<sup>(٤)</sup>

كيف يرجى بأن يوفى قريشاً      حقها وهو من قريش نقى  
قدمته الطغام أن قال جدى      حسنى وليته حسنى  
فيرى فى أمية ما رآه      حسن الفاضل السقى الرضى

<sup>(١)</sup> تاريخ مسلمى أسبانيا ص ١٦٩ .

<sup>(٢)</sup> تاريخ الفتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٢ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ الأدب الأندلسى . عصر سيادة قرطبة - ص ٤٤ .

<sup>(٤)</sup> المقتبس . ( تحقيق عبد الرحمن حجي ) ص ٨٥ .

كما هجاه وأشباعه بقصيدة أخرى قال فيها :<sup>(١)</sup>

عصابة تدعى فى هاشم نسباً	وما يصح لها فى معشر نسب
عمى البصائر لم يسلس معاطفها	إلى مساعى التقى دين ولا حسب
وزادها فى عماها أن أولها	ألقى العصا حيث لا علم ولا أدب
نشت مع الوحش فى دهماء ليس لها	فى غير حسو الحسى رأى ولا أرب
ولو غدت من قريش فى ذوائبها	لأوجبت نفيها الأحداث والريب
وكل ملتهب يطفأ وشركهم	من بعد عثمان يطفأ ثم يلهب
إذا غدا حسن فى الآل من حسن	رأساً فياليت شعرى أيما الذنب

وهذه الأمثلة التى عرضناها تشير إلى أن الهجاء القبلى كان قريب الشبه من الهجاء المشرقى فى معانيه وأساليبه وصوره .

---

<sup>(١)</sup> نقد ص ١٥٩ - ١٦٠

## هجرة البربر :

كان البربر يشكلون عنصراً رئيسياً من عناصر السكان في الأندلس بعد أن شاركوا مشاركة فعلية في فتح الأندلس ، بل إن الحملة الأولى كانت مؤلفة من البربر فقط كما يذكر ليفي بروفنسال<sup>(١)</sup> ، ولم يدخل العنصر العربي الأندلس إلا عندما قدم إليها موسى بن نصير ، وبين جنوده العرب عدد كبير من اليمانية والقيسية<sup>(٢)</sup> . ولكن البربر أخذوا يتدفقون من المغرب نحو جزيرة الأندلس في موجات كبيرة حتى صاروا يشكلون طبقة كبيرة ، وقد أشرنا من قبل إلى أن عبد الرحمن الداخل استقدم أعداداً كبيرة من البربر لتثبيت دعائم ملكه وإخضاع العناصر العربية المتصارعة ، غير أن وجود البربر بجانب العرب في الأندلس أدى إلى نشوب فتن كثيرة بين الفريقين لاسيما في عصر الولاة ، وكان كل فريق يؤمن بأحقية في السيادة على الأندلس ، فالبربر يفخرون بأن طارق ابن زياد فاتح الأندلس ينتمي إلى جنسهم ، ويتباهون بأن الفتح لم يتحقق إلا على أيديهم بينما يؤمن العرب بأنهم هم الفاتحون الحقيقيون للأندلس .

وكانت الفتن بين العرب والبربر تهدأ أحيانا ثم تعود للظهور من جديد واستفحل خطر البربر في فترات كثيرة ، حتى لقد وجدت بيئات بربرية بأكملها ؛ ففي عصر ملوك الطوائف استأثر البربر بحكم غرناطة فتحوّلت في عهد بني زيري ( ٤٠٣هـ - ٤٨٣هـ ) إلى جزيرة بربرية تطوّقها بحار من العداوة العربية على حد تعبير جارثيا جومث<sup>(٣)</sup> .

وتم يترك ملوك البربر الذين حكموا غرناطة أثراً طيباً في نفوس المؤرخين أو الأدباء ، فهم " لم يشيدوا ، فيما يبدو ، غير سور متين ، لا يزال باقياً حتى أيامنا هذه كهيكل عظمى للمدينة ، وآثروا أن يكسوا الأموال التي استولى

<sup>(١)</sup> Levi - Provençal : Histoire de l'Espagne mustmane Paris 1950 - 1953. P 40

( نقلاً عن الركايبى ، في الأدب الأندلسي ص ٣٤ ) .

<sup>(٢)</sup> في الأدب الأندلسي للركايبى ص ٣٤ .

<sup>(٣)</sup> مع شعراء الأندلس والمنتبى ص ١١٨ .

عليها المرابطون فيما بعد ، وامتد الجذب إلى الحياة الأدبية نفسها ، فعلى امتداد نصف قرن ، وفى بلد يرتوى بالشعر ويتغذى بالغناء ، بقيت غرناطة طوال القرن الحادى عشر الميلادى ، خارج المهابط التى يتردد عليها الشعراء ولم يحدث أبداً أن أياً من كبار الشعراء خارجها ، فكر أن يرتحل إليها ليمدح عبثاً أمراءها البربر أو وزراءها اليهود " (١) .

وقد أكثر الشعراء من هجاء البربر ، فرموهم بكل منقصة ، وعيروهم بمثالب الجنس ، فمن ذلك قول السميسر : (٢)

رأيت آدم فى نومى فقلت له      أبا البرية إن الناس قد حكموا  
أن البرابر نسل منك قال إذا      حواء طالقة إن كان ما زعموا

ويقول شاعر آخر معبراً عما يضمرة فى قلبه من كراهية وحقد إزاء البربر (٣) .

هم البرابر لا ترجوا نوالهم      وسل من الله تعجيل النوى لهم  
لا بلغ الله قلباً منهم أملاً      وبلغ الله قلبى ما نوى لهم

ويعرض هذا الشاعر بما يجرى على ألسنة البربر من مخاطبة الله سبحانه بقولهم ( أبابا ربي ) فيقول : (٤)

فلو كنت فى الفردوس جاراً لبربر      لحولت رحلى من نعيم إلى سقر  
يقولون للرحمن (بابا) بجهلهم      ومن قال للرحمن (بابا) فقد كفر

وقد ردّ عليه أحد شعراء البربر بقصيدة قال فيها : (٥)

كفى بك جهلاً أن تحن إلى سقر      بديلاً عن الفردوس فى شر مستقر  
وتجهل معنى مستبيناً مجازه      لدى كل ذى فهم سليم وذى نظر  
فإن أبا الإنسان يدعو أنه      كفيل وقيوم رحيم به وبر

(١) المرجع السابق ص ١١٩ .

(٢) نفع الطيب ٣ / ٤١٢ .

(٣) أدب الفتى ص ١٧٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٣ .

(٥) أدب الفتى ص ١٧٤ .

ومن قال للرحمن (بابا) فقد عنى      به ذلك المعنى المجاز وما كفر  
وقد قال عيسى إننى ذاهب إلى      أبى وأبيكم جاء ذلك فى الأثر

وفى هجاء البربر صدر كثير من الشعراء عن موقف سياسى على نحو ما  
نرى عند ( ابن حربون ) شاعر الخلافة الموحدية ، الذى يصفهم بـ " الرعاع "   
ويشيد بموقف الموحدين منهم عندما قادوا حركة عصيان ، وأشعلوا فتنة فى  
جهة جبل ( تاسررت ) سنة ٥٦٣هـ فتصدى لهم الموحدون وأخمدوا فتنتهم ،  
وقتلوا منهم كثيرين . وأجلوهم عن تلك الأماكن ، وفى ذلك يقول ابن  
حربون :<sup>(١)</sup>

وماذا تؤمل هذى الرعاع      وأنسى لها عنكم مهرب  
ستبرأ منهم إليك الشعاب      ويسلمها البازل الأصهب  
لقد ركبوا مركب الجاهلين      وذلك من شر ما يركب  
فمزقتهم شملهم فى البلاد      كأنهم جمل أجرب

وهجا ابن حربون البربر مرة أخرى عندما أضرموا فتنة أخرى فى جبال  
غمارة المتصلة بسبته فى عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٢هـ ، وتزعم هذه  
الفتنة ثائر بربرى يدعى ( سعد بن منعفاد ) انشق عن طاعة الموحدين ، وأخذ  
يقطع الطرق ويبث الرعب فى قلوب الناس واستفحل أمره حتى تحرك الخليفة  
إليه بنفسه وتمكن من قتله واخماد فتنته ، وفى ذلك يقول ابن حربون .<sup>(٢)</sup>

ضرب الشقاء وجوههم بضلالة      ناهت بهم فى جور ليل أليل  
واستعجلوا أمر الإله فجاءهم      والويل كل الويل للمستعجل  
فغدا غوييم برأس منيفة      يهوى إلى درك الجحيم الأسفل

ويتكىء ابن أغلب الخولانى المعروف بالزوالى فى هجائه لأحد البرابرة  
المنشقين بقفصة على المعانى الدينية ملوحاً بما جاء فى سورة ( المسد ) من

<sup>(١)</sup> المن بالإمامة ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

<sup>(٢)</sup> البيان المغرب ( ط . تطوان ) ٣ / ٢٠ وما بعدها .

تصوير لأبى لهب وامراته رابطاً بين هذه الصورة من ناحية وبين ما كان عليه هذا الشقى ومدينته ( قصة ) من غواية فيقول : <sup>(١)</sup>

سائل بقفصة هل كان الشقى لها      بعلا فكانت له حمالة الحطب  
تبت يدا كافر بالله أهبها      فكان كالكافر الأشقى أبى لهب  
لما زنت وهى تحت الأمر محصنة      رجمتسوها اتباع الشرع بالحصب

وربما كان ابن سهل اليكى أكثر شعراء الأندلس هجاء للبربر ، وإن كان قد صدر فى هجائه لهم عن بواعث ذاتية ، فقد أفرط فى هجاء أهل فاس لما لقيه فيها من جفوة وخشونة وسوء معاملة ، ولذلك فقد وصمهم بكل منقصة ، ورماهم بالكذب والسرقة والزنا واللواط ، وأفحش فى هجائهم كقوله : <sup>(٢)</sup>

يا أهل فاس لقد ساءت ضمائركم      فاصبحت فيكم الآراء متففة  
كل امرئ منكم قد حاز منقصة      بها أحاط كدور العين بالحدقة  
وربما اجتمعت فى بعض سادتكم      نقائص أصبحت فى الناس مفترقة  
كالقرن والقود المشهور والكذب ال      معروف والخلة الشنعاء والسرقة  
فلا تهابن فاسياً مررت به      وإن تقل فيه خيراً حول الورقة  
والعنه شيخاً وكهلاً واجفه حدثاً      و(....) <sup>(٣)</sup> طفلاً ولو ألفتته علقه  
فلا سقى الله فاساً صوب غادية      نعم ولا اخضر فى أرجائها ورقة

ولم ينج أحد من أهل فاس من لسان اليكى - حتى الطفل الصغير - <sup>(٤)</sup> :

إذا الطفل منهم مس دائرة استه      درى أنها مخلوقة للفياشل

ويهجو ابن ملجوم أحد أعيان فاس وأصلانها فيقول : <sup>(٥)</sup>

وما سمي الملجوم إلا لعله      وهل تلجم الأفراس إلا لتركبا

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ١٣٥ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ١٢١ .

<sup>(٣)</sup> حذفنا الكلمة الصريحة وهى بصيغة فعل الأمر .

<sup>(٤)</sup> زاد المسافر ص ١٢١ .

<sup>(٥)</sup> المغرب ٢ / ٢٦٧ .

ويعرض اليكى ببخل أثرياء فاس وتقتيرهم فيقول<sup>(١)</sup>

قصدت جلة فاس      أسترزق الله فـيهم  
فما نيسر منهم      دفعته لبنيهم

ويذكر المقرئ أن اليكى عندما أفرط في هجاء أهل فاس تعسفوا عليه وساعدهم واليهم مظفر الخصى من قبل علي بن يوسف ، والقائد عبد الله بن خيار الجياني ، فقدموا رجلا ادعى عليه بدين وشهد عليه رجل فقيه يعرف بالزناتي ، ورجل آخر يكنى بأبي الحسين من مشايخ البلد ، فأثبت الحق عليه وأمر به إلى السجن ، فرفع إليه . وسيق سوقاً عنيفاً ، فلما وصل إلى بابه طلب ورقة من كاتبه وكتب فيها :<sup>(٢)</sup>

أرشو الزناتي الفقيه بيضة      يشهد بأن مظفراً ذو بيضتين  
واهدوا إليه دجاجة يحلف لكم      ما ....<sup>(٣)</sup> عبد الله عرس أبي الحسين

ومن الطريف أن بعض شعراء البربر شاركوا شعراء الأندلس في هجاء البربر ، على شاكلة أبي العباس الجراوي - وهو من أكبر شعراء المغرب - فقد هجا قبيلته - بني غفجوم - واستطرد إلى هجاء أهل فاس وقاضيهم ابن ملجوم على نحو ما صنع اليكى فقال :<sup>(٤)</sup>

يا ابن السبيل إذا نزلت بتادلا<sup>(٥)</sup>      لا تنزلن علي بني غفجوم  
أرض أغار بها العدو فلن ترى      إلا مجاوبة الصدى للجوم  
قوم طووا ذكر السماحة بينهم      لكنهم نشروا لواء اللوم  
لا يملكون إذا استبيح حريمهم      إلا الصياح بدعوة المظلوم  
لاحظ في أموالهم ونوالهم      للسائل العافي ولا المحروم  
يا ليتني من غيرهم ولو انني      من أرض فاس من بني الملجوم

<sup>(١)</sup> زاد المأثور ص ١٢٢ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٣ / ٣٢٤ .

<sup>(٣)</sup> حدفنا الكلمة الصريحة وهي بصيغة الماضي المفرد

<sup>(٤)</sup> أزهار الرياض ٢ / ٣٦٥ .

<sup>(٥)</sup> تادلا : من جبال البربر تقع قرب فاس وتلمسان .

فأبو العباس الجراوى - وهو شاعر بربرى - لم يتصد للدفاع عن قومه ولم يرد هجاء الأندلسيين لهم وهو ما كانت تفرضه طبيعة انتمائه وعصبية لقومه ، ولكنه شارك الأندلسيين فى الهجوم على قومه ، ورماهم كما فعل شعراء الأندلس بالبخل والجبن ولؤم الطباع وغير ذلك من الصفات القبيحة ، وركب الجراوى طريقة الجاهليين فى الهجاء من إحكام النسج ، وإتقان الصنعة ، وترديد المعانى القديمة - كالعجز عن حماية الذمار والنساء ، والصياح بدعوة المظلوم - فجاء هجاؤه أقرب إلى الهجاء الجاهلى .

ويمكن أن نفسر موقف الجراوى من زاويتين : الأولى هى خفة حدة التعصب القبلى عنده ، أما الثانية فربما تتصل بدوافع ذاتية نجمت عما رآه الجراوى من صفات مستهجنة فى بعض أبناء قومه .

ومهما يكن من أمر ، فإن هجاء الأندلسيين للبربر سار فى اتجاهين ، كان أحدهما انطلاقاً من دوافع ذاتية ، أما الآخر فكان تعبيراً عن موقف سياسى ونتاجاً لعصبية قبلية تأصلت فى نفوس بعض الشعراء .

## رسالة الشقندي :

تعد رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس انعكاساً لنزعة العصبية والتنافس بين الأندلسيين والمغاربة أو بين الأندلس وبر العدو ، وقد كتب الشقندي رسالته إثر معركة كلامية حامية نشبت بينه وبين أبي يحيى ابن المعلم الطنجي حول المفاضلة بين بلديهما فكانت رسالة الشقندي التي أشاد فيها بمآثر الأندلس وعرض فيها بأبي يحيى فقال (١) : " أما بعد ، فإن حرك منى ساكناً وملاً منى فارغاً ، فخرجت عن سجيتي في الإغضاء ، مكرهاً إلى الحمية والإباء ، منازع في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ، ويأتي بما لا تقبله النواظر والأسماع . إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يضل من تاه في تلك المسالك ، رام أن يفضل بر العدو على بر الأندلس ، فرام أن يفضل على اليمين اليسار ، ويقول الليل أضوأ من النهار ، فيأعجباً كيف قابل العوالي بالزجاج ، وصادم الصفاة بالزجاج ، فيا من نفخ في غير ضرم ورام صيد البزاة بالرخم ، كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً ، وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً ، ما هذه المباهة التي لا تجوز ؟ وكيف تبدى أمام الفتاة العجوز . سل العيون إلى وجه من تميل ؟ واستخبر الأسماع إلى حديث من تصغي ؟

لشتان ما بين اليزيديين في الندى      يزيد سليم والأغر بن حاتم

وتأخذ الرسالة شكل المناظرة ، ويشرع الشقندي في الرد على أقوال أبي يحيى مظهراً تفوق الأندلسيين على المغاربة في شتى المجالات ، ويبدأ بالرد على ما ذهب إليه أبو يحيى من الفخر بملوك المغرب فيقول : " أما قولاك الملوك منا " فقد كان الملوك منا أيضاً ، وما نحن إلا كما قال الشاعر :

فيوم علينا ويوم لنا      ويوم نساء ويوم نسر

<sup>١</sup> فتح العليب ٣ / ١٨٦ .

“ إن كان الآن كرسى جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بنى عبد المؤمن ،  
أدامها الله تعالى ، فقد كان عندنا بخلافة القرشيين ” . ويتباهى الشقندى  
بمآثر ملوك الأندلس ، كالمنصور ابن أبى عامر “ الذى بلغ فى بلاد النصارى  
غازياً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً فى بلادهم من المسلمين ، ولم يبرح  
فى جيش الهرقل وعزمة الإسكندر ” ، ويفخر بملوك الطوائف الذين “ نفقوا  
سوق العلوم ، وتباروا فى المثوبة على المنثور والمنظوم ويخص منهم بنى عباد ”  
فإن الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقم به  
بنو حمدان فى حلب ” ، ويعرض الشقندى بملوك البربر السابقين على ملوك  
الموحدين فيقول : “ وبالله إلا سميت لى بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ،  
أبسقون الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطى ، أم بيوسف بن تاشفين الذى لولا  
توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه  
قدراً ؟

ويسخر الشقندى من جهل يوسف بن تاشفين باللغة وافتقاده إلى فهم الشعر  
والإحساس به فيشير إلى أن المعتمد قال له وقد أنشده الشعراء : “ أيعلم أمير  
المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ، ولكنهم يطلبون الخبر ، ولما انصرف عن  
المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها :

بنتم وبننا فما ابتلت جوانحنا	شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت	سوداً وكانت بكم بيضاً لباينا

فلما قرىء عليه هذان البيتان قال للقارىء : يطلب منا جوارى سوداً  
وبيضاً؟ قال : لا يا مولانا . ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً  
لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن أيام الحزن ليال سود ،  
فقال : والله جيد ، اكتب له فى جوابه : إن دموعنا تجرى عليه ، ورؤوسنا  
توجعنا من بعده ! ” (١)

(١) نصح العليب ٣ ١٩١ ١٩٢ .

وينتقل الشقندى إلى المفاخرة بعلماء الأندلس الذين برعوا فى الفقه واللغة والأدب وعلم النجوم والفلسفة وغيرها جاريًا على طريقته فى الحوار والمناظرة كقوله : " وإنك إن تعرضت للمفاضلة بالعلماء فأخبرنى : هل لكم فى الفقه مثل عبد الملك بن حبيب .. ومثل أبى الوليد الباجى ؟ "

" وهل لكم فى النحو مثل أبى محمد بن السيد وتصانيفه .. وهل لكم فى علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل .. ومثل بنى زهر .. وهل لكم فى علم التاريخ كابن حيان صاحب " المتين " و " المقتبس " .. وهل لكم فى الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمية ، والاجتهاد فى حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب " الذخيرة " ؟ وهب أنه كان يكون لكم مثله فما تصنع الكيسة فى البيت الفارغ ."

ويكثر الشقندى من الوقوف عند شعراء الأندلس مفتخرًا بإجادتهم فى فنون الشعر ، ومدللًا على براعتهم فى الوصف والتخيل ، ويقول مخاطبًا أبا يحيى مشيرًا إلى ضآلة منزلة شعراء المغرب بالقياس إلى شعراء الأندلس : " وقد أطلت عنان النظم ، على أنى اكتفيت عن الاستدلال على النهار بالصباح فبالله ! ما أخبرتني : من شاعركم الذى تقابلون به شاعرًا ممن ذكرت ؟ لا أعرف لكم أشهر ذكرًا ، وأضحم شعرًا ، من أبى العباس الجراوى ، وأولى لكم أن تجمدا فخره ، وتنسوا ذكره ، فقد كفاكم ما جرى من الفضيحة عليكم فى قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة :

إذا كان أملاك الزمان أراقمًا      فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

فما أقبح " ثعبان " وما أضعف ما جاء " دائم الدهر " . ولقد أنشدت أحد ظرفاء الأندلس هذا البيت ، فقال . لا ينكر هذا على مثل الجراوى فسبحان من جعل نسبه وروحه وشعره تتناسب فى الثقاله .<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> نسج العليب ٣ - ٢٠٩ - ٢١٠ .

وعلى هذا النحو يمتنئى الشقندى فى رسالته . فيتفاخر بلفرسان والشجعان من أهل بلده ، ويسوق حكايات تدل على كرم النفس وشمائل الرئاسة ، ويأخذ فى تعداد محاسن المدن الأندلسية ، فيشيد بمزايا إشبيلية وقرطبة ومرسية وغرناطة وغيرها ، ولا ينسى فى ذلك كله أن يعرض بالمغاربة ، فإذا تحدث عن أصناف أدوات الطرب المنتشرة فى مدن الأندلس " كالخيال والكريج والعود والروطة والرباب والقانون .. إلخ " أشار إلى أنه " ليس فى بر العدو من هذا شىء إلا ما جلب إليه من الأندلس ، وحسبهم الدف وأقوال وليرا وأبو قرون ودبدبة السودان وحماقى البربر " (١) وحين يتحدث عن شهرة بليش إحدى قرى مالقة بشجر التين يقول : " وتين بليش هو الذى قيل فيه للبربرى : كيف رأيتة ؟ قال : لا تسألنى عنه ، وصب فى حلقي بالقفة ؛ وهو لعمر الله معذور لأنه نعمة حرمت بلاده منها " (٢)

ورسالة الشقندى ليست هى الرسالة الوحيدة فى موضوعها ، فقد سبقتها رسالة لابن حزم (٣) ، وأخرى لصفوان بن إدريس (٤) فى تفضيل الأندلس وهذه الرسائل تعبير واضح عن اعتزاز الأندلسيين بوطنهم ، وتعصبهم له ، وفى مقابل ذلك نجد رسائل أخرى تتحدث عن (مفاخر البربر) (٥) مما يشير إلى أن راية النثر كان أكثر وضوحاً من الشعر فى إظهار تعصب البربر لقومهم .

(١) نصح الطيب ٣ ٢١٢ .

(٢) نفسه ٣ - ٢١٩ .

(٣) نفسه ٣ ١٥٦ .

(٤) زاد المسافر ص ١٣ .

(٥) مخطوطة الرباط . ك . ١٢٧٥ .

## هجاء اليهود :

تسلل اليهود إلى المجتمع الأندلسي قبل الفتح العربي وباتوا يؤلفون عنصراً من عناصر سكانه وقد استقبل هذا العنصر الفاتحين العرب كمحررين لأن النورمان كانوا يسومون اليهود أنواع العذاب ، . . وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة أكبر مدينة إسبانية تضم يهوداً ، وكانوا يمتنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة ، وقد تقلب بعضهم في مناصب الدولة ولاسيما في عهد الناصر<sup>(١)</sup> .

وقد أشاد ( جوستاف لوبون ) بما لقيه اليهود من معاملة حسنة في الأندلس فذكر أن أسبانيا العربية كانت هي البلد الأوربي الوحيد الذي كان اليهود يمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها<sup>(٢)</sup> .

وقد ارتفع شأن اليهود في بعض الفترات ، وتقلد بعضهم مناصب الوزارة وقويت شوكتهم في غرناطة في عصر ملوك الطوائف ، فاستوزرهم بنو زيدي وسيطروا على مقاليد الأمور ، فنشأ تيار مناهض لنفوذ اليهود ، وارتفعت أصوات الشعراء تعبر عن سخط الأندلسيين وغضبهم لتحكم اليهود في شئون المسلمين واستنثارهم بخبراتهم وقد عبر عن ذلك أبو الحسين يوسف بن الجد فقال :<sup>(٣)</sup>

تحكمت اليهود على الفروج	وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الأندال فينا	وصار الحكم فينا للعلوج
فقل للأعور الدجال هذا	زمانك إن عزمت على الخروج

وكان أبو إسحاق الإلبيري أبرز شعراء الأندلس الذين عبروا عن مشاعرهم المناهضة لليهود ، فقد عاش حياة قلق في غرناطة ، وهاله استبداد اليهود بأمورها . ولم يكن راضياً عن إيثار حكام غرناطة لهم ، فقد اختصوا بني

<sup>(١)</sup> في الادب الأندلسي للركابي ص ٤١ .

حساسة العرب ص ٢٩٦ .

<sup>(٢)</sup> الذخيرة ٢ - ٢ - ٥٦٢ .

النفريلة بمناصب الوزارة ، وتركوهم يصرفون الأمور حسب أهوائهم مقابل الجبايات الضخمة التي كانوا يجمعونها من الناس ويقتسمونها معهم ، فتحكم هؤلاء الوزراء ومعهم المتصرفون اليهود في مقدرات المسلمين ، يقول ابن عذارى مشيراً إلى تسلط اليهود في تلك الفترة : " ودامت رياضة حبوس إلى أن هلك سنة ٤٢٨هـ ، فولى بعده ابنه باديس بن حبوس .. فأمضى باديس وزيراً له وكتائباً وزير أبيه اسماعيل بن نغرة اليهود على وزارته وكتابته وسائر أعماله ورفع فوق كل منزلة ، فأتخذ هذا اليهودي عمالاً ومتصرفين في الأشغال واكتسبوا الجاه والمال في أيامه واستطالوا على المسلمين ، وكان هذا اليهودي من أهل الأدب والشعر ، فدام أمره كذلك إلى أن هلك ، وترك ابناً له اسمه ( يوسف ) لم يعرف ذلة الذمة ولا قدر اليهودية ، وكان جميل الوجه ، حاد الذهن ، فأخذ نفسه بالاجتهاد في الأحوال ، واستخرج الأموال ، واستعمل اليهود إخوانه على الأعمال فزادت منزلته عند أميره باديس ، وكانت له عيون عليه في قصره من نساء وفتيات شغلهم الملعون بالإحسان إليهم والإنعام عليهم فكان لا يخفى عليه شيء من أمور باديس من كل ما يجرى في منزله من شراب ولهو وجد وهزل إلا ويعلمه ويعلم اليهود به ، فلا يكاد باديس يتنفس إلا ويعلم اليهود ذلك .. وصارت لليهود صولة على المسلمين في دولته <sup>(١)</sup> وتصاعدت مشاعر الغضب تجاه اليهود ، ونظم أبو اسحاق الإلبيري قصيدته الشهيرة في هجاء اليهود وتحريض البربر للثورة عليهم . ووضع حد لنفوذهم الذي استشرى وأعضل داؤه المسلمين .

ويمكن أن نقسم القصيدة إلى أربعة أقسام ؛ ففي القسم الأول يستثير الإلبيري قبائل صنهاجة ، ويحفزهم لتدارك هذه السقطة الشنيعة التي وقع فيها باديس بن حبوس حين استوزر يوسف بن النغرة ، فعز به اليهود ، وتسلطوا على المسلمين ، ومالوا خزائنهم بالأموال ، وتجاوزوا المقدار في بغيتهم ، ويدعو الإلبيري باديس والصنهاجيين إلى أن يأخذوا القدوة من السلف

<sup>(١)</sup> البيان المغرب ص ٢٦٤ " ط ليفي برنتال " .

الصالح الذين أدركوا حقيقة اليهود وضربوا عليهم الذلة والمسكنة . يقول أبو إسحاق<sup>(١)</sup> .

ألا قل لسنهاجة أجمعين  
لقد زل سيدكم زلّة  
تحير كاتبه كافرأ  
فعز اليهود به وانتخوا  
ونالوا منهاهم وجازوا المدى  
فكم مسلم فاضل قانت  
وما كان ذلك من سعيهم  
فهلا اقتدى فيهم بالألى  
وأنزلهم حيث يستأهلون  
بدور السدى وأسد العرين  
تقرُّ بها أعين الشامتين  
ولو شاء كان من المسلمين  
وتأهوا وكانوا من الأردلّين  
فحان الهلاك وما يشعرون  
لأردل قرد من المشركين  
ولكنّ منّا يقوم المعين  
من القادة الخيرة المتقين  
وردّهم أسفل السافلين

وفي القسم الثاني من القصيدة يستثير أبو إسحاق حمية باديس ويهيج مشاعره للغضب على أولئك اليهود الذين بغضوه إلى الناس ، وهدموا ما شيد من صروح وينعتهم بأقبح الأوصاف ، فهم " فراخ الزنا " وهم أهل الفسق وأرباب الفساد ويلوح بالمعاني القرآنية التي وردت في شأنهم فيقول :<sup>(٢)</sup>

أباديس أنت امرؤ حادق  
فكيف اختفت عنك أعيانهم  
وكيف تحب فراخ الزنا  
وكيف يتم لك المرتقى  
وكيف استنمت إلى فاسق  
وقد أنزل الله في وحيه  
فلا تتخذ منهم خادماً  
فقد ضجت الأرض من فسقهم  
تأمل بعينيك أقطارها  
تصيب بظنك نفس اليقين  
وفي الأرض تضرب منها القرون  
وهم بنضوك إلى العالمين  
إذا كنت تبني وهم يهدمون  
وقارنته وهو بنس القرين  
يحذر عن صحبة الفاسقين  
وذرههم إلى لعنة اللاعنين  
وكادت تميد بنا أجمعين  
تجدهم كلاباً بها خاسنين

<sup>(١)</sup> ديوان أبي إسحق الألبيري ص ٩٦ - ٩٧ .

<sup>(٢)</sup> ديوان الألبيري ص ٩٧ .

وفى القسم الثالث يشير أبو إسحاق إلى واقع غرناطة الأليم بعد أن استحوطت فى عهد باديس إلى بيئة يهودية ، وبعد أن آلت خيرات المدينة إلى اليهود ، ويتكىء أبو إسحاق على عنصر " المقابلة " فيقارن بين ما انصرف إليه اليهود من ثراء وترف ، وبين أحوال البؤس التى صار إليها أهل غرناطة ، يقول أبو إسحاق : <sup>(١)</sup>

وإنى احتللت بغيرناطة	فكنت أراهم بها عابئين
وقد قسموها وأعمالها	فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها	وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا	وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم يدبحون بأسواقها	وأنت لأطرافها آكلون

وفى القسم الأخير من القصيدة يُسخرُ الإلبيرى كل ما يمتلكه من أدوات لإثارة باديس والصنهاجيين للتنكيل بابن النغريلة وقومه ، فيتحدث عن النعيم الذى يرتع فيه ، ويشير إلى سخريته واستهزائه بمعتقدات المسلمين ويدعو صراحة إلى قتل هذا الوزير وقومه الذين نكثوا العهد ، يقول : <sup>(٢)</sup>

ورخم قمردهم داره	وأجرى إليها نمير العيون
فصارت حوانجنا عنده	ونحن على بابيه قائمون
وبضحك منا ومن ديننا	فإننا إلى ربنا راجعون
فبادر إلى ذبحه قربة	وضح به فهو كبش سمين
ولا ترفع الضغط عن رهطه	فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرقت عداهم وخذ مالهم	فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدره	بل الغدر فى تركهم يبعثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم	فكيف نلام على الناكثين

<sup>(١)</sup> نفسه ص ٩٨ - ٩٩ .

<sup>(٢)</sup> ديوان الإلبيرى ص ١٠٠ ، ٩٩ .

وقد أحدثت قصيدة الإلبيري أثراً هائلاً فى نفوس الصنهاجيين ، فاستثارت همهم ، واستنهضت عزائمهم ، فاندفعوا فى ثورة عارمة ، فتكوا خلالها بابن النغريلة وبمن وقع تحت أيديهم من اليهود .

ولم يتكلف الإلبيري فى قصيدته ، ولم يغرب فى صورته ومعانيه وألفاظه بل اختار هذا الأسلوب السهل المباشر الذى يقترب من أسلوب النثر إلى حد بعيد لأنه أدرك بحاسته الفنية الدقيقة أن حظ أولئك البربر من الثقافة العربية ضئيل ، وأن نصيبهم من تذوق الشعر والوقوف على أسرارته محدود ، فصاغ أفكاره بلغة سهلة ، وعمد إلى استخدام صيغ وتراكيب معينة أخذ يردها بكثرة كقوله " وهم يقبضون .. وهم يخضمون .. وهم يليسون وهم يذبحون .. إلخ " ومن هذه التراكيب المألوفة التى كررها كثيراً قوله : فكيف اختفت عنك نعيانهم ، وكيف تحب .. وكيف يتم لك المرتقى .. إلخ وجنح إلى الصور البسيطة التى يألها الذوق العادى والتى لا تخلو فى الوقت نفسه من التهمك والسخرية كقوله : " ورخم قردهم داره ... " وقوله : " وضح به فهو كبش سمين " . واتكأ أبو إسحاق على العاطفة الدينية ، وعزف على هذا الوتر بمهارة حتى استطاع أن يثير مشاعر المسلمين وأحاسيسهم ، يقول جارثيا جومث عن قصيدة أبى اسحق : " والحق أن هذه القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة ، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتاً من الشعر لعبت دوراً سياسياً مباشراً فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم فكهربت العزائم ، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق ، وشحذت السيوف للقتل ، كالدور الذى لعبته هذه القصيدة ... إن ما تعرض له الشعراء فى الأندلس من إشارات سياسية كان يأتى عابراً كوخز الإبر الناعمة ، أو مخبأ كالطعوم المسمومة فى مهارة ، لكن هذا الشيخ لا يهدأ ، إنه برعم وفى لدم عربى ، ما أكثر ما أشعل بالنهجاى البدوى الفاحش روح الصراع بين القبائل .. ولعل الشعر الأندلسى لم يعرف أبداً البساطة عارية كما عرفها فى هذه القصيدة ، وفى الوقت نفسه لم

ير قصيدة مثلها ، يلفها مثل هذا الإعصار من الشاعر . لقد اجتاحت أنغامها ،  
حية ، متوهجة ، أعماق المدينة ، مع زفير النيران ، وحشرجة الموتى !<sup>(١)</sup>  
لقد وضع بنو النغريلة نهايتهم بأيديهم ليس فقط لأنهم استأثروا بالمناصب  
الهامة وتحكموا فى مقدرات المسلمين ، بل لأنهم أظهروا عداؤهم للإسلام  
وتطاولوا عليه بشكل سافر على نحو ما صنع يوسف بن النغريلة حين ألف  
كتاباً زعم أنه ثمة تناقضاً فى كلام الله فى القرآن الكريم ، كما نقل عنه أنه  
كان ينظم القرآن شعراً وموشحات ، وقد ألح أبو إسحاق الإلبيرى إلى صنيعة  
هذا عندما قال :

ويضحك منا ومن ديننا      فإننا إلى ربنا راجعون

وكان هذا السبب وحده كفيلاً باستثارة مشاعر المسلمين وحنقهم على  
اليهود ، وقد تصدى ابن حزم للرد على مزاعم ابن النغريلة فى رسالة طويلة  
عرض فيها لتلك المزاعم ورد عليها واحدة فواحدة ، وكان يشفع رده بانتقاد  
بعض المسائل التى وردت فى التوراة لافتاً ابن النغريلة إلى أن بيته من زجاج<sup>(٢)</sup>  
وقد عرض ابن حزم فى رسالته بابن النغريلة وأشار إلى ما حققه من ثروات على  
حساب المسلمين ، وما أظهره من عداؤهم للإسلام واستخفاف بأهله فقال<sup>(٣)</sup>  
” إن بعض من تلقى قلبه العداوة للإسلام وأهله وذوبت كبده ببعضه للرسول  
صلى الله عليه وسلم من متدهرة الزنادقة المستسررين بأذل الملل ، وأرذل النحل  
من اليهود التى استمرت لعنة الله على الموسومين بها ، واستقر غضبه عز وجل  
على المنتمين إليها ، أطلق الأشر لسانه ، وأرخصى البطر عنانته ، واستشمخت  
لكثرة الأموال لديه ، نفسه المنهينة ، وأطغى توافر الذهب والفضة عنده ، همته  
الحقيرة ، فألف كتاباً قصد فيه ، بزعمه ، إلى إبانة تناقض كلام الله عز وجل

<sup>(١)</sup> مع شعراء الأندلس والمنبى ص ١٣٤ وما بعدها .

<sup>(٢)</sup> الرد على ابن النغريلة اليهودى ورسائل أخرى لابن حزم تحقيق د. إحسان عباس ص ١٩ .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ٤٦ ٤٧ .

فى القرآن ، اغتراراً بالله تعالى أولاً ، ثم بملك ضعفه ثانياً ، واستخفافاً بأهل الدين بدءاً ، ثم بأهل الرياسة فى مجانية عوداً ، فلما اتصل بى أمر هذا اللعين لم أزل باحثاً عن ذلك الكتاب الخسيس لأقوم فيه بما أقدرنى الله عز وجل من نصر دينه بلسانى وفهمى ، والذب عن ملته ببيانى وعملى .. فأظفرنى القدر بنسخة رد فيها عليه رجل من المسلمين . فانتسخت الفصول التى ذكرها ذلك الراد عن هذا الرذل الجاهل ، وبادرت إلى بطلان ظنونه الفاسدة . بحول الله تعالى وقوته ” .

وفهم من كلام ابن حزم أنه لم ينفرد وحده بالرد على ابن النغريلة بل شاركه فى ذلك آخرون .

وقد أكثر حزم فى رسالته من ذم ابن النغريلة ونعته بأقبح الأوصاف ، فرماه بالزندقة والنذالة والوضاعة وسوء الخلق على نحو ما يبدو فى قوله (١) وما أرى هذا الزنديق الأنوك إذ اعترض بهذا الاعتراض كان إلا سكران سكر الخمر، وسكر عجب الصغير إذ كبير ، والخسيس إذا أسر ، والذليل الجائع إذا عز وشبع ، والسفلى إذا مر وشط ، والكلب إذا دبك ونشط .. وكيف بخلق سوء متكرر فى الخساسة والهجنة والرذالة والنذالة واللعنة والمهابة ؟  
ولله در القائل :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته      وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ويصوب ابن حزم سهامه إلى اليهود جميعاً فيصفهم بأنهم ” عصابة لا تحسن إلا الخبث مع ميانة الظاهر . فيأنس المغتر إلى الضعف البادى ، وتحت ذاك الختل والختر والكيد والمكر ، كاليهود . الذين لا يحسنون شيئاً من الحيل ، ولا آتاهم الله شيئاً من أسباب القوة ، وإنما شأنهم الغش والتخابث والسرقة على التناول والخضوع ، مع شدة العداوة لله ولرسوله صلى

الرد على ابن النغريلة ص ٤٩ .

الله عليه وسلم " (١) ويختم ابن حزم رسالته بدعوة المسلمين إلى اجتناب اليهود ومقاطعتهم .

" فليتق الله تعالى امرؤ آتاه الله نعمة من نعمه . ومنحه عزة . وليجتنب هؤلاء الأنجاس الأنتان الأقدار الذين أحاق الله تعالى بهم من الغضب واللعنة والذلة والقلّة والمهانة والسخط والخساسة والوسخ مالم يحق بأمة من الأمم قط وليعلم أن هذه الكبي التي كساهم الله تعالى إياها أعدى من الجرب ، وأسرع تعلقاً من الجذام " (٢) .

فابن حزم وأبو إسحاق الإلبيري - وكلاهما فقيه - هما اللذان قادا حملة المعارضة ضد اليهود ، والتصدي لهم ، وإن كان ثمة فارق بين طبيعة المعارضة عند كل منهما ، فقد كان الإلبيري أكثر جرأة حين دعا - صراحة إلى الثورة على اليهود واستئصال شأفتهم بينما اكتفى ابن حزم بالدعوة إلى تحاشيهم وفرض العزلة عليهم .

---

(١) نفسه ص ٤٦ .

(٢) الرد على ابن النفريلة ص ٨١ .

## هجاء الشعوبية

كانت مشكلة الشعوبية إحدى المشكلات الخطيرة التي عانى منها المجتمع العربي لاسيما في العصر العباسي . ويشخص أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام بواعث هذه المشكلة فيقول<sup>(١)</sup> : " وقد أدت إلى قيام هذه المشكلة أسباب عدة منها عصبية العرب لعروبتهم ، وتمسكهم بأنسابهم ، واعتبارهم كل من لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعياً .. وشعر المولدون أو الموالي باحتقار العرب لهم ، فأحسوا في نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقاً ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم . بل لعلمهم يفوقونهم في التاريخ القديم . ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التي أثرت تأثيراً كبيراً في الأدب والعلم والحياة ، وظلت أصدائها تتجاوب في أنحاء الأمة الإسلامية مدة مديدة من الزمن " .

وقد وجدت مشكلة الشعوبية أصداء لها في المجتمع الأندلسي ، وكانت بواعث وجودها في الأندلس هي نفس البواعث التي أدت إلى وجودها في المشرق ، ونعني بذلك وجود طبقة من المولدين تشعر بالغبين والازدراء ، في مقابل طبقة أخرى من العرب تشعر بالتفوق والزهو " ويميز المؤرخون بين العناصر العربية أو البربرية التي جاءت فحلت الجزيرة الأندلسية منذ الفتح وبين العناصر الإسبانية التي اعتنقت الإسلام ، وهذه العناصر الإسبانية المسلمة تسمى عند المؤرخين العرب بالمسالمة أو بالمولدين . فاسم ( المسالمة ) يطلق على الإشبانيين الذين اعتنقوا الإسلام . واسم ( المولدين ) على نسلهم وكان المولدون يؤلفون زمن الأمويين القسم الهام من شعب الدولة الأموية لقد اعتنقوا الإسلام بسرعة وأصبح من الصعب . بعد عدة أجيال مضت ، تمييزهم عن المسلمين الذين جاءوا الجزيرة . وقد أخذ عددهم في الازدياد منذ حكم عبد الرحمن

<sup>(١)</sup> دراسات في الأدب العربي - العصر العباسي - ص ١٦ - ١٧ .

الثانى إذ اعتنق فى عهده أعداد كثيرة من الإسبانين الدين الإسلامى ، وكان بينهم من دخل فى خدمة المسلمين وأصبحوا موالى لأسيادهم وتلقبوا بألقابهم ، ومنهم من احتفظ باسمه الأسباني .. وكان من عادة مؤلفى التراجم عندما يذكرون ترجمة رجل عربى أن يأتوا على ذكر نسبه مشيرين إلى اسم الجد الأول الذى جاء إلى الأندلس <sup>(١)</sup> .

وبجانب طبقة المولدين وجدت طبقة اجتماعية أخرى كان لها تأثيرها فى المجتمع الأندلسى ، ونعنى بذلك " الصقالبة " وهذه التسمية تتسحب على السلافيين بوجه خاص ، وعلى أسارى الحرب والأرقاء من مختلف الشعوب الشمالية بوجه عام <sup>(٢)</sup> .

وبمرور الوقت أصبح الصقالبة يشكلون طبقة هامة فى المجتمع الأندلسى " واستطاع فريق منهم أن يتحرر من العبودية ويشغل مكاناً لائقاً فى الحياة الاجتماعية ، ومنهم من امتلك الأراضى غنياً ، وقد تهذبت طباعهم بالاحتكاك بالحضارة الأندلسية فرأينا فيهم بعض الأدباء والشعراء والمؤلفين .. وكلما ازداد عدد الصقالبة ازداد تأثيرهم ، وقاموا يلعبون دوراً سياسياً هاماً ، وقد بدءوا فى عهد عبد الرحمن الثالث بتقلد المناصب العالية فى الدولة حتى إنهم قد قلدوا مناصب القيادة العسكرية وكان الخليفة يستخدمهم ليضعف من سلطة الأرسقراطية العربية ويحاربها . وقد أظهر خليفة الناصر . الحكم الثانى كثيراً من التساهل تجاه الصقالبة مما جعل المؤرخين العرب يدهشون لموقفه السياسى لاسيما بعد أن أخذوا يمعنون فى التكبر والوقاحة .. " <sup>(٣)</sup>

وقد أدى وجود المولدين والصقالبة إلى ظهور النزعة الشعبوية فى الأندلس ويبدو أن ظهورها يرجع إلى وقت مبكر ، فنقرأ أن أحد الصقالبة . ويدعى

<sup>(١)</sup> فى الأدب الأندلسى . ص ٣٥ - ٣٦ .

<sup>(٢)</sup> انظر موجز بحث جولد تسيهر عن ( الشعبوية عند مسلمى اسبانيا ) أورده الأستاذ عبد السلام هارون فى ( نوادر المخطوطات ) ج ١ ص ٢٤١ .

<sup>(٣)</sup> فى الأدب الأندلسى للركابى ص ٣٨ وما بعدها .

حبيباً - يؤلف كتاباً يشيد فيه بمآثر قومه فيسميه ( كتاب الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضائل الصقالبة )<sup>(١)</sup> . ولعل هذا الكتاب أول محاولة للكتابة فى دائرة الشعوبية ، وإن لم يكن فى صميمها ، لأن مؤلفه دافع عن عنصره ولم يهاجم غيره .<sup>(٢)</sup>

وظهرت بوادر الشعوبية فى الشعر الأندلسى منذ وقت مبكر ، وفى عصر الخلافة ، عبر الشعر عن الصراع الأدبى بين العرب والمولدين ، " وكان يمثل صورة من النقائض المشرقية ، وفىه فى الجانب العربى الفخر بالقبيلية ، وكان العرب لهم قادتهم مثل سوار بن حمدون القيسى الثائر بناحية البراجلة ، وقد انضمت إليه بيوتات العرب من كورة وجيان ورية وغيرها ، فتغلب على المولدين ، وافتخر بنصره . وامتداد سلطانه وبقومه قيس فى قصيدة طويلة ثم وجه سوار همته إلى محاربة ابن حفصون وأتباعه وانتصر عليهم فى وقعة ( المدينة ) وكان صاحبه سعيد بن جودى أحد الشعراء الذين تمدحوا بذلك الانتصار فقال :<sup>(٣)</sup>

يقول بنو الحمراء لو أن جنحنا يطير لغشاكم بشؤبوب وابل

وكان من مظاهر احتدام الصراع الأدبى بين المولدين والعرب فى عصر الخلافة ظهور لون من المناقضات الشعرية بين الفريقين ، " وكان للمولدين شاعرهم المحامى عنهم ، ويعرف بالعبلى ، واسمه عبد الرحمن أحمد وينسب إلى قرية عبلة ، وينظره الشاعر الأسدى واسمه محمد بن سعيد مخارق الأسدى أسد بنى خزيمة ، وكان كل منهما يحرض قومه ويناضل عن مذهبه . ويصف ما يجرى لقومه على أصدادهم من الوقائع المخزية " <sup>(٤)</sup> . فمن أمثلة هذه المناقضات قول العبلى يشيد بأحد انتصارات قومه على العرب :<sup>(٥)</sup>

(١) نفح العليب ٣ - ٨٢ .

(٢) ( الشعوبية عند مسلمى أسبانيا ) بحث جولد تسيهر ، نوادر المخلوطات ص ٢٤١ .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة ص ٩٧ وما بعدها .

(٤) فى الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ٩٨ .

(٥) المرجع نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

قد انقضت قناتهم وذلوا وزعزع ركن عزهم الأذل

ورد عليه الاسدى شاعر العرب بقصيدة من نفس البحر والروى يعتمد فيها  
طريقة القدماء فى النسيج والصيغة ، منها قوله : <sup>(١)</sup>

قد احتمل الأحبة واستقلوا      لطبتهم بليل واحزألوا  
فظل الدمع من جزع عليهم      إذا احتملوا يسح ويستهل  
سأصرف همتى عنهم وأسلو      بهجوى معشراً كفروا وضلوا

وكانت منطقة البيرة من أظهر مناطق الصراع بين العرب والمولدين فى عصر  
الخلافة ، فقد أحدث فيها المولدون فتناً كثيرة مثل فتنة عمر بن حفصون زعيم  
العجم التى استمرت أكثر من نصف قرن حتى تم القضاء عليه فى خلافة عبد  
الرحمن الناصر ، وقد تغنى ابن عبد ربه بهزيمة ابن حفصون فقال : <sup>(٢)</sup>

رام ابن حفصون النجاة فلم يسر      والسيف طالبه فليس بناج  
مازال يلقح كل حرب حائل      فالآن أنتجها بشر نتاج  
ركبوا الفرار بعصبة قد جربوا      غب السرى وخوافت الإدلاج  
وإذا سألتهم موالى من هم      قالوا : موالى كل ليل داج

وبسقوط الخلافة الأموية وانقسام الأندلس إلى دويلات أتيح للنزعة الشعبوية  
أن تقوى وتحتدم ، وكان من أهم الأسباب التى أدت إلى احتدامها ضعف النفوذ  
العربى ووصول بعض أبناء الصقالبة والمولدين إلى الحكم على شاكلة أبى الجيش  
مجاهد العامرى - وهو أحد الموالى الصقالبة - الذى استأثر بحكم مملكة  
( دانية ) ، وقد أضحى بلاط مجاهد ملاذاً للشعبوية ، فقد لاذ بكنفه اللغوى  
( ابن سيدة ) صاحب ( المخصص ) الذى قال عنه صاحب سير النبلاء :  
" كان شعوبياً يفضل العجم على العرب .. وكان منقطعاً إلى الأمير مجاهد  
العامرى <sup>(٣)</sup> وقد نشأ فى بلاط مجاهد أبو عامر بن غرسية أقوى صوت شعوبى

<sup>(١)</sup> المرجع نفسه ص ٩٨ . ٩٩ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٩٧ .

<sup>(٣)</sup> سير النبلاء القسم الثانى ١١ - ٨٠ مصورة دار الكتب .

ظهر في الأندلس ، فقد ألف رسالة مشهورة في تفضيل العجم على العرب ،  
وهي كما وصفها ابن بسام " رسالة زميمة ، أغرب في تسليطها وذم فيها  
العرب ، وفخر بقومه العجم " .<sup>(١)</sup>

وقد ترجم ابن سعيد لأبي عامر بن غرسية فوصفه بأنه " من عجائب دهره ،  
وغرائب عصره ، وإن كان نصابه في العجمية ، فقد شهدت له رسالته  
المشهورة بالتمكن من أعنة العربية ، وهو من أبناء نصارى البشكنس ، سبى  
صغيراً ، وأدبه مجاهد مولاه ، ملك الجزر ودانية ، وكان بينه وبين أبي جعفر  
ابن الجزار صحبة أوجبت له أن استدعاه من خدمة المعتصم بن صمادح ملك  
المرية . ناقداً عليه ملازمة مدحه وتركه ملك بلاده " .<sup>(٢)</sup>

فالباعث على كتابة رسالة ابن غرسية هو ذلك الخلاف الذى نشب بينه  
وبين الأديب أبي جعفر بن الجزار ، وقد تفاقم الخلاف بين الرجلين مما دعا  
ابن غرسية إلى هجائه بمثل قوله :<sup>(٣)</sup>

بطرنة تعلم أصله	عزبت فسلها فماتنكر
ومثل بها وضماً مائلاً	وشفرة جزر ولا أكثر
تجر ذبول العلى تانها	وجدكم الجازر الأكبر

وقد بدأ ابن غرسية رسالته بالسخرية من ابن الجزار الذى وقف شعره على  
مدح أمراء العرب والإشادة بمآثرهم كأنه لا يوجد فى الأرض سواهم فقال<sup>(٤)</sup>  
" سلام عليك ذا الروى المروى ، الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن ،  
بزهد الثمن ، كأن ما فى الأرض إنسان ، إلا من غسان ، أو من آل حسان .."  
وينتقل ابن غرسية إلى الفخر بقومه العجم والتعريض بالعرب فيقول :  
" أحسبك أزریت ، وبهذا الجيل ازدریت ، وما دریت ، أنهم الصهب الشهب

<sup>(١)</sup> الذخيرة ٣ - ٢ - ص ٧٥٢ - ٧٥٣ .

<sup>(٢)</sup> المغرب ٢ - ٤٠٦ وما بعدها .

<sup>(٣)</sup> نمسه ٢ / ٣٥٦ .

<sup>(٤)</sup> نوادر المخطوطات ج ١ ص ٢٤٦ وما بعدها .

ليسوا بعرب ذوى أينق جرب ، أساوره ، أكاسرة ، مجد ، نجد ، بهم ، لا  
رعاة شويهاات ولا بهم ، شغلوا بالماذى والمران ، عن رعى البعران ، وبجلب  
العز عن حلب المعز ، جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن روع  
المروع ، حماة الروح ، نمة الصروح ، صقورة ، غلبت عليهم شقورة ، وشقورة  
الخرصان ، لكنهم خطبة بالخرصان :

ما ضرهم أن شهدوا أمجادا أو كافحوا يوم الوغى الأندادا

### ألا يكون لونهم سوادا

وفى مقام الفخر بقومه يلتفت ابن غرسية إلى التاريخ فيشير إلى أن هاجر أم  
العرب كانت أمة لسارة أم العجم ويحمل على العرب بشدة فيقول : " أرومة  
رومية ، وجرثومة أصغرية .. حسب جرى ، ونسب سرى ، أمكم لأمنا كانت  
أمة ، إن تنكروا ذلك تلفوا ظلمة ، ولا تهایل فى التكايل ، فما سنساقط  
قروداً ، ولا حكنا بروداً ، ولا لكنا عروداً ، فلا تهاجر ، بنى هاجر أنتم أرقاؤنا  
وعبدتنا ، وعتقاؤنا وحفدتنا ، مننا عليكم بالعتق ، وأخرجناكم من ربق الرق ،  
والحقناكم بالأحرار ، فغمطتم النعمة ، فصفعناكم صفعاً ، يشارك سفعاً ،  
اضطركم إلى سكنى الحجاز ، وألجاكم إلى ذات المجاز " .

وعلى هذا النحو تمضى رسالة ابن غرسية ، فما من فضيلة يراها إلا  
وينسبها لقومه ، وما من منقصة إلا ويلصقها بالعرب ، فقومه من العجم  
ضراغمة الأجم ، لم تدهم صواحب الرايات ، بل تبجحت عليهم سارة الجمال  
ربه الإياة .. دوخوا المشارق والمغارب . واستوطنوا من المجد الذروة والغارب ..  
شروهوا برنات السيوف ، لا بربات الشنوف ، وبركوب السروج عن الكلب  
والفروج ، وبالنفير عن النكير ، وبالجنائب عن الحبايب ، وبالحب عن  
الخب ، وبالشليل عن السليل . وبالأمر والذمر . عن معاقره الخمر والزمر  
وباللقيان عن العقيان ، وعن قنيان القيان "

ويعود ابن غرسية إلى أحداث التاريخ مرة أخرى مفتخراً بأمجاد قومه السياسية ومزرياً بالعرب فيقول : " أما علمتم أن الدولة النوشروانية ، والمملكة الأردشيرية بقروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطفوا ورأفوا ، وملكوكم الحيرة بعد الحيرة ، قللا ذللا ، تتخبرون البنات ، عند البيات ، مبهورات لا مبهورات ، فبرم من ذلك غسانكم ونعمانكم " .

ويتباهى ابن غرسية بأمجاد العجم فى شتى مجالات العلوم فيقول : " حلم ، علم ، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، كحملة الأسترلوميقي والموسيقى ، والعلمة بالأرتماطيقى والجو مطريقى ، والقومة بالألوطيقى والبوطيقى ، والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمهرة فى علوم الأديان ، والأبدان ... " .

ولكى يناهى ابن غرسية بنفسه عن مظنة الطعن فى العقيدة الدينية يفتخر بالنبى عليه السلام وإن ظلت روح كراهية العرب تسيطر عليه فيقول : " ولا غرو أن كان منكم حبره وسبره ، ففى الرغام يلقى تبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنطاف العذاب مستودعات بمسك الغزال .. " .

ويختم رسالته بدم ابن الجزار قائلاً : " فإذهب يا غث المذهب . وابتغ فى الأرض نفقاً ، أو فى السماء مرتقى ، فهذه ألية ، جلبت عليك بلية ، أوحك من البسيط والمديد ، ما تستجيز به من بطشنا الشديد ، إذ نحن معشر الموالى ، لا نوالى ، إلا من هو لعظيمنا موالى " .

دواضح من رسالة ابن غرسية أنه يردد كثيراً من المثالب التى اتكأ عليها دعاة الشعوبية فى المشرق كوصف العرب بالغلظة والجلافة وامتهان المهن الحقيرة ، والانغماس فى الشهوات ومعاقرة الخمر ، والتعريض بطريقتهم فى المأكل والمشرب والملبس وما إلى ذلك من صور الطعن والزراية غير أن ثمة اختلافاً بين مفهوم ابن غرسية لكلمة ( عجم ) ومفهوم شعوبية المشرق لها . فبهم يعنون بهذه الكلمة ( الفرس ) على حين يتسع مدلول هذه الكلمة عند ابن

غرسية فيعنى كل ما هو عجمي ، ومن هنا كان إشادته بالأكاسرة والقياصرة والروم وبنى الأصفر ويقارن " جولد تسيهر " بين الشعوبية المشرقية والشعبوية الأندلسية فيرى " أن الميل الحقيقي للشعبوية في الأندلس يمتاز بحرصه على أن يفسج مع العقيدة الإسلامية ، على حين نجد شعوبية المشرق على النقيض من ذلك ، إذ نرى ممثلي الشعبوية فيه من الملاحدة والزنادقة في أكثر الأمر"<sup>(١)</sup> كما يرى أن " جدل الشعبوية بالشرق من جهة الأسلوب كان أبعد عن الصناعة الفنية ، ومن جهة المبدأ أقرب إلى الموضوعية العلمية منه إلى الذاتية الشخصية ، على حين نجد كتابة ابن غرسية رسالة شخصية يستعمل فيها كل التعبيرات الفنية من ترادف وطباق ، وتلاعب بالألفاظ ، وتعريض وتضمين ، واقتباس ، ورمز إلى حوادث أدبية وحقائق تاريخية ، مما يطبع الرسالة الفنية بالطابع المطلوب . كما أن نمو وسائل الأسلوب الفني وتنوعها على الصورة التي يستخدمها كتاب القرن الخامس قد أعارت قلمه أحياناً لون التهكم والفكاهة الذي استغنى عنه جدل الشعبوية في المشرق " <sup>(٢)</sup>

ومهما يكن من أمر ، فإن رسالة ابن غرسية كان لها أصداء واسعة المدى في الأندلس ، سواء في عصرها ، أو فيما تلاه من عصور ، ورغم أن ابن غرسية وجه رسالته أصلاً إلى أبي جعفر بن الجزار إلا أن المصادر لم تشر إلى أنه رد على رسالة ابن غرسية ، ومع ذلك فقد انبرى كثير من الكتاب للرد على رسالة ابن غرسية ، وقد وصلت إلينا بعض هذه الردود ، بينما ضاعت ردود أخرى لم يبق منها غير أسمائها وأسماء أصحابها ، نذكر منها : <sup>(٣)</sup>

١- رد الفقيه أبي مروان عبد الملك بن محمد الأوسى الذي سمي رسالته :  
"رسالة الاستدلال بالحق ، في تفضيل العرب على جميع الخلق ،

<sup>(١)</sup> انظر بحث جولد تسيهر عن (الشعبوية عند مسلمي اسبانيا) في نوادر المخطوطات ١ / ٢٤١ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ١ / ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

<sup>(٣)</sup> نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٩ .

والذب والانتصار لصفوة الله المهاجرين والأنصار " وقد أشار إليها  
البلوى وصاحب كشف الظنون .

٢- رد الكاتب ذى الوزارتين أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى  
( ت سنة ٥٤٠هـ ) وسماه : " خطف البارق وقذف المارق ، فى الرد  
على ابن غرسية الفاسق ، فى تفضيله العجم على العرب ، وقرعه  
النبع بالغرب " وقد أشار إليها البلوى فقال : " فأما ابن أبو الخصال ،  
فأخنى عليه وصال ، بحجاج أمضى من النصال ، ماله عنها  
انفصال " .<sup>(١)</sup>

٣- رد أبى محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجى الغرناطى  
وكان يعرف بابن الفرس .

٤- رد عبد الحق بن خلف بن مفرج ، وقد أشار إليه صاحب ( تكملة  
التكملة ) .<sup>(٢)</sup>

أما الردود التى وصلت إلينا فهى :<sup>(٣)</sup>

١- رد أبى جعفر بن الدودين البلنسى ، كان معاصراً لابن بسام الذى قال  
عنه<sup>(٤)</sup> : " هو أحد من لاقيته وشافهته ، وأملى على نظمه ونثره  
بأشبونة سنة سبع وسبعين وأربعمائة وأخبرنى برسالته التى رد فيها  
على أبى عامر بن غرسية " .

٢- رد أبى الطيب بن من الله القروى ( ت سنة ٤٩٣ هـ ) وقد سُمى  
رسالته " حديقة البلاغة ، ودوحة البراعة ، المورقة أفنانها ، المثمرة

<sup>(١)</sup> ألف باء للبلوى ١ / ٣٥١ نقلاً عن نوادر المخطوطات .

<sup>(٢)</sup> تكملة التكملة ص ٤٢٢ .

<sup>(٣)</sup> نوادر المخطوطات ١ / ٢٣٦ وما بعدها .

الدخيرة . القسم الثالث . المجلد الثامن ص ٧٠٣ - ٧٠٤ ( تحقيق د . احسان عباس ) .

أغصانها ، بذدر المآثر العربية ، ونشر المفاخر الإسلامية ، والرد على ابن غرسية فيما ادعاه للأمم العجمية ”

٣- رد أبي يحيى بن مسعدة الذى عاش فى عصر الموحدين .

٤- رد لمجهول وعنوانه ” رسالة ثانية فى الرد على ابن غرسية ” ويرجع الأستاذ عبد السلام عارون أن تكون هذه الرسالة أيضاً ليحيى بن مسعدة ، وذلك للتشابه الواضح بين أسلوبى الرسالتين ، ولتقارب بعض العبارات فيهما <sup>(١)</sup> .

### **رد ابن الدودين البلنسى على ابن غرسية :**

استهل ابن الدودين رسالته بدم ابن غرسية فرماه بالخسة والنفاق ووصمه بالنذالة وخطل الرأى ، : فقال : <sup>(٢)</sup> ” اخساً أيها الجهول المارق ، والمرذول المنافق ، أين أمك ، ثكلتك أمك ، أو ما علمت أنك سحبت من عقالك لعقالك ، وقدمت أول قدمك ، لسفك دمك ، وبسطت مكفوف كفك ، لسطان حتفك ، وقلمت شبا أقلامك ، لاصطلامك ، وحبرت بحبرك ، لذهاب خبرك ، مشقت فى قرطاسك ، لشق راسك ، فما حقيقة جوابك على خطك خطابك ، إلا سلبك عن إهابك ، وصلبك على بابك ” .

ويمضى ابن الدودين فى تهديد ابن غرسية ، ويشرع بعد ذلك فى تعداد الصفات التى أسبغها ابن غرسية على قومه ، فينقلها من معنى المدح الذى وضعت له إلى معنى الثلب والهزاء كقوله ” الصهب السبال ، من ولغ الدم وشرب الأبوال . أكلة الجيف ، وحللة الكنف ” ، ” والوضوح ، الرجح ” رجح الأكفال ، وضح كذوات الأحجال ، ” علم ، حلم ” علم بالتداوى من القرم ، ومنافع القلم ، حلم عن كل مجاوز الحلم . ” جمح طمح ” الآن

<sup>(١)</sup> نوادر المخطوطات ١ / ٢٢٧ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ١ / ٣٠٢ وما بعدها .

صدقت ، وغلطك استدركت ، جمع فى الإحجام : عن الإقدام ، طلب الفرار ،  
يوم الانتصار ، وإدراك الثار ، طمح إلى كل رموح طموح ”  
وحين وصف ابن غرسية قومه بأنهم ” حماة السروح نماة الصروح ” رد  
عليه ابن الدودين بقوله : ” هل يصح فى التحصيل ، أو يجوز فى العقول ،  
أن يحمى قومك سروح شائهم ، وقد أباحوا فروج نسانهم ، أليس هذا عين  
المحال ومغالطة الجهال ؟ ” .

ويكثر ابن الدودين من التعريض بابن غرسية وقومه كقوله : ” ملس الأدم  
ما حاكوا قط بروداً ، ولا لأكوا عروداً ” هذا وأبيك من التعريض الرقيق فى  
مقالك ، وآلك ، وذلك أنك رصفتهم بأملاس الجلود ، وقضيت بنفى لوك العرود  
وإيجاب ذلك ، لا يليق إلا ببالك . فهذا لعمرك من بديع التحقيق ، فافخر ،  
فهاتان صفتان سلمتالكم . وأما لوك العرود ، فإن ذلك أوضح من السراج  
الوهاج ، فى الليل الداغ . قد تحدث أن ولدانكم عطلوا فى وقت سوق نسانكم ،  
فسمى ذلك إلى مليككم ، فحكم ، أكرم به من حكم ، أن يبيح النسوان ، من  
أنفسهن ما أباح الولدان ، وامتلئن ذلك فاتسقت الحالات ، ونفقت السوقات ،  
وما سمع فى الأزمان ، بأغرب من هذا الشأن ، فاشمخ بأنفك . وافخر  
بنصفك ” .

ويقف ابن الدودين عند كل مثلبة ألصقها ابن غرسية بالعرب فيفندها  
واحدة إثر أخرى كقوله : ” وأما ما قععت به ووعوعت ، من صواحب  
الرايات ، فهن وأبيك بعض بنات ربة الإياة . إماننا المسيبات المتبينات ،  
لكتناهن ظبا البيض الهندية ، وشبا السمر الردينية ، فما عجنا بهن عما  
عودتموهن من البغاء ، للاسترضاء ، فيكثر معشر العربان من ولد سارتكم  
الأموان والعبدان ، وفيك من ذلك أصح دليل وأوضح برهان ” .

وحين وصف ابن غرسية العرب بأنهم حاكة برود رد عليه ابن الدودين بأن العجم هم الذين يمتنون تلك المهنة " وأما حوكم البرود ، فناهيك من الغفارة الإفرنجية ، إلى الديباجة الرومية ، والنستبان بذلك تشهدان " .

ويمى ابن الدودين فى رسالته فيقرع الحجة بالحجة ، ويرد الطعنة إلى صدر خصمه كقوله : " وقضية أبى عبشان التى عظمت ، ليس الأمر كما توهمت ، لأن الكعبة بيت الله لا شريك له ، وضعه تعالى للعباد ، وسوى بين العاكف فيه والباد ، وأبو عبشان إنما باع خدمته فى البيت ، وهبها قضية سفيها الغوى ، أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارى ، إذ باع نبيه روح القدس ، بأعوانه بالأفلس ، فكذب الله ظنه ، وأنجى نبيه ، فدونك ضع قضية سفيها فى كفة ، وفى أخرى قضية إمامك ، ورجح بينهم بفض ختامك " .

وينفى ابن الدودين ما ادعاه ابن غرسية لقومه من تفوقهم فى علم الشرائع فيقول " وأما فخرك بعلمهم الشرائع ، فمن أبداع البدائع ، " استنتت الفصال حتى القرعى " " وجهلهم بذلك أوضح ، من أن يشرح ، وأبين من أن يبين لكن أنكنت من ذلك نكتة ، وأنبذ منه نبذة ، تصفعهم صفعاً ، وترد صهب أدمهم صفعاً . وأنى يكون ذلك ، هبلت لآلك ، ولم يأخذه عن نبى ولا نقلوه عن حوارى ، ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان ، إلى أن أصاروه فى خبر الهذيان ، وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلهاً نبيهم ، يسمونه بالرب المعبود ، وصيروه بعد مصلوب اليهود ، فاعجب بجهل يجمع بين هذين ، الطرفين " .

وينفى أيضاً ما ادعاه ابن غرسية لقومه من عراقه الأصل ، ويضيف هذه المكرمة إلى العرب فيقول : " وأما وصفك قومك أنهم " مجد ، نجد ، شمش ، بذخ ، عرق " ، فهيهات ذلك منهم ، تلك صفات قومنا العرب ذوى الأنساب والأحساب ، والعلوم ، والحلوم ، أولى اللسن ، والبيان واللحن ، والإسهاب

فى الصواب والحكمة وفصل الخطاب ، فرسان الإعراب ، وأرباب القباب  
ومعملى الصوارم والحراب ، أنديتهم عراض المنية ، وأرديتهم بيض المشرفية  
ولبوسهم مضاعفة الماذية .. مجالسهم السروج ، وريحانهم الوشيج ، وموسيقاهم  
رنات الردينيات . لم تكن قادتهم النساء ، ولا رادتهم فى آجالهم النساء ” .

ويختم ابن الدودين رسالته كما بدأها بزم ابن غرسية الذى فضح جهله ما  
كان مستوراً من عورات قومه : ” وما كان أغناك يا كشاجم ، عن كشف  
عورات آلك الأعاجم ، لكن ضعف نظرك ، حداك إلى هذرك ، وسوء أدبك ،  
وافى بك إلى عطبك ” .

### رد ابن من الله القروى :

كتب ابن من الله القروى رسالته ” حديقة البلاغة ” للرد على رسالة ابن  
غرسية ، وهى رسالة طويلة قسمها إلى فصول وافتتحها بهذه الأبيات : <sup>(١)</sup>

وذى خطل فى القول يحسب أنه	مصيب فما يللم به فهو قائله
نهدت له حتى نثيت عنانه	عن الجهل واستولت عليه معاقله
تعال فخبرنى علام تشددت	قوى العير حتى أحرزتك مجاهله

وذيل هذه الابيات بزم ابن غرسية فقال ” أيها الفاخر بزعمه ، بل الفاجر  
برغمه ، ما هذه البسالة ، فى الفسالة ، ما هذه الجسارة على الخسارة ” .

ويشير ابن من الله إلى فضل العرب على ابن غرسية . هذا الفضل الذى  
قابله بالجحود والنكران ” أما كانت للعرب يد تشكرها ، أو منة تذكرها . أما  
جبرت نقيصتك ، أما رفعت خسيستك ، أما استنهضتك من وهديتك ، أما  
أيقظتك من فضلتك وقدرتك . ألم تربك فيها وليدا ، ألم تتخذك لها تليدا ، ألم  
تعن بتخريجك وتدرجك ، أما أنطقتك بعد العجمة ، أما أسلقتك بعد اللكنة ،  
حتى إذا اشتد كاهلك ، وعلم جاهلك . وقوى ساعدك ، ورقى صاعدك .

<sup>(١)</sup> نوادر المختلوطات ١ / ٣١٠ وما بعدها .

كفرت نعمتها لديك ، ونثرت عصمتها من يدك ، وأخذت تطاولها بأرسانها ،  
وتقاولها بلسانها ، وتناضلها بسهامها ، وتهاطلها برهامها ” .

وينحو ابن من الله منحى ابن الدودين فى تعداد المآثر التى خلعتها ابن  
غرسية على قومه ، فيصرفها عن مواضعها ، ويحيلها إلى سهام يسدها إلى  
صدر غريمه ، وينقلها من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، كقونه : ” وهات أرنا  
مفاخرك ، ونرك مساخرك ، أنت صاحب الشهب ، الصهب ، والسنة  
شهباء ، والجهام صهباء ، كذلك أنت لا خير ولا مير ، ولا عمر ولا عمير ،  
ليس للسخاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء فى العجمية رسم ، أين أنت عن السمر  
القمر ، البيض غرراً وصفاحاً ، السود طرراً وأوضاحاً .. سعروا عليكم نار  
الحرب بتلك الأنيق الجرب ، فكسروا كياسرتكم ، وقصروا قياصرتكم ،  
وأخمدوا نار صولتكم ، ومحو أثار دولتكم ، وطهروا الأرض المقدسة من  
أنجاسكم ، والمسجد الأقصى من أرجاسكم .. ” .

ويشتد ( ابن من الله ) فى حملته على قوم ابن غرسية ، ويكثر من إلحاق  
الصفات الذميمة بهم ، ويصممهم بكل منقصة على نحو يذكرنا بهجاء جرير  
للأخطل . فهم ” الذين ينجون ولا يستنجون ، ويتجنبون ولا يتطيبون ” وهم ”  
رعاة الخنازير ، وأكلة السنانير ” أما رجالهم ” فقلف غلف ” وأما نساؤهم ”  
فقدر بظر ، لا يعرفون الخفاض ولا الختان ، ولا يالفون السنان ولا العنان ” .

ويمضى ( ابن من الله ) فى هجائه لابن غرسية وقومه مقتفياً طريقة ابن  
الدودين فى صرف معانى المدح إلى الهجاء فيقول : ( وأنتم كما وصفت ، ملس  
لس . لا تغيرون ولا تغارون ، تمنعون ، ولا تمتنعون ، قلوبكم قواء ، وأفئدتكم  
هواء ، وعقولكم سواء ، قد لانت جلودكم ، ونهدت نهودكم ، واحمرت  
خدودكم تحلقون اللحي والشوارب ، وتتهادون القبل فى المشارب ” .

ويحذو حذو ابن الدودين فى رد المثالب التى ألصقتها ابن غرسية بالعرب  
إلى صدور العجم فيقول : ” ومن الآيات ذكر صواحب الرايات ، والمباضعة

عندكم كالمراضعة ، ما فى السكر عندكم نكر . تبيحون ولوج العلوج ، على بدور الخدور ، الزنا عندكم سنا ، والفجار بينكم فخار بينكم فخار ، فكيف أنكرت ، ما ذكرت ، وأنت على سنن تلك السنن ، الحال قائمة ، والقصة دائمة ” .

ويفخر ( ابن من الله ) بأمجاد العرب الذين فتحوا بلاد العجم ، وأخضعوهم لحكمهم فانقادوا لهم أذلة متصاغرين ” فما تعرضك لقوم سلكوا بلادكم ، واستعبدوا أولادكم ، ثم إنهم حين قدروا ، غفروا ، ووضعوا الإتاوة على جماجم ، الأعاجم ، والمرسوم فى براجم ، السلاحم ، فلا يحضرون العشار ، إلا بالعثار ، ولا يشهدون الأسواق ، إلا بالأطواق ، فإن دخلتم فى الدين قطعت أستاذكم ، وأن خرجتم منه أخذت التى فيها شفاهكم وكنت أنت من رذايا تلك السبايا ، ومن عبايا . تلك الخبايا ، ومن خطايا ، تلك العطايا.. ”

وعلى هذا النحو من الإزراء بالعجم ، والإشادة بالعرب ، يمضى ( ابن من الله ) فى رسالته ، فيتباهى بما أحرزه العرب من سبق فى شتى المجالات فقد جمعوا الطب فى كلمتين . فقالوا ” إن المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ” وإذا تبينت فصول بقراط ، أو أصول سقراط ، لن تجد مستزاداً مستجاداً ، كما يفخر بما للعرب من شعر موزون ، ونظم مكنون . وكلام منثور ، وسجع مأثور..

### رد يحيى بن مسعدة :

ظلت أصداء رسالة ابن غرسية تتردد فى الأندلس بصورة قوية فعارضها كتاب عاشوا بعد عصر ابن غرسية على شاكلة يحيى بن مسعدة وهو أحد الأدباء الذين عاشوا فى عصر الموحدين ، وقد أكثر فيها من ذم ابن غرسية

وقومه كقوله : <sup>(١)</sup> " فالتقط يا لقيط غرسية .. " " مثلك يا دمي العجم ، ودمي العجم " .

وعاب عليه كما فعل ( ابن من الله ) أنه قال العرب بلسانهم ، وتمثل بأشعارهم وتنكر لأفضالها عليه " مالك يا وقاح ، ولهذا الحي اللقاح ، تفوهت بكلامهم ، وفقهت عن أفهامهم ، وأهلك بشعارهم ، وتمثلت بأشعارهم .. هذا جزاؤها في تدريبك وتعليمك ، وتصريف ألفاتها في حلقة ميمك ، فلا ماء وجهك أبقيت ، ولا حرج أمك العفلاء أنقيت . وما أنبذك يا نبيد لدمها وأقل شرك على كفالتها لك وإلقاء أقلامها " .

ويعييره ابن مسعدة بأنه عبد عبدة الأوثان ، ويركز في هجائه لقوم ابن غرسية على الجوانب المتصلة بالعقيدة كقوله : " يا تبعة المجوس ، وقرعة القرن والناقوس ، ألسنا بالقوس ، وأنتم بالفرقوس ، عبدة التثليث ، وشروة أجزاء الثالوث ، لقد أبحتم السفارة للعاضد ، وجنئتم بما فضحت قومها غامد " . ويحذو ابن مسعدة حذر سابقيه في دحضه مزاعم ابن غرسية ، فيردها واحدة بعد واحدة غير أنه يميل إلى التفصيل والإسهاب ، ويكثر من إيراد الشواهد والأمثلة ، حتى لقد غدت رسالته أشبه بمتن من المتون ، فهو بالقياس إلى صاحبيه أمضى سلاحاً ، وأغزر ثقافة ، وأطول نفساً ، وأكثر قدرة على التتبع والاستقضاء .

وثمة ظاهرة تبدو أكثر وضوحاً في رسالة ابن مسعدة ، وهي الإكثار من تضمين الشعر كقوله في هجاء ابن غرسية : <sup>(٢)</sup>

ولا لك دون أنني زاجر  
ستعلم ويك من الخاسر  
كما أبق الضبع الباسر

أيأ عبد عبد ألا نستحي  
مواليك أخسرت من شأنهم  
فإن تنج مني بنزع الشوى

<sup>(١)</sup> نوادر المخطوطات ١ / ٢٥٦ وما بعدها .

<sup>(٢)</sup> نوادر المخطوطات ١ / ٢٨٩ .

فمساء ضلوعك من نطفة ومساء الكراض دم مائـر

ومن خلال هذه الرسائل الأربع التي عرضنا لها يمكن أن نستخلص الحقائق التالية :

أولاً : إن الطريقة التي انتهجها كتاب هذه الرسائل تقترب إلى حد كبير من طريقة شعراء الهجاء ، ولاسيما شعراء النقائض ، إذ نرى فيها كثيراً من صور الهجاء ومعانيه التي نراها في الشعر ، ففيها السب الصريح ، والميل إلى الفحش والإقذاع ، والإلحاح على النيل من نسب الخصم ، والحق المـخازى والمثالب بقومه ، وفيها ألفاظ الشتائم التي تجرى على ألسنة الدهماء ، وفيها الإشارات التاريخية والدينية المتصلة بذكر وقائع وأحداث قديمة ، استغلها كل جانب لترجيح دعاواه ، والزرابة بخصمه .

ثانياً : أن هذه الردود الكثيرة التي أثارتها رسالة ابن غرسية تدل على " أن الشعور بالعروبة كان قوياً في الأندلس على مر الزمن ، وأن السند الشعبي لم يكن على شيء من القوة الأدبية " <sup>(١)</sup>

ثالثاً : أن الرسالة النثرية كانت أظهر من الشعر وأوضح في إبراز النزعة الشعوبية التي احتدمت في الأندلس ؛ إذ أن ما لدينا من شعر يعبر عن هذه النزعة يبدو ضئيلاً متواضعاً بالقياس إلى النثر ، فكان النثر هو القالب الأمثل الذي استغله أدباء الأندلس للتعبير عن هذه النزعة .

<sup>(١)</sup> تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الملوك والمرابطين . للدكتور إحسان عباس ص ١٧٢ .

## هجاء الفرنجة :

كان هذا اللون من الهجاء وليد الظروف السياسية التي مرت بها الأندلس كما كان ثمرة من ثمرات الصراع بين المسلمين والنصارى .

وإذا كان شعراء الأندلس قد خلدوا انتصارات المسلمين فى قصائد كثيرة أشادوا فيها ببطولة قوادهم وجيوشهم ، فإنهم من ناحية أخرى سخروا فى شعرهم من هزائم أعدائهم ، واستخفوا بملوكهم وقوادهم ، وعبروا عن كراهيتهم لهم فى صور كثيرة .

وتدور معانى هذا الهجاء حول نعت أعداء المسلمين بصفات الجبن والعار والمهانة ، والتنبؤ باندحارهم فى أى حرب يخوضنها ضد المسلمين ، ويكثر الشعراء من رسم صور ساخرة مزرية لهم كقول ابن بقی (١) :

يا معشر الروم قد شالت نعامتكم	إما من الحين أو من شدة الفشل
لم يكسكم من ثياب الخزى أسبغها	إلا اتقاؤكم للصدر بالكفل
يا ويلكم معشراً بل وبل أمكم	فإنها ولدت للثكل والهبل

ومن هذه الصور التى تصور جبن الأعداء وخورهم أمام بأس المسلمين وشجاعتهم قول ابن حربون : (٢)

ألم تر قيصر فى ملكه	إلى السلم من بأسكم يهرب
ولما تنله سوى عضة	لها بين أكتافه مخلب

وفى كثير من القصائد يختلط مدح المسلمين بهجاء أعدائهم ، وتلك سمة مميزة لهذا اللون من الهجاء ، فمن ذلك هذه القصيدة لابن حزمون التى يمدح فيها المنصور الموحدى عقب انتصاره فى معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ . ويهجو فيها أعداء المسلمين ويركز فى هجائه على الجوانب المتصلة بالعقيدة فيرميهم

(١) الدخيرة ٢ / ٢ ص ٦٢١ .

(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ . ٣٦٢ .

بالكفر والإلحاد والضلال ، ويشيد بالمنصور الذى طهر الأرض من دنسهم  
ورجسهم ، على نحو ما نجد فى قوله : <sup>(١)</sup>

أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سناقبس
لاقيت جموعهم وفندوا	فرصاً فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحص ولم يقس
فأناخ الموت كلاكه	بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم	الربض مع الحرب الضرس
فأولئك حزب الكفر ألا	إن الكفار لفسى تكس

ويعبر عبادة القزاز عن شماتته لمصرع ابن فرذلند - ولعله يعنى فرسية بن  
فرذلند الذى أسر سنة ٣٨٥هـ فى خلافة المنصور بن أبى عامر - فيقول <sup>(٢)</sup> :

فرقت بين دماغه وفؤاده	وجمعت بين غرابه والسيد
وكانما التابوت حنط شلوه	فأتاك فوق الظهر فى ملحود
أكلت ودبعته الوغى وكانما	رفع الذى أبقتة فى سفود
رأس أميل عقوبة إذ لم يذن	لله فى أيامه بسدود
طمحت إليه عيوننا فكانما	رصدت بطلعته هلال العيد

وأدار بعض الشعراء هجاءهم حول تسفيه معتقدات الفرنجة ، فسخروا من  
شعائهم وطقوسهم ، وذموا رجال دينهم وأماكن عبادتهم ، كهذه الأبيات لابن  
شهيد التى يصور فيها ما يدور فى إحدى الكنائس تصويراً لاذعاً واصفاً من  
يرتادونها بأنهم ضحايا إبليس ، معرضاً بتصرفات بعض القساوسة ، على نحو  
ما يبدو فى قوله : <sup>(٣)</sup>

وكنيسة أخذ البلى منها كما	أبصرت فيناً فى مغار ينهب
كم صاد إبليس بها من تائب	بحبائل ألقى بهن ترهب
وكم ابتنى القسيس فيها منبراً	من جوذر وبدا عليه يخطب

<sup>(١)</sup> المعجب ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

<sup>(٢)</sup> الشبهات لابن الكثانى ص ٤٦٠ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة ٢ / ١ / ص ٦٨٢ .

سقى لها من دار غى لم يزل      فيها كريم بالملاح معدب  
بنس المصلى إن أردت تعبدأ      فيه ولكن كان نعم المشرب

ويحتفظ ابن سعيد بزجل لأبى على الدباغ - أحد زجالى عصر الموحدين  
وقد وصفه ابن سعيد بأنه " إمام فى الهجو على طريقة الزجل والقول فى  
اللياطة " (١) ، وقد نظم هذا الزجل فى هجاء أم شخصى نصرانى يدعى  
( الجرنيس النيار ) حين ماتت ، وقد مال فيه إلى الإقذاع والفحش ، على نحو  
ما يبدو فى قوله : (٢)

عزوا إبليس ونوح يا كفار  
ماتت أم الجرنيس النيار

\* \* \*

أى عجوز لقد فجح فيها  
كل شاطر إن كان فى ذا الجيها  
حلفت الموت ألا يخليها  
وأى رزىا جرت على الشطار  
بها كان الربرض يفوح .....  
إن دعيت للفسوق تقول لبيك  
وتزين قبح المعاصى إليك  
متحل إبليس حتى تقح فالعار

\* \* \*

لم تخلنى لهم فى قاع الدير  
غير بطنا وقف مع لفظير  
وعرم من خروق لمسح ...  
وقدير تهيج الاسحار

\* \* \*

(١) المغرب ١ / ٤٣٨ .  
(٢) المغرب ١ / ٤٤٠ وما بعدها .

خرج الروح على دين الربى  
وأبومرا يصيح أباحزبى  
فى جهنم تركب على ...  
مع أبنة القلا وزيك العيار

وبجانب ما فى هذا الزجل من تصوير فاحش وألغاز بذينة فإن صاحبه يتكىء على الناحية الدينية ويستغلها فى هجائه استغلالاً كبيراً .

وتشير بعض المصادر إلى احتدام بعض معارك الهجاء بين مسلمى الأندلس وبين الفرنجة فمن ذلك ما جاء فى " صلة الصلة " من أن النقفور ملك النصارى بعث بقصيدة نظمها أديب مرتد إلى المعتد بالله ، وذلك عقب استيلاء النصارى على بعض ثغور الأندلس ، فلما وصلت هذه القصيدة إلى مجلس الخلافة وقرئت بين يدى الخليفة ، اهتز الفقيه ابن حزم عند سماعها ، وأخذته الحمية ، فرد على شاعر نقفور بقصيدة طويلة صيغت فى قالب رسالة ، وجهها ابن حزم لنقفور واستهلها بقوله :<sup>(١)</sup>

من المحتمى لله رب العوالم	ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادى إلى الناس بالتقى	وبالرشد والإسلام أفضل قادم
عليه من الله السلام مردداً	إلى أن يوافق البعث كل العوالم
إلى قائل بالإفك جهلاً وضلة	عن النقفور المنتزى فى الأعاجم

ويشير ابن حزم إلى استيلاء النصارى على بعض الثغور فيقول :

سلبناكم دهرأ فلدتم بكرة	من الدهر أفعال الضعاف العزائم
فحُرتم سروراً عند ذاك ونخوة	كفعل المهين الناقص المتعاضم
وما ذاك إلا فى تضاعف غفلة	عرتنا وصرف الدهر جسم الملاحم

قتلعة من شعر ابن حزم ، أوردها الدكتور إحسان عباس فى كتابه تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة ص ٣٧٤ وما بعدها .

ويذكر ابن حزم النصارى بأمجاد المسلمين وما أحرزوه من انتصارات على الروم فى السياسة والحرب ، وهو لا يصدر فى ذلك عن نزعة إقليمية ، ولكنه يصدر عن عاطفة دينية عامة ، فيذكر بفتوحات المسلمين فى الشام والأندلس ومصر وصقلية وغيرها من الأقطار :

ألم ننتزع منكم بأيد وقوة  
ومصر وأرض القيروان بأسرها  
ألم تنتصف منكم على ضعف حالها  
أليس يزيد حل وسط دياركم  
ومسلمة قددا سها بعد ذاكم  
وأدى لهارون الرشيد مليكمم  
حميع بلاد الشام ضربة لازم  
وأندلساً قسراً بضرب الجماجم  
صقلية فى بحرهما المتلاطم  
على باب قسطنطينة بالصوارم  
بجيش لهام كالليوث الضراغم  
إتاوة مغلوب وجزية غارم

ويشير ابن حزم إلى سبايا الروم فيقول

ليالى قدناكم كما اقتاد جازر  
وسقنا على رسل بنات ملوككم  
جماعة أتياش لحز الحلاقم  
سبايا كما سيقت ظباء الصرائم  
ويتكىء ابن حزم فى هجائه للنصارى على الجوانب المتصلة بالعقيدة ،  
على نحو ما يبدو فى قوله :

أيقرن يا مخدول دين مثلث  
يدين لمخلوق بدين عبادة  
أنا جيلكم مصنوعة متكاذب  
وعود صليب لا تزالون سجداً  
إلى ملة الإسلام توحيد ربنا  
وصدق رسالات الذى جاء بالهدى  
فلم تمتهنه قط قوة أسر  
كما يفترى زوراً وإفكاً وضلة  
على أنكم قد قلتم هو ربكم  
أبلىطم وجه الرب تبارك وتعالى  
أبى الله أن يدعى له ابن وصاحب  
بعيد عن المعقول بآدى المآثم  
فيالك سخفاً ليس يخفى لكاتم  
كلام الألى فيما أتوا بالعظائم  
له يا عقول الهاملات السوائم  
فما دين ذى دين لنا بمقاوم  
سحمد الآتى بدفع المظالم  
ولا مكنت من جسمه يد لاظم  
على وجه عيسى منكم كل آثم  
فيا لضلال فى الحماقة جائم  
لقد فتم فى ظلمكم كل ظالم  
سبلىقى دعاة الكفر حالة نادم

والقصيدة تسيطر عليها عاطفة دينية قوية ، وترتفع فيها نغمة الحماسة والحدة ، غير أن صدورها عن البديهة والارتجال أفقدها كثيرا من المقومات الفنية .

وعلى أية حال ، فقد أثارت قصيدة شاعر نقفور ما أثارتها رسالة ابن غرسية من قبل ، فلم يكن ابن حزم وحده هو الذى تصدى للرد عليها وإنما شاركه فى ذلك شعراء آخرون على شاكلة أبى بكر القفال الشاشى ، وأبى الإصبغ عيسى ابن زورال الغرناطى .<sup>(١)</sup>

---

<sup>(١)</sup> فهرست ابن خير الاشبلى ص ٤٠٩ .

## الفصل الثاني

### هـاء أصحاب المناصب الرسمية

- هـاء الوزراء
- هـاء الولاة والعمال
- هـاء القضاة
- هـاء الفقهاء



لم يكتف الشعراء بهجاء الحكام وانتقاد تصرفاتهم وفضح أساليبهم ، بل وجهوا سهامهم أيضاً إلى كل من يعمل في خدمتهم ، ولم يسلم أحد ممن شغل مناصب رسمية من ألسنتهم كالوزراء والولاة والعمال والقواد لأنهم يمثلون السلطة بشكل أو بآخر ، ولأنهم ينفذون سياسة الحاكم أياً كان لون هذه السياسة ، ولم يقف الشعراء بهجائهم عند طبقة الوزراء والقواد وحدهم ، بل اتجهوا بهجائهم إلى القضاة والفقهاء الذين مالئوا السلطة وتخلوا عن رسالتهم تحقيقاً لمصالح شخصية أو مطامع رخيصة .

### هجاء الوزراء :

يمكن أن نميز اتجاهين واضحين في هجاء الوزراء . أحدهما ، صدر فيه أصحابه عن دوافع سياسية ، والآخر صدر فيه أصحابه عن دوافع ذاتية ويمكن أن نمثل للاتجاه الأول بقول من يسمى ابن الربيع في هجاء حكم بن سعيد الحائك وزير المعتد بالله : <sup>(١)</sup>

هـبـك كـمـا تـدعـى وزيـراً      وزير من أنت يا وزير  
والله ما للأمير معني      فكيف من وزير الأمير

غير أن أغلب هجاء الشعراء للوزراء كان يختفى وراءه بواعث ذاتية ، إذ كان منصب الوزراء مطمحاً للكثيرين ، فكان هجاء الوزراء في معظمه ناجماً عن حقد وضمينة للمكانة التي يتبوها هذا الوزير أو ذاك ، وقد يصب الشاعر هجائه على أحد الوزراء لأنه امتنع عن لقائه ، أو حجبته عنه لأنه لم يقيد اسمه فيمن يأخذون الهبات والعطايا ، ولابن شهيد بعض قصائد في هجاء الوزراء ، صدر فيها عن دوافع ذاتية . فمن ذلك ما يذكره الحميدى من أن ابن شهيد ذهب ذات مرة للقاء أحد الوزراء ولكنه امتنع عنه ، فهجاه بقوله : <sup>(٢)</sup>

أتيناك لاسن حاجة عرضت لنا      إليك ولا قلب إليك مشوق

<sup>(١)</sup> البيان المغرب ص ١٤٧ ( طبعة ليفي بروقتسال ) .

<sup>(٢)</sup> جدوة المقتبس ص ١٢٣ . ديوان ابن شهيد ص ٨ .

ولكننا زرننا بفضل حلومنا حماراً تلقى برنا بعقوق

وتذكر الروايات أن العداء تفاقم بين ابن شهيد وبين وزيرين أحدهما يدعى أبا الحسن بن علي والآخر هو ابن فتح ، وقد هجاهما ابن شهيد هجاء مرأ واصماً إياهما بالوقوع في خلة اللواط ، ملوحاً إلى ذلك بكلمة القرد ، وفي ذلك يقول : <sup>(١)</sup>

هلاسترت الشين بالزين	من قبل إحضار الوزيرين ؟
قد علما أنهما أحضرا	لخلوة أثقل من دين
لما تدانت قاب قوسين	أصابهما الحاسد بالعين
فانصرفا مثل انصراف الفتى	أسلم إلفاً ليد البين
صدهما عن قردك المصطفى	نطحه نطاح بروقين
وما أرى الناس على ما مضى	من قبله قرداً بقرنين
أربعة في مجلس جمعوا	فطار همدان بهديين
قد لزما جنبك لم يبرحا	لهفى على ضيعة جنبين
فأنت ما بينهما جالس	جلوس أير بين خصيين

ويهجو ابن شهيد الوزير ابن فتح في قطعة نثرية ملوحاً بكلمة القرد مرة أخرى إلى تلك العادة الذميمة التي رماه بها فيقول : <sup>(٢)</sup> " ما كان هذا القرد أهلاً لأن يحمل عليه حر كلام ، ولا ليرمى بفضل بيان ، وبالحرأ أن يرقم على عتبة دكان ، أو يصور على باب حمام ، وقد غرس في وجعائه رأس نخلة ، وحيى في سعفها عش نخلة "

ويعد ابن سهل اليكى أحد الشعراء الذين أكثروا من هجاء الوزراء . كقوله في ابن خيار الوزير : <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> الذخيرة ١ / ١ / ص ٢١٤ ، ديوان ابن شهيد ص ١٦٤ .

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن شهيد ص ٣٤ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١٢٢ .

أيا ابن خيار بلغت المدى      وقد يكسف البدر عند التمام  
فأين الوزير أبو جعفر<sup>(١)</sup>      زأين (المقرب) عبد السلام<sup>(٢)</sup>

وقد أولع إليكي بهجاء وزير يدعى أبا الحسن وأفحش كثيراً في هجائه  
كقوله : <sup>(٣)</sup>

ثمان خصال في الوزير وعرسه      وثنان والتحقيق بالمرء أليق  
(.....)<sup>(٤)</sup> وتزنى فعلها مثل فعله      فإن لاط يوماً فهي لاشك تسحق  
ويكذب أحياناً ويحلف حانثاً      ويكفر تقليداً ويزنى ويسرق  
وعاشرة والذنب فيها لأمه      إذا ذكرت لم يبق للشم منطلق

وأفحش في هجائه مرة أخرى فقال <sup>(٥)</sup> .

أخاف من الجوارح أن يلموا      ومالي بالجوارح من يدين  
فإما تدخلوني حرح أسما<sup>(٦)</sup>      فأقلب كل ذي نظر وعين  
وإلا فارفعوني إن قدرتم      على قرن الوزير أبي الحسين

وكان الفحش والإقذاع والتشهير هي الصفات الغالبة على هجاء الوزراء  
فأكثر الشعراء من رميهم بالفسوق ، واتهامهم بأهلهم بارتكاب الأفعال القبيحة ،  
على نحو ما رأينا في هجاء ابن شهيد واليكي ، وقد شارك الأعمى المخزومي  
في هذا الاتجاه ، فقال يعرض بأبناء أحد الوزراء : <sup>(٧)</sup>

زنجيكم بالفسوق داري      يدلى من الحرص كالحمار  
يخلو بنجن الوزير سرأ      فيولج الليل في النهار

<sup>(١)</sup> هو أبو جعفر بن عتبة الذي أمر عبد المؤمن بن علي بصلبه .

<sup>(٢)</sup> هو عبد السلام الكومي الملقب بالمقرب ، أحد وزراء الموحدين ، وقد مات مسموماً .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١٢٢ .

<sup>(٤)</sup> حذفنا الكلمة الصريحة لقبحها ، وهي بعيقة المضارع المبني للمجهول ويمكن فهمها من السياق .

<sup>(٥)</sup> حريده القصر ٣ / ٥٨٠ .

<sup>(٦)</sup> أسماء هي زوجة الوزير .

<sup>(٧)</sup> السعرب ١ / ٢٣١ .

ولابن الخطيب قصيدة طويلة في هجاء الوزير ابن أبي الفتح ، نظمها بعد جلاء هذا الوزير في الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد أن تحقق من هلاكه هو ومن معه ، وقد بدأها ابن الخطيب بقوله <sup>(١)</sup>

لا يقبل الدهر عذر معتدر	كن من صروف الردى على حذر
فأنت في قلعة وفي سفر	ولا تعول فيه على دعة
وكل أمن بدعو إلى غرر	فكل رى يفضى إلى ظمأ
بال عليه زمانه وخرى	كم شامخ الأنف ينثنى فرحاً

وبعد هذا التمهيد يخلص ابن الخطيب إلى هجاء ابن أبي الفتح ، فينسب إليه كل منقصة ، ويرميه بالبلادة والشؤم كقوله : <sup>(٢)</sup>

قل للوزير البليد قد ركضت	في ربك اليوم غارة الغير
يا ابن أبي الفتح نسبة عكست	فلا بفتح أنت ولا ظفر
وزارة لم يجسد مقلدها	عن شئها في الوجود من وزر
في طالع النحاس حزت رببتها	وكل شيء في قبضة القدر

وتقترب طريقة ابن الخطيب في هذه القصيدة من النزعة الشعبية سواء في أسلوبه أو في ألفاظه وصوره ، فهو يكثر من ألفاظ الشتم والسباب مستخدماً حرف النداء ( يا ) بكثرة كقوله : <sup>(٣)</sup>

يا طللا ما عليه من عمل	يا شجراً ما لديه من ثمر
يا مفرط الجهل والنباوة لا	يحسب إلا من جملة البقر
يا دائم الحقد والفظاظة لا	ينرق ما بين ظالم وبرى
يا كمد اللون ينظفي كمداً	من حسد يستطير بشرر

ويتأنق ابن الخطيب في هجائه للوزير ابن أبي الفتح ، ويعمد إلى ( التصوير الهزلي ) فيصوره في صورة هزيلة ساخرة تستدعي الضحك ، كقوله : <sup>(٤)</sup>

(١) نفع الطيب ٥ / ١٤٠ .

(٢) نفعه ٥ / ١٤٠ .

(٣) نفع الطيب ٥ / ١٤١ .

(٤) نفعه ٥ / ١٤١ .

ملآن من رديبة ومن قدر  
ل ورب الضراط فى السحر  
ل ومجرى اللسان بالهدر  
حديثه ، يا ابن فاسد الدبر  
مجتهد السير مغمض البصر  
فبارحى الشؤم والسيواردر  
مد لوقع المهند الذكر

يا عدل سرج يادن مقتعد  
يا واصلا للجشاء ناشنة اللي  
يا ناقص الدين والمروءة والعف  
يا ولد السحق غير مكنتم  
يا بغل طاحونة يدور بها  
فى اشهر عشرة طحنتهم  
عهدى بذاك القفا الغليظ وقد

وعلى هذا النحو يمضى ابن الخطيب فى هجائه ، رامياً المهجو بأقذع الصفات ، مظهراً الشماتة لهذا المصير المؤلم الذى لقيه ابن أبى الفتح حين مات غرقاً .

### هجاا الولاة والعمال :

كان الولاة والعمال من أهم الركائز التى يعتمد عليها الحكام فى تسيير دفة الحكم ، وكان على هؤلاء العمال أن يديروا أعمالهم على أسس من العدالة والنزاهة وطهارة اليد ، ولكن كثيراً منهم انحرف عن مهمته المنوط بها ، فاستخدموا أساليب القسوة والغلظة فى معاملة الناس ، ولم يتورعوا عن ارتكاب الموبقات ، واتجهوا إلى تكديس الأموال بالطرق غير المشروعة ، وتصدى الشعر لهؤلاء المنحرفين ، فكشف عن فسادهم ، وفضح أساليبهم الملتوية ، فمن ذلك قول ابن حزمون فى هجاا المجريطى أحد عمال مرسية يتهمه بالنهب وسرقة أموال الدولة :<sup>(١)</sup>

حريصاً على كسر المخازن حافزا  
فواها لمن أضحى كقارون كانزا  
وجوز مالهم يجعل الله جانزا

إلى الله أشكو مشرباً إلى الغنى  
ألا إن قارون استعز بكـنزه  
فما باله استغنى فنهـنه واجباً

(١) النذيل والتكسلة ١ / ٥ / ١٤٤ .

ويعبر يحيى بن الحكم الغزال عن نظرة الناس عامة لأولئك العمال ، فهم يأكلون أموال الناس ، ويستأثرون بالخيرات لأنفسهم ، ولا يتركون للرعية إلا الفتات ، يقول :<sup>(١)</sup>

يقول لنا القاضي ( معاذ ) مشاوراً  
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً  
يدق خلاياها ويأكل شهدها  
وولى أمراً فيما يرى من ذوى الفضل  
فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل  
ويترك للدبان ما كان من فضل

ويصوب أبو محمد بن عبد الله سهامه إلى صاحب إشبيلية ، فيقول :<sup>(٢)</sup>

لا تباسن من الخلافة بعدما  
تبا لدهر هذه أفعاله  
ولى ابن عمرو خطة الأشراف  
يضع النوافج فى يدي كناف

ويتجه ابن القزاز بهجائه إلى صاحب الشرطة ويتندر عليه فيقول :<sup>(٣)</sup>

أبنا عامر ماذا أتيت من العار  
تبدلت شرطياً بصاحب شرطة  
فأصبحت كالطرطور كان لسيد  
فها أنت من ثوب العلافى الورى عارى  
كريم نجار النفس ممتنح الجار  
فأخلق حتى صار فى رأس عيار

ويقول حبلاص الرندى فى هجاء أحد الولاة :<sup>(٤)</sup>

لا تفرحن بولاية سوغتها  
فالثور يعلف أشهراً كى يدبها

ويحتفظ صاحب خريدة القصر بغير قصيدة لأبى عامر بن الأصيلي فى هجاء

عمال ابن ذى النون ورؤساء حصونه ، فمن ذلك قوله :<sup>(٥)</sup>

قل لابن ذى النون الرئيس الذى  
يا مالكا يجعل قواده  
جاءوا على الشرق جياعاً فما  
ليس له شىء من البخت  
قوماً غدوا عليه باللفت  
يشبههم شىء من السحت

(١) قنادة قرطبة ص ٨٦ .

(٢) نفع النيب ٤ / ٤٦٥ .

(٣) الدخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .

(٤) نفع النيب ٤ / ١٣٣ .

(٥) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

من كل حنراث له لحية  
إن صار فى حصن رأى أنه  
يحسد فرعون على قوله  
ما هذه الأشباح تبا لها  
هيهات لا حر ولا حرة  
تدهن بالشحم وبالزيت  
قد أدخل العالم فى تخت  
" وهذه الأنهار من تحتى "  
قد ملئت بالسفاه البحت  
فى باب إقليش إلى البونت

ويبدو أن ابن الأصيلى قد مر بتجربة مريرة مع رؤساء الحصون ؛ ففي  
قصيدة أخرى يذم رؤساء جزيرة شقر لأنهم منعه من دخول المدينة : <sup>(١)</sup>

حللت الجزيرة سحفاً لها  
منعت الدخول إلى أهلها  
وبت ثلاثاً بها طاوياً  
فقل لابن ذى النون ما باله  
وإن فعال بسنى آدم  
كأنى حللت بسرديبه  
فدرت كما دارت الساقيه  
قراى همومى وأحزانيه  
يولى الحصون بنى الزانيه  
لتبقى وأشخاصهم فانيه

وفى قصيدة ثالثة يذم ابن الأصيلى رئيس حصن بلنسية للسبب نفسه  
ويتصف هجاؤه بالدعابة والسخرية كقوله : <sup>(٢)</sup>

حتى إذا رمت دخولا أبت  
راسلته مستنزلاً راعباً  
أكرم به من قائد ماجدٍ  
لابسنى لى إن عشت والله أن  
نفس أبى الحجاج لى بالدخول  
فكاد أن يقطع رأس الرسول  
يصلح للحرث ورعى العجول  
أخرى على لحيته أو أبول

وهذه الأمثلة التى أوردناها لابن الأصيلى تكشف عن روح مرحة ، ونفس  
طبعت على الخفة والدعابة .

<sup>(١)</sup> خريدة القصر ٢ / ٢٠٩ .

<sup>(٢)</sup> نفس ٢ / ٢٠٩ . ٢١٠ .

## هجاء القضاة :

يحتفظ ( الخشني ) بصورة مشرقة لكثير من قضاة الأندلس الذين عرفوا بالنزاهة ، وشهروا بالتقوى والورع ، غير أن بعض القضاة حادوا عن الجادة فلم يتخرجوا من قبول الرشوة سعياً لتحقيق كسب رخيص ، وتهاون بعضهم في إقامة الحدود . ومال آخرون إلى القسوة والغلظة في معاملة الناس ، وقد تصدى الشعراء لأمثال هؤلاء القضاة ، فأكثروا من هجائهم وتتبع زلتهم وانتقاد تصرفاتهم المخزية ، فمن ذلك قول اليكبي في أحد قضاة مرسية :<sup>(١)</sup>

تسمع أمير المسلمين لنبأه	تصم لها الأذان في كل مشهد
بمرسية قاض تجاوز حده	وأخطأ وجه الرشد في كل مقصد
يطلبه الأيتام في جل مالهم	ويطلبه في حقه كل مسجد
فما بيضت كفاك بالعدل لم تنزل	تسوده بالجور كف ابن أسود

ويتهم ابن القطان ( ت ٥٥٨ هـ ) القاضي ابن المرخم بالجهل في تطبيق الأحكام فيقول :<sup>(٢)</sup>

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً	خرف الزمان تراه أم جن الفلك
إن كنت تحكم بالنجوم فربما	أما بشرع محمد من أين لك ؟

ويتهم يحيى بن الحكم الغزال القاضي يخامر بن عثمان الشعباني بالتخبط في تطبيق الأحكام فيقول :<sup>(٣)</sup>

فقلت له كلفتني غير صنعتي	كما قلندوا فضل القضاء يخامرا
فأصبح قد حارت به طرق الهوى	يكابد لجيا من البحر زاخرا
فقلت له استعفيت منها ، فقال لي	سأفصح ما قد كان ذاك مغايرا
فقلت له رأس الفقوح إقامبة	علينا كذا من غير علم مكابرا
وخبطك في دين الإله على عمي	خباطة سكران تكلم سادرا

<sup>(١)</sup> المغرب ٢ / ٢٧٠ .

<sup>(٢)</sup> فتح العليب ٢ / ١٣٥ .

<sup>(٣)</sup> الممتس ( تحقيق د. مكى ) ص ٢٠٠ .

فلن تحمل الصخر الدباب ولن ترى السـ      سـلاحف يزجين السفين المواخرا

وكلف عبد الرحمن بن مغاور الشاطبي ( ت ٥٨٧هـ ) بهجاء قاض يدعى  
( ابن بيش ) ، فتحول عنده إلى أمثلة ، وأسرف في التشهير به ، والتهكم  
عليه ، واتهمه بتعطيل الحدود وتزييف الأحكام ، وتحليل ما حرم الله ،  
والعكوف على الخمر ، والجري وراء مصالحه الخاصة ، فمن ذلك قوله : <sup>(١)</sup>

لا تظنوا ابن بيش      في قضاياه يرتشى  
إنما الشيخ هـلـهـل      فهو يصحو وينتشى  
فترى الحكم غدوة      وترى النقض بالعشى

ويتندر عليه مرة أخرى فيقول : <sup>(٢)</sup>

الحمد لله بلغنا المنى      لا حد في الخمر ولا في الفنا  
قد حلل القاضي لنا ذاوذا      وإن شكرناه أحل الزنا

ويبالغ في التشهير به فيقول : <sup>(٣)</sup>

قال ابن بيش المشهور موضعه      قولاً يعناب عليه آخر الأبد  
الخمر والزمر والفحشاء أجمعها      حل وبل وتبقى خطى بيدي

ومال بعض الشعراء في هجائهم للقضاة إلى الإقذاع كما نجد في هجاء  
المخزومي الأعمى لقاضي بياسة ، فهو يستغل أحد عيوبه الخلقية استغلالاً  
سيئاً ، فيقول : <sup>(٤)</sup>

أصخ للذي لم يأت دهر بمثله      لعمري ولم يسمع به قط سامع  
لبياسة قاض قطيم مثولل      ثواليله من أن ( ... ) موانع  
فراحته في أن يرى ( ... ) عرسه      كذي العر يكوى غيره وهو راتع <sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ٨١ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٨١ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ص ٨١ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ص ١١٧ .

<sup>(٥)</sup> الشعر الثاني من هذا البيت للناطقة الديانية .

وقد وقف بعض القضاة من شعراء الهجاء موقفاً حازماً ، فعندما هجا أبو بكر ابن الحاج القاضي ابن توبة ، أتى به القاضي ، وضربه ضرباً موجعاً وأمر فطيف به على الأسواق ، والناس يصيحون به من أمام . ويضربونه من خلف ، وأشار أبو إسحاق الإلبيري إلى هذه الحادثة معبراً عن تشفيه وغبطته للعقاب الذى ناله ابن الحاج ، فقال : <sup>(١)</sup>

ومن نباح سفیه بالأباطیل	السوط أبلغ من قال ومن قيل
يعقل المستعاطى أى تعقيل	مر المذاق كحر النار أبرد
فى برء كل سخيف العقل مخدول	رأى من الطب ما بقراط لم يره
أعدى وأطغى من التماسح فى النيل	ضئيل جسم تهاب الخيل سطوته
لو كان أثقل أو أجسامن الفيل	يرقص المرء ترقيصاً بلا طرب
فقد رمى تحته ما عد بالفول	عند السخيف به خبر وتجربة
جشته شر الجشامن شر مأكول	وقد حسامنه أمراقاً مغلغلة
لا يشبه الشعر فى نظم وتفصيل	وقد هجاه بهجوم مؤلم وجع
أذكر قيامك محلول السروايل	فقل له إن جرى هجو بخاطره
فى السادة القادة الشم البهاليل	واذكر عقوبة ما زورته سفهاً

وقد شارك النثر أيضاً فى هجاء القضاة ، فهناك رسالة لأحد الكتاب كتبها على لسان على بن يوسف بن تاشفين ساخراً فيها من القاضي ابن أضحى الغرناطى بعد أن عزله عن قضاء المرية ، متهماً إياه بالجهل بأحكام القضاء وفيها يقول : <sup>(٢)</sup> " ... وتقرر لدينا أن الجهول بن أضحى أجهل بأحكام القضاء من الهلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبذناه دون أن تداركه نعمة من ربه بالعراء وهو مذموم ، ولعل متعسفاً يتعسف ، وجائراً لا ينصف ، يلومنا فى تقديمه . وينالنا من العتب بأليمه . ولا قدح فقد اختار رسول الله صلعم لوحى الله لعين بنى سرح ، وقد اغتر عثمان بحمران . ولسنا أول من خانته القياس ، ومن لم يأت من الغوير باس " .

<sup>(١)</sup> ديوان الإلبيري ص ١٠٩ - ١١٠ .

<sup>(٢)</sup> نغم السلى ورقة ١٢١ - ١٢٢ .

## هجاء الفقهاء :

بلغ الفقهاء منزلة عزيمة في الأندلس ، وقوى نفوذهم في فترات كثيرة حدث ذلك في قرطبة أثناء حكم هشام ، فكانوا يتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، وحين حاول عبد الرحمن الثاني أن يحد من سيطرتهم ، هاجموا من على المنابر ، وألبوا الناس عليه ، واتهموه بالإسراف والبذخ ، فحرض الحكم الشعراء على هجائهم ، فكان ممن هجاهم عباس بن فرناس ، والحكم بن يحيى الغزال الذي اتهمهم باستغلال نفوذهم ، وجمع المال بطرق غير مشروعة فقال : <sup>(١)</sup>

لست تلقى الفقيه إلا غنياً	ليت شعري من أين يستغنونا
تقطع البر والبحر طلاب الرز	ق والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضرباً غاب عنا	لم يصب قصد وجهه الراكبونا

وأشار الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته إلى احتفاء الأندلس بالفقهاء فقال : <sup>(٢)</sup> " ولم تنزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، واليهم كانت الأمور معروفة ، إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده .. وكان منهم أصحاب الأمر والنهي إلى جانب الحكام أنفسهم ، كما كانت الحال في قرطبة أيام بني جهور ، وكذلك كانت شئون دولة بني ذى النون بطليطلة موكولة إلى الفقيه أبي بكر الحديدي ، كما ان بلنسية أسلمت أمرها في إحدى مراحل تاريخها إلى القاضي ابن حجاف " ، وأشار ابن الخطيب إلى إيثار بني عامر للفقهاء فقال عن زهير العامري : " إنه كان يشارو الفقهاء ويعمل بقولهم " <sup>(٣)</sup> كما ذكر أن مجاهداً العامري نصب بحل ملكه خليفة دعا الناس إليه وهو الفقيه المعيطي ، ... ، وكان في عداد الفقهاء

<sup>(١)</sup> شعر يحيى بن الحكم الغزال ، جمع صالح البيداني ، ص ٣٦ .

<sup>(٢)</sup> مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧ - ١٨ .

<sup>(٣)</sup> أعمال الاعلام ص ٢٠٦ .

المشاورين بقرطبة ، فنصبه خليفة وأخذ له على الناس البيعة ، فاستبد المعيطى باناس ، واستأثر بالفى ، وجاهر بالمعاصى ” .

وارتفع شأن الفقهاء أيضاً فى عصر المرابطين ، وكثرت أموالهم ، وأشار إلى ذلك المراكشى فقال - وهو يتحدث عن ولاية على بن يوسف بن تاشفين :

” واشتد إيثاره لاهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم . وأحكامهم - صغيرها وكبيرها - موقوفة عليهم ، طوال مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، وانصرف وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك ، واتسعت مكاسبهم ”<sup>(١)</sup>.

وقد أثار وضع طبقة الفقهاء انتقادات عنيفة ، سواء من المؤرخين أو الأدباء ، وإذا كان المراكشى قد ألمح إلى ما غنموه من مكاسب ، وما شغلوا به أنفسهم من جمع للأموال على حساب ضمائرهم . فإن مؤرخاً سابقاً عليه - هو ابن حيان - قد أعلن رأيه صراحة فيهم ، فألقى بالتبعة عليهم ، واتهمهم بالرياء ومصانعة الأمراء ، ورماهم بالقعود عن الحق ، والتخبط فى الأهواء فقال : ” ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا فى صنفين ، هم كالمح فىهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يفسدون ؛ فقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا ، بما لا كفاية له ، ولا مخلص منه . فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الصريق زياداً عن الجماعة ، وجرياً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكده الله تعالى عليهم . من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من

<sup>(١)</sup> السحب من ٢٣٥ .

حلوائهم ، وخابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، آخذ في التقية في صدقهم " (١) .

وقد اشتد هجاء الفقهاء في عصر المرابطين بعد أن أحس الشعراء بارتفاع شأنهم أكثر من أي وقت مضى ، وبعد ما رأوه من تكالبهم على جمع الثروات ومصانعتهم للحكام ، وانصرافهم عن مصالح الناس ، واستغلال نفوذهم في تحقيق مآربهم الخاصة ، فقال فيهم أبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالابيض: (٢)

أهل الرياء لبستم ناموسكم  
فملكتم الدنيا بمذهب مالك  
وركبتم شهب البغال بأشهب (٣)  
كالدنوب يدلج في الظلام العاتم  
وقسمتم الأموال بابن القاسم (٤)  
وبأصبغ (٥) صبغت لكم في العالم

وقال فيهم ابن خفاجة : (٦)

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم  
وتزهدوا حتى أصابوا فرية  
فيها صدور مراتب ومجالس  
في أخذ مال مساجد وكنائس

ومن الطريف أن نجد بعض الفقهاء يقحمون أنفسهم في معارك هجائية مع بعض الشعراء ، فقد ذكر أن الفقيه ابن ميمون القرطبي كان يتهاجى مع ابن سهل اليكى ، ومما قال له فيه اليكى : (٧)

قالوا : هجاك ابن ميمون فقلت لهم  
قالوا الفقيه الذى من أرض قرطبة  
يا ليت شعرى من الهاجى فأدر به  
قلت : الفطيم ؟ فقالوا كلهم : إيه

(١) نفع الطيب ٦ / ١٩٦ .

(٢) نفع الطيب ٣ / ٤٤٨ .

(٣) هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم تلميذ الإمام مالك توفي ١٩١ هـ .

(٤) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيس الفقيه كان صاحب الإمام مالك وتوفى ٢٠٤ هـ .

(٥) هو أصبغ بن الفرج . فقيه من كبار المالكية بمصر توفي ٢٢٥ هـ .

(٦) نفع الطيب ٤ / ٢١٨ .

(٧) المن بالإمامة ص ٢٢٧ . ٢٢٨ .

ويقتذع المخزومي الأعمى في هجائه لأحد الفقهاء فيقول :<sup>(١)</sup>

بأق على عهد الصديق مقيم	طبنكم هذا الفقيه محقق
والله يعلم أنه مظلوم	شهدت عليه باللواط جماعة
وبسرني أن الفقيه قطيم	ساء الفقيه بأنني متخلع

---

راد السفر ص ١١٨ .

## الفصل الثالث

### هـاء العلماء وأصحاب المهـن

- هـاء المعلمين والمؤدبين
- هـاء النحاة
- هـاء الفلاسفة
- هـاء أصحاب العلوم الطبيعية
- هـاء الكتاب



حمل الشعراء على طائفة من العلماء عرفوا بالتعصب المقيت ، والتزمت  
 البغيض ، ومالوا إلى الجدل العقيم الذي لا فائدة منه ، ولا طائل من وراءه فلا  
 تجرى على ألسنتهم غير كلمات عفنة تنبئ عن جمود وقصور ، وقد أشار منذر  
 ابن سعيد إلى هذا الصنف من العلماء فقال : <sup>(١)</sup>

عديري من قوم يقولون كلما فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب فإن زدت قالوا قال سحنون مثله إن قلت قال الله ضجوا وأكثروا وإن قلت قد قال الرسول فقولهم	طلبت دليلاً هكذا قال مالكُ وقد كان لا تخفى عليه المدارك ومن لم يقل ما قاله فهو آفك وقالوا جميعاً أنت قرن مماحك أنت مالكاً في ترك ذاك المسالك
---	--

ويسخر عبد المنعم بن مظفر الغساني الجلياني من أولئك الذين يتظاهرون  
 بالعلم ، ويلجئون إلى السفسطة الجوفاء ، ولا تتردد على ألسنتهم إلا كلمات  
 بلهاء تدل على جهل وقلة إدراك ، يقول : <sup>(٢)</sup>

يا ساهراً في اقتناء علم بدون هذا ترى فقيهاً والبس مع الشهب طيلساناً واجلس مع القوم في جدال إلا صياحاً ونقض كـم فما أرى عندهم علوماً	يخطب منه مقام محكم فوسع الحكم ثم عمم واغمده في المتكبين واختم لا بالببخاري ولا بمسلم ونظم " لا لا " وقول " لم لم " أكثر من " لا و " لا أسلم "
--	--

وكان ابن شهيد أحد الذين حملوا على هذه الطائفة من المعلمين والعلماء  
 الذين لم يرزقوا إلا بأذهان صدئة ، وعقول عفنة ، وقد وصفهم بقوله <sup>(٣)</sup> :  
 " وقوم من المعلمين بقرطبتنا ممن أتى على أجزاء من النحو وحفظ كلمات عن  
 اللغة ، يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون إلى فطن

<sup>(١)</sup> أدب الفقهاء ص ١٦٧ .

<sup>(٢)</sup> النصوص البائنة ص ١٠٧ .

<sup>(٣)</sup> الذخيرة ١ / ١ / ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حمئة ، وأذهان صدئة ، سقطت إليهم كتب في البديع والنقد فهموا منها ما يفهمه القرد اليماني من الرقص والإيقاع ، والزمر على الألحان "

وإلى هذه الطبقة من العلماء يشير ابن شهيد في قوله : <sup>(١)</sup>

وناقل فقه لم ير الله قلبه      يظن بأن الدين حفظ المسائل

وتبرم الشعراء بالنعاة الذين يتصيدون أخطاءهم ويقفون لهم بالمرصاد فيما

ينظمون ، فهجوهم وسخروا منهم كما نجد في قول أحد الشعراء <sup>(٢)</sup> :

قياس قولهم هذا الذي ابتدعوا	ماذا لقيت من المستعربين ومن
معنى يخالف ما قالوا وما وضعوا	إن قلت قافية بكرة يكون لها
وذاك خفض ، وهذا ليس يرتفع	قالوا : لحنن وهذا الحرف منتصب
وبين زيد فطال الضرب والوجع	وضربوا بين عبد الله واجتهدوا

وكانت أعين الشعراء أشبه بعدسة تلتقط كل ما يقع أمامهم من عيوب ؛

فإذا أخطأ نحوي أو فقيه أو قاري ، تصيد الشعراء هذا الخطأ ، وأبرزوه بطريقة تضمن له الذيوع والانتشار على ألسنة الناس .

### هجاء الفلاسفة :

أنجبت الأندلس عدداً من كبار الفلاسفة أمثال ابن رشد وابن طفيل وابن باجة وغيرهم ، وحظى هؤلاء الفلاسفة بمنزلة رفيعة في عصورهم بيد أنه كان يوجد تيار يناصب الفلاسفة الأعداء ، يتزعمه الفقهاء وبعض رجال الدين ، وكانوا يروجون له في أوساط الدهماء وعامة الناس ، كما كانوا يحاولون تأليب أصحاب السلطة على المشتغلين بالفلسفة . وترددت أصداً هذا التيار واتهموهم بالخروج على مبادئ الدين ، وقد مال بعضهم إلى التعميم في هجائه فلم يصرح بأسماء فلاسفة بعينهم ، بينما مال آخرون إلى التخصيص والتصريح ، على نحو ما نجد في قول بعضهم يهجو مالك بن وهب الفيلسوف وكان علي بن يوسف

<sup>(١)</sup> الدخيرة ٢٠٦/١/١ .

<sup>(٢)</sup> نفع العليب ١٤٤/٤ .

ابن تاشفين قد استدعاه من إشبيلية إلى ( مراکش ) وصيره جليسه وأنيسه مما  
أثار حقد بعض الناس وغضبهم ، فكان مما قيل فيه : <sup>(١)</sup>

دولة لابن تاشفين على      ظهرت بالكمال من كل عيب  
غير أن الشيطان دس إليها      من خباياه مالك بن وهيب

وكان ( ابن جبير ) أحد الذين شنوا حرباً ضارية على الفلاسفة ، فله  
شعر كثير في ذمهم وهجائهم حسبما يذكر عبد الملك المراكشي <sup>(٢)</sup> ، وتدور  
معانيه في هجاء الفلاسفة حول اتهامهم بالمروق والإلحاد وإباحة المحظور ،  
وارتكاب ما ينكره الدين ، وأنهم لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يعلنون  
كفرهم خوفاً من العقاب وإقامة الحدود عليهم ، فمن ذلك قوله : <sup>(٣)</sup>

لأشباع الفلاسفة اعتقاد      يرون به عن الشرع انحلالاً  
أباحوا كل محظور حرام      وردوه لأنفسهم حلالاً  
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا      لصون دمانهم أن لا تسالاً  
فيأتون المناكر في نشاط      ويأتون الصلاة وهم كسالى

وتتسع حملة ابن جبير على الفلسفة لتشمل المشتغلين بها من الأندلسيين  
والمشاركة كابن سينا والفارابي ، فيقول : <sup>(٤)</sup>

قد ظهرت في عصرنا فرقة      ظهورها شؤم على العصر  
لا تقتدى في الدين إلا بما      سن ابن سينا وأبو نصر

ويتهم الفلاسفة مرة أخرى بالخروج عن الدين وادعاء الحكمة وشغل  
أنفسهم بالسفه فيقول : <sup>(٥)</sup>

يا وحشة الإسلام من فرقة      شاغلة أنفسها بالسفه

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٣ / ٤٧٩ .

<sup>(٢)</sup> انظر : الذيل والتكملة ٥ / ٢ / ص ٦١١ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ٥ / ٢ / ص ٦١١ .

<sup>(٤)</sup> نفع الطيب ٢ / ٣٨٥ .

<sup>(٥)</sup> نفع الطيب ٢ / ٣٨٥ .

قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفه

ويرميهم باعتناق مذهب الطبيعة فيقول<sup>(١)</sup>

ضلت بأفعالها الشنيعة طائفة عن هدى الشريعة  
ليست ترى فاعلاً حكيماً يفعل شيئاً سوى الطبيعة

وكانت تهمة ( الزندقة ) إحدى التهم التي ألح عليها الشعراء في هجائهم  
للفلاسفة ، ولهم فيها صور طريفة كقول المخزومي الأعمى :<sup>(٢)</sup>

ما الزنيديق بنى فاعل يدم منى كل ما يحمده  
يلحظني شزاراً إذا مربى كأننى فى عينه مسجد

واتجه الشعراء بهجائهم إلى أهل الفلك والنجوم معبرين عن كراهية الشعر  
لهذه العلوم الجديدة ، فواجهوها بالسخط والعداء واستنكروا الاشتغال بها ،  
وسخروا منها ومن المهتمين بها " وفى هذا المظهر كان الشعر يمثل روح  
المحافظة ، ويقوم بدور الخصم العنيد للعناصر العلمية أو كان حينئذ يعد ضرباً  
من الثقافة العلمية ، كالجغرافيا وإقليدس والمجسطى وعلم النجوم والفلسفة"<sup>(٣)</sup>.

وإذا كان ابن جبير أكثر من حملوا على الفلسفة والفلاسفة ، فإن ابن عبد  
ربه كان أكثر الشعراء عداءاً للفلك والجغرافيا ، فقد سخر من العلماء الذين قالوا  
بكروية الأرض وباختلاف الفصول حسب المناطق المناخية المختلفة واتهمهم  
بالغواية والسخف ، ويعزو الدكتور إحسان عباس موقف ابن عبد ربه إلى ثقافته  
الفقهية فيقول : " وربما بدا لى أن ابن عبد ربه كان أقرب إلى التزمّت منه إلى  
الانطلاق ، فقد أورثته ثقافة الفقهية نظرة محافظة متشددة تنفر من كل جديد  
وتعادى العلوم الدنيوية - إذا صحت التسمية - ويكفى أن نذكر صلته بمسلم  
ابن أحمد بن أبى عبيدة الليثى ، الذى كان عالماً بالحساب والنجوم ، وكيف

<sup>(١)</sup> نقد ٢ / ٣٨٥ .

<sup>(٢)</sup> زاد المسافر ص ١٢٥ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ الأدب الأندلسى ( عصر سيادة قرطبة ) ص ١٢١ .

عابه لاهتمامه بهذه العلوم ، ووصفه بأنه شاذ عن رأى الجماعة ، وتهكم بمعارفه الفلكية والجغرافية ، وأعلمه بأنه لا يصدق ما تضمنته علومه " (١) .

ويتمثل هذا الموقف القائم على كراهية هذه العلوم فى هذه الأبيات التى يسخر فيها ابن عبد ربه من بعض معاصريه من العلماء المشتغلين بالفلك والجغرافيا والحساب على شاكلة ابن أبى عبيدة الليثى وابن موسى ومعاوية بن الشبانس ، فيقول : (٢)

زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا	لابل عطارد أو مريخ أوزحلا
وقلت إن جميع الأرض فى فلك	بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاء للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى فى غوايته	فوعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغى لقولهما	أنى كفرت بما قالوا وما فعلا

ويسخر ابن عبد ربه من المشتغلين بالفلك وعلم النجوم فيقول : (٣)

إذا كان أخو النجم	يسرى الغيب بما ضمه
إلام يطلب الرزق	طلاب العاجز الهمة
وهدى الأرض قد وارت	كنوزاً عدة جمه
فلا والله ما الله	خلق يحسنى علمه

وفى قصيدة الثالثة يسخر ابن عبد ربه من ابن عذراء وابن عباس وأشياعهما من المنجمين الذين تنبأوا بتأخر الغيث ذات مرة ولكن نبوءتهم لم تتحقق إذ سرعان ما هطل الغيث مدراراً ، وفى ذلك يقول : (٤)

قل لابن عذراء السخيف الحجى	زرى عليك الكوكب الناقب
ما يعلم الشاهد من حكمننا	كيف بحكم حكمه غائب

(١) تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - ص ١٨٤ .

(٢) طبقات الأمم للقاضى مساعد ص ٧٤ .

(٣) بهجة المجالس ٢ / ١١٨ .

(٤) نفسه ٢ / ١١٩ .

فقل لعباس وأشياعه  
خانكم كيوان في فرسه  
فكلكم يكذب في علمه  
ما أنتم شيء ولا علمكم  
تعالبون الله في حكمه

كيف ترى؟ قولكم الكاذب  
وغيركم في لونه الكاتب  
وكلكم أصله كاذب  
قد ضعف المطلوب والطالب  
والله لا يغلبه غالب

ويشارك سعيد بن العاصي الروائي ابن عبد ربه في حملته على علماء  
الفلك فيقول :<sup>(١)</sup>

مستحيل أن تدرك الأوهام  
كيف يختار علمه بشري  
لست ممن يقول فيه بجهل  
كل من قال إن للنجم حكماً  
سطر الأولون فيه أساطير  
إذ أرادوا بالسند وبالآر  
خبطوا في أمورها خبط عشواء  
والذي هيمنوا به من قريب  
إنما السبعة الدراري أجرا  
وصفوها بالفهم وهي شخوص  
وحكوا أنها تؤثر في العا  
كذبوا ليس للكواكب نقض  
والذي قاله الأوائل فيها  
إنما سخرت بقدره باريد  
فهى تجرى في رتبة ليس تعدو  
كل يوم تساق فيه إلى العز  
ليس يقضى كيوان أمراً كما قا  
لا ولا الشمس في البروج ولا البد

علم غيب تغيب عنه الأنام  
وهو علم قد حازه العلام  
ما يقول الكندي والنظام  
لم يجز فاعلمن عليه السلام  
رو لم يلهموا الرشاد فهاموا  
كند والزيج روم مالا يرام  
حين ضلت في كنهها الأوهام  
هديان آثاره البرسام  
م ولكن لا تعقل الأجرام  
مالديها فهم ولا إلهام  
لم ، والعالمون عن ذا نيام  
في جميع الوري ولا إبرام  
فهو ما لا يقوله الإسلام  
ها إلى أن يحين منها انصرام  
ها ولا يستحيل فيها النظام  
ب سراعاً كما تساق السوام  
لوا ، ولا المشتري ولا بهرام  
الذي ينجلي به الإظلام  
إنما الأمر للذي خلق الخلق وتمضى بعزمه الأحكام

<sup>(١)</sup> نفسه ٢ / ١٢٠ وما بعدها .

ويلح الشعراء فى هجائهم للمشتغلين بالفلك والنجوم على فكرة واحدة محددة وهى أن الله عز وجل هو وحده المستأثر بعلم الغيب ، وأن أولئك العلماء لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وترددت هذه الفكرة عند ابن عبد ربه وعند ابن العاصى المرأوى ، كما ترددت أيضاً عن عيسى بن قرقمان على نحو ما يبدو فى قوله : <sup>(١)</sup>

لو كان عند النجوم السابحات بما      بجرى على الخلق من أبنائهم خبر  
لم يحتل بدراهم ريب حادثة      بل كان ينجيهم الإنذار والحدرد  
ما كان ينجل منهم عالم ولدأ      فى ساعة ما بها نحس ولا كدر

ولم يقتصر الشعراء فى هجائهم على أصحاب العلوم النظرية ، بل اتجهوا بهجائهم أيضاً إلى أصحاب المهن العلمية كالكيمياء والطب والوراقة وغيرها ، فأبو إسحاق الإلبيرى يعرض بأحد الفقهاء لأنه كان يطلب الكيمياء <sup>(٢)</sup> ، والأبيض - أو الصائغ - يهجو ابن زهر الحفيد والشاح المشهور فيقول <sup>(٣)</sup> :

يا ملك الموت وابن زهر      جاوزتما الحد والنهاية  
تسرفقا بالورى قلسيلا      فى واحد منكما الكفاية

ولدينا زجل لأبى الدباغ فى هجاء أحد الأطباء ، وفيه يقول : <sup>(٤)</sup>

إن ريت من عداك يشتكى من تلطيخ  
وتريد إن يقبر ! حمل للمريخ  
قد حلف ملك الموت بجميع أيمان  
ألا يبرح ساعة من جوار دكان  
ويريح روح ويعظم شأن  
وفساد النيا تحت ذاك الثوب يخ

<sup>(١)</sup> بهجة المجالس ٢ / ١٢٠ .

<sup>(٢)</sup> ديوان الإلبيرى ص ٥٩ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١١١ والأرجح أنهما لابن الصائغ لأن ابن زهر يرد عليه بمقتلعة يتهمد فيها بالزندقة وهى

الأفرب نى مهنة الفلسفة التى كان يشتغل بها ابن الصائغ ( انظر زاد المسافر ص ١١٢ ) .

<sup>(٤)</sup> المغرب ١ / ٤٣٩ .

بقياس الفاسد وبدين الحمروج  
يخد الصفراوى ويرد مفلوج  
للصحيح لس يسمح بمريقة فروج  
ويحيل المحمووم على أكل البطيخ  
وغنى إن طببا فيرد يسعى  
والمنى يطلق فى مروج نرعى  
يسقى ما يسقيه يحتبس فى الأمعا  
احتباس أبدي العار بحال التوبيخ

\* \* \*

قوه تنتقى من عطاءه تنقيا  
ويرى أكباده فى الطسيس مرميا  
تنسبى أنسابا وتقنع ملوبا  
مثل شعر العانا إن خلق بالزرنبيخ

\* \* \*

وفى هذا الزجل يتهم أبو على الدباغ مهجوه بالجهل بأسرار صنعته ،  
وفشله فى مداواة مرضاه ، واللافت فيه روح السخرية والفكاهة الحادة الموجهة ،  
” وفى هذا الزجل تقع على بعض الصورة الطريفة الساخرة ، كصورة ملك الموت  
وهو لا يبرح دكان الطبيب ، ومثل هذه الصورة التى يحيل فيها الطبيب  
الشخص المحمووم على أكل البطيخ ولا يسمح فيها للسليم بـ ” مريقة فروج “  
وهو وصف مستمد من بيئة الزجال بأجوائها المحلية ” (١)

وفى مهنة الوراق والورّاقين يقول ابن سارة الشنترينى : (٢)

أغصانها وثمارها الحرمان      أما الوراق فهى أنكد حرفة  
تكسو العراة وجسمها عريان      شبهت صاحبها كإبرة خانط

(١) الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٦٢٥ .

(٢) فلاند العتيان ص ٢٦٠ .

ويتضح مما أوردناه من أمثلة أن الشعراء لم يصدروا فى هجائهم عن عداة شخصى - فى أغلب الأحوال - بدليل أن ابن عبد ربه كان على صلة وطيدة ببعض هؤلاء العلماء ومع ذلك هجاهم وإنما كان هجاؤهم تعبيراً عن كراهيتهم لهذه العلوم فى حد ذاتها ، ولم تكن هذه الكراهية موقفاً عاماً عند جميع الشعراء ، ولكنها ارتبطت بأصحاب الثقافات الدينية والفقهيّة . وكذلك الحال بالقياس إلى الهجاء الذى وجه إلى المعلمين وغيرهم من العلماء ، فهو ليس هجاءً لأشخاص بعينهم بقدر ما هو نقد أو ذم لبعض الصفات المزريّة كادعاء العلم أو التعصب البغيض أو السفسطة الفارغة .

### هجاء الكتاب :

استأثرت صنعة الكتاب بهجاء كثير من الشعراء وذلك بسبب التنافس التقليدى بين الشعراء والكتاب ، ولم يكن الشعر وحده كافياً لكى يتبوأ الشاعر منصب الوزارة أو غيره من المناصب الخطيرة فى الدولة ، فقد كانت " مهمة الوزارة تتصل - قبل أى شىء آخر - بالكتابة ، فإذا كان الكاتب مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون على مقدرة شعرية ممتازة صح له أن يبلغ مرتبة الوزارة ويكون شعره ميزة تعينه على ذلك ، لكنه لو انفرد بالشعر دون الكتابة لما استطاع أن يبلغ تلك الوظيفة .<sup>(١)</sup>

وقد أثار هذه التفرقة حفاظ الشعراء ، فحملوا على الكتاب ، وتتبعوا عثراتهم وسقطاتهم ، واتهموهم بالجهل وعدم الدراية بصنعتهم على نحو ما نقرأ فى قول عقيل بن نصر :<sup>(٢)</sup>

قلب الزمان فبان بالأداب      ومحارسوم محاسن الكتاب  
وأنى بكتاب لو استخبرتهم      لرددتهم طراً إلى الكتاب

<sup>(١)</sup> تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين ص ٨٢ .

<sup>(٢)</sup> بغية الملتمس ص ٤٣٧ .

ويحتفظ صاحب ( زاد المسافر ) بصورة طريفة لأحد الكتاب الجهلاء - يدعى ( ابن لجين ) - وكان كاتباً للأمير أبي حفص الموحدي ، وأمره ذات يوم أن يكتب في أمر خديم لأحد إخوانه كان وجهه عنه لشغل ، فلما فرغ عنه قال له : اكتب معه إلى مخدمه أنا قد صرفناه بعد أن فرغ مما وجهناه فيه عنه ، فكتب : " وكنا قد استدعينا فلاناً ، فلما قضينا منه وطراً صرفناه إليكم " . فقال له لما وقف عليه : " هل فعلنا به مالا يكتفى ؟ " وقطع عليه الكتاب فكتب في آخره : " فلما قضى نحبه انصرف إليكم " . كما كتب عن مخدم له : " فاشتهدوا " يريد الأمر بالاجتهاد .<sup>(١)</sup>

وكان هذا الكاتب وأمثاله مادة غنية للشعراء ، وفيه يقول أحدهم<sup>(٢)</sup> :

وهل الكتابة يا ابن ألف لنيم وأراك قد سميت نفسك كاتباً حتى كتبت الإجتهد غباوة لو أنني حكمت فيك فنطت ما وجعلت من بمشى وراءك قائلاً يا أيها الشيخ المعظم قدره إحذر - وقاك الله - شدة شؤمه	إلا نتيجة فقرة وقسيم ؟ خلوا من المنثور والمنظوم بالشين معجمة مكان الجيم كتبت يدك بعنقك المخزوم هذا جزاء الكاتب المشؤوم ( والشؤم يهدم سور كل زعيم ) فالكاتب المشؤوم شر خديم
--	--

وكانت صفة ( الشؤم ) هذه إحدى الصفات المعيبة التي يكثر الشعراء من إلصاقها بالكتاب ، فنراها تتردد في هجاء الأعمى المخزومي لابن أبي الخصال كاتب علي بن يوسف بن تاشفين ، وأبرز كتاب عصر المرابطين ، ويبدل المخزومي في هجائه إلى الإفحاش كعادته في هجائه ، فيقول :<sup>(٣)</sup>

طويس الشؤوم يا ابن أبي الخصال ترغب في النقائص والمخازي نكحت حزوراً وسلكت طفلاً	لقد نكبت عن كرم الخصال ونزهدي في المكارم والمعالي ولم تقلع وشيبك في اكتهال
--	--

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ١٣٤ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ١٣٤ .

<sup>(٣)</sup> خريدة التمر ٢ / ٢٥٥ - ٢٥٦ .

ففى وجعك آثار الفياشى كما فى البئر آثار الحبال

ونقع على هذه الصورة المزرية لأحد الكتاب عند ابن صارة الشنترينى إذ يقول :<sup>(١)</sup>

وأغر ينتحل الكتابة خطة عشق السواد فأصبحت أسنانه  
متوقد كالحية النضناض بشرى السواد ببيع كل بياض  
فإذا شحافاه رأيت خافساً بأوين من فيه إلى المرحاض

ولابن شهيد بعض مقطعات فى هجاء الكتاب ، منها مقطعة فى هجاء الكاتب أحمد بن جعفر بن عباس الذى كان وزيراً وكاتباً لزهير الصقلبي خليفة خيران فى حكم المرية سنة ٤٢٥هـ ، وقد اشتهر عن هذا الكاتب مهارته فى كتابة الرسائل ، وغناه الفاحش ، وبخله وغروره ، وحدث أن اجتمع هذا الوزير الكاتب بابن شهيد وبعض رفاقه . ولكنه لم يرض بما جاءوا به على البديهة مما أثار غضبهم ، فهجاه بعضهم فأفحش فى هجائه ، كما هجاه ابن شهيد فقال :<sup>(٢)</sup>

أبو جعفر رجل كاتب تملأ شحماً ولحمًا وما  
مليح شبا الخط ، حلو الخطابه يلىق تملؤه بالكتابه

ويرسم ابن شهيد هذه الصورة الكريهة لكاتب آخر فيقول :<sup>(٣)</sup>

ويح الكتابة من شيخ هبنقة ومنتن الريح إن ناجيته أبدا  
يلقى العيون برأس مخه رار كأنمات فى خيشومه فار

وفى ديوان ابن هانىء نقع على قصيدة يهجو فيها الوهراني كاتب الأمير جعفر بن على المعروف بابن الأندلسية . وكان والياً لمدينة المسيلة . وهى قصيدة طويلة إذ يبلغ عدد أبياتها اثنين وأربعين بيتاً ، بدأها بقوله :<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> الدخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

<sup>(٢)</sup> الإحاطة ١ / ٣٣٨ . ديوان ابن شهيد ص ٤٩ . ٥٠ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة ١ / ١ / ٢٩٦ .

<sup>(٤)</sup> ديوان ابن هانىء ص ٤٠١ .

طلب المجد من طريق السيوف شرف مؤنس لنفس الشريف

وبعد مقدمة تأملية قصيرة يخلص ابن هانيء إلى هجاء الوهراني ، فيرميه بجلافة اللفظ ، وخطل الرأي ، وفساد التأليف والنظم ، ويقول : <sup>(١)</sup>

إن أيام دهرنا سخفات زمن أنت ، يا أبا الجعر ، فيه إن دهرأ سموت فيه علواً إن شأوا طلبته في زمان السـ إن رأياً تدبيره لمعنى إن لفظاً تلوكه لشبيهه كاذب الزعم مستحيل المعاني أنت لا تغتدى لتدبير ملك نلت ما نلت لا بعقل رصين	فهي أعوان كل وغد سخيف ليس من تالد ولا من طريف لوضيع الخطوب ، وغد الصروف سلك عندي ، لشأوبين قدوف بضلال الإمضاء والتوقيف بك في منظر الجفاء الجليف فاسد النظم ، فاسد التأليف إنما تغتدى لرغم الأنوف في المساعي ، ولا برأى حصيف
--	---

ويعرض ابن هانيء بمهجوه ويرميه بتهمة خطيرة هي تحريف القرآن فيقول : <sup>(٢)</sup>

لم أحارب نور الهدى بالدجاجي مثل هذا العميد بالجبب والطاغوت	وحروف القرآن بالتحريف منهم ، والهالم المشغوف
---	---

وطريقة ابن هانيء في هذه القصيدة لا تكاد تختلف عن طريقته في أغراضه الأخرى ، فهو يميل إلى استخدام الألفاظ القوية الطنانة ( قدوف .. جليف .. رجوف .. الجبب .. إلخ ) ولكن حظه من التخيل محدود ، ومعانيه مألوفاً مكررة ، وصوره تفتقر إلى الجدة والابتكار ، فلا نقع على صورة لبا خصائص صور ابن الرومي مثلاً ، ولا نرى في تصويره لشخصية المهجو ما نراه عند شعراء الهجاء البارزين من تفنن وبراعة ؛ ولا نظفر في هجائه بدعابة ساخرة ، أو نكتة عابثة ، أو صورة تخفى وراءها خيالاً خصباً .

<sup>(١)</sup> نفسه ص ٤٠١ ، ٤٠٢ .

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن هانيء ص ٤٠٤ .

## الفصل الرابع

### الهجاء الاجتماعي

- نقمة الفرد على المجتمع
- الرذائل الخلقية
- التصدي لمظاهر الفساد
- هجاء البخلاء
- هجاء الأهل والأقارب
- هجاء المظاهر الحضارية
- هجاء المغنين
- هجاء المدن



الهجاء الاجتماعي ضرب من الهجاء يوجه فيه الشاعر سهامه إلى أمور تتصل بعبادات الناس وطبائعهم وأخلاقهم وصفاتهم ، وهو لا يتناولها بطبيعة الحال من جوانبها الإيجابية أو المثالية ، بل بما فيها من فساد واختلال ؛ فالهجاء سريع النفاذ إلى مواطن العيب والخلل ، ولا يستهويه إلا المثالب ومواضع القصور والنقص ، فيلتقطها بعينه الناقدة ، ويرى فيها مادة غنية بالصور ، فيجمعها ويبرزها للعيان في صورة منفرة تثير الضيق والاشمئزاز .

والهجاء الاجتماعي لا يقف عند حدود الذاتية المطلقة ، ولا يأخذ فقط صفة التشهير كما يرى بعض الباحثين <sup>(١)</sup> ، ولكنه يتعدى ذلك إلى مفهوم أوسع وأشمل ؛ فهو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى النقد الذاتي ، كما أنه يكشف بصورة أو بأخرى عن كثير من جوانب الفساد والقصور في المجتمع .

وتتنوع ضروب الهجاء الاجتماعي ، فهناك ضرب منه يصور نقمة الفرد على المجموع ، وثورته على ما يشهد فيه من اختلال في المقاييس والقيم ، ويرى أحد الباحثين أن هذا الضرب أكثر أنواع الهجاء تعقيداً ، وأعمقها تجربة إنسانية <sup>(٢)</sup> ، وقد راج هذا النوع من الهجاء في العصر العباسي وما تلاه من عصور حيث اقترنت الحضارة بشيوع كثير من الرذائل والمفاسد ، فنقم بعض الشعراء على المجتمع ، ووصموه بالفساد والانحلال ، " واتجه الهجاء إلى ضرب من التشاؤم والسخط على الحياة والمجتمع والناس جميعاً ، بل على الدهر ، ولكنه لم يكن سخطاً إيجابياً عنيفاً ، بل كان سخطاً سلبياً " <sup>(٣)</sup> .

وراج هذا النوع من الهجاء أيضاً في الأندلس . فابن عبدون يرمى أهل عصره بالفساد ، فيرى أن الناس فسدت أبدانهم ، وأنه لا يصلح هذه الأمور إلا نبي ، ويتتبع أوجه الخلل والقصور في مجتمعه ، فيعييب على بعض الناس شرب الخمر في المقابر . وجلوسهم فيها لاعتراض النساء ، ويشير إلى تفشى

<sup>(١)</sup> الشعر في عصر المرابطين والموحدين ص ٢٥٢ .

<sup>(٢)</sup> فن الهجاء لابن حوى ص ٩ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ النقد العربي من القرن الخامس إلى العاشر الهجري . تأليف د. محمد رطلول سلام ، ص ٢٢ .

الفسق وضروب الغش فى السلوك والمعاملات ، وكذلك صنوف الحيل ونقص  
الذمة فى البيع والشراء ، وأخذ الجعائل ، وأخذ الصيرفيين للربا .<sup>(١)</sup>

وينحى ابن عربى باللائمة على الزمان وأهله فيقول : " زمان شر ، قلت  
فيه لقمة الحلال ، وكثر فيه الشره والكلب فى قلوب الناس ، فلا بطن يشبع  
ولا نفس تقنع ، ولا عين تدمع ، ولا دعاء يسمع " .<sup>(٢)</sup>

ولدينا أمثلة كثيرة تمثل سخط الشعراء على الزمان وأهله ، ويمثل ابن  
عبد ربه هذا الاتجاه خير تمثيل ، " فعلى الرغم مما بلغه من مكانة ، ونا شهر  
عنه من تقوى وديانة ، فقد كان - فيما يبدو - ضيق العطن ، حاد الطبع  
سريعا إلى الهجاء ، متبرماً بالناس ، كثير الشكوى من الزمان ، سىء الظن  
بالمجتمع ، مسرعاً إلى رؤية السيئات دون الحسنات فى زمانه وأهله " .<sup>(٣)</sup>

إن تجربة ابن عبد ربه فى الحياة دفعته إلى درجة بعيدة من التشاؤم  
والسخط فهو يرى أن الخير قد انعدم فى الدنيا ، وأن أبناءها ليسوا إلا كلاباً  
توزعوها فيما بينهم :<sup>(٤)</sup>

وأيام خلت من كل خير      ودنيا قد توزعها الكلاب  
كلاب لو سألتهم تراباً      لقالوا عندنا انقطع التراب

ويشارك السعيسر ابن عبد ربه رأيه فى إساءة الظن بالناس وفى وجوب  
تحاشيهم واجتنابهم فيقول :<sup>(٥)</sup>

تحفظ من ثيابك ثم صنها      وإلا سوف تلبسها حدادا  
ونيز عن زمانك كل حين      ونافر أهله تسد العبادا

<sup>(١)</sup> ثلاث رسائل أندلسية فى الحسبة ص ٦٠ .

<sup>(٢)</sup> روح القدس فى محاسبة النفس ص ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديرية مجلد ١٤  
ص ٣٥ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرظية - ص ١٨٥ .

<sup>(٤)</sup> العقد الفريد ٢ / ٣٤٢ .

<sup>(٥)</sup> الدجيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٥ .

وظن بسائر الأجناس خيراً وأما جنس آدم فالسبعاد  
ويعلن عبد العزيز على الجذامى (ت ٧٢٥هـ) سخطه على الدنيا وأبنائها  
فيقول :<sup>(١)</sup>

أبناء دنيا لا خلاق لها ما أشبه الأبناء بالأم  
جربتهم وخبرتهم زمناً فتركهم بغضاً على علم  
لكن دهري اضطرنى لهم فصحبهم كرههاً على رغم

أما عبد الواحد الواعظ الإشبيلي (ت ٦٣٧هـ) فيصّب سخطه ولعناته على  
كل من فى الوجود فيقول :<sup>(٢)</sup>

إن كنت تشكو ببرد وقلّة فى البرود  
فادفأ بلعن كثير لكل من فى الوجود

وينقم ابن الخطيب على أهل زمانه الذين لا يقدرونه حق قدره ، ويرى  
نفسه بينهم كحى بين أموات فيقول :<sup>(٣)</sup>

أحى بين أموات ركود ويقظان لدى زمن نؤوم  
أدور فلا أرى إلا نياماً كأنى بين أصحاب الرقيم  
عفت أعلام آدابى وعلمى بهم فبقيت كالرسم القديم

واقترن بنقمة الشعراء على الناس والزمان نقمة أخرى على الأصدقاء  
والإخوان ، فنعوا عليهم خداعهم ومخاتلتهم ، وإضرار السوء لهم ، والتظاهر  
بالحب والولاء على نحو ما نجد فى قول جعفر بن إبراهيم بن الحاج  
اللورقي :<sup>(٤)</sup>

أخ لى كنت آمنه غروراً يسر بما أساء به سرورا  
هو السم الزعاف لشاربيه وإن أبدى لك الأرى المشورا

<sup>(١)</sup> درة الحجال ٣ / ١٣٦ .

<sup>(٢)</sup> اختصار القدح ص ٢١٠ .

<sup>(٣)</sup> التشبيهات ص ٦١٨ .

<sup>(٤)</sup> خريدة النحر ٢ / ١٤٥ .

كما حد الدبال فزاد نوراً

وبوسعنى أذى فأزبد حلماً

ويقول أيضاً : (١)

مدرك حظ سعى إلى أجلى  
يطورها طائر لى أمل  
من خدع جمعة ومن حيل  
وهو يرى أنها يد قبلى

أسهر عينى ونام فى جدل  
دنياه موقوفة عليه فما  
قد لفتت بالمحال فاجتمعت  
كم محنة قد بليت منه بها

ويعبر ابن الخطاب عن سوء ظنه فى الإخوان والأصحاب فيقول : (٢)

وجدتهم كأضغان المنام  
كإخوان التحية والسلام

إذا حصلت إخوانى جميعاً  
فمن أعدته لمهم أمرى

أما ابن عبد ربه فقد آثر أن يبتعد عن أصحابه لأنه أدرك بعد تجربة  
طويلة أن أخاه الحقيقى هو درهمه الذى يقبض عليه بيده : (٣)

مالي أخ غير ما تطوى عليه يدي

قالوا نابت عن الإخوان قلت لهم

وهناك ضرب آخر من الهجاء يدور حول الرذائل الخلقية ، ويصور بعض  
الآفات الاجتماعية كشيوع الزنا واللواط والسرقة ، وميل بعض الناس إلى الكذب  
والبخل ، وغير ذلك من الصفات المستهجنة ، ونمثل لهذا النوع بأبيات أبى  
جريزة محفوظ بن مرعى الشريف التى يعرض فيها بقوم دأبوا على ارتكاب  
الفحشاء فيما بينهم دون مراعاة دين أو حرمة ، وفيها يقول : (٤)

أبستم شيخكم ثوباً من العار  
والأخ قد ينثنى عن كلبه الحار  
والكلب عرس لحاه الله من دار  
فعضموا مثلهم بيتاً من النار

يا دائبين على الفحشاء وبلكم  
الإبن فى داركم صهر لوالده  
ما تحفظون أباكم فى حلاله  
أحييتم سنة دان المجوس بها

(١) نفه ١٤٥ / ٢ .

(٢) التشبيهات ص ٢٧١ .

(٣) العقد الفريد ٣ / ٣١ .

(٤) زاد المسافر ص ١٢٢ .

ويشير المخزومي الأعمى إلى استثناء آفة اللواط في هجائه لابن القصير  
فيقول مضمناً أحد أبيات الشعر الذائعة :<sup>(١)</sup>

حجج بها سوق الفسوق تقوم	لابن القصير مع ابنه وصغيره
فبدا يعاتبه لدا ويلوم	ألقاه يوماً تحت أسود حالك
بيت على مر الزمان قديم	فأجابته متعجباً وجوابه
عار عليك إذا فعلت عظيم	لا تنه عن خلق وتأتى مثله

ويعرض أبو عيسى المربيطرى بأحد الأشخاص المصابين بهذا الداء وقد تزوج  
بإحدى العاهرات ، فيقول :<sup>(٢)</sup>

بعرسه العاهر الهجين	لا تعدلوه على ابتناء
لابد للظبي من قرون	أليس مثل الغزال حسناً

ومن مظاهر الفساد التي تصدى لها الشعراء انتقاد تصرفات بعض رجال  
الدين الذين تخلوا عن أداء واجبهم ، وتساهلوا في الأحكام ، واستحلوا  
المحرمات ، وقد مرُّ بنا أمثلة كثيرة لهذا النوع في هجاء الفقهاء والقضاة ،  
ونمثل لذلك أيضاً بقول أبي بكر بن مغاور الشاطبي :<sup>(٣)</sup>

من الطوال اللحى البيض العنانين	إننا إلى الله ماذا حل بالدين
وغيروا الشرع بالله للدين	باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه
إن الشهود لأعوان الشياطين	أضحت شهادتهم بالزور ناطقة

ويشير عبادة إلى استثناء داء الكذب عند بعض الناس فيقول :<sup>(٤)</sup>

عن حديث لم يكن	مد كنت لا تنفك تخبر
بالكذاب مع اللب	فكأنما غديت طفلاً

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ١١٨ .

<sup>(٢)</sup> المغرب ٢ / ٣٧٨ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ٨٠ .

<sup>(٤)</sup> التشبهات ص ٢٤٨ .

ويحمل ابن خفاجة على طائفة من الناس يتصفون بالجهل والغباء : (١)

دع عنك من لوم قوم لست تخبرهم  
عوج على الدهر هوج غير أنهم  
ويقول : (٢)

يا ضاحكاً ملء فيه جهلاً  
وهنت حساً وهنت نفساً  
أحسن من ضحكك البكاء  
فلا ذكاء ولا زكاء

ومن الصفات الذميمة التي تناولها الشعراء في هجائهم صفة الزهو والكبر عند بعض الناس ، وقد نظم أبو إسحاق الإلبيري قصيدة في رجل يجر ثيابه زهواً وخيلاً ، قال فيها : (٣)

ما عبيدك الفخم إلا يوم يفقر لك  
كم من جديد ثياب دينه خلق  
وكم مرقع أظمار جديد تقى  
لأن تجربته مستكبراً حلك  
تكاد تلعبه الأقطار حيث سلك  
بكت عليه السما والأرض حين هلك

كما أكثر الشعراء من هجاء ثقلاء الظل ، وهي صفة ذميمة لاسيما إذا اجتمعت معها صفات أخرى كالرقاعة والسخف على نحو ما يبدو في قول أبي الحكم بن المظفر : (٤)

وهو على خفة به أبدأ  
يمت بالثلب والرقاعة والـ  
إن أنت فاتحته لتخبر ما  
فنبه إن حل خطة السخف والـ  
واسقه السم إن ظفرت به  
معترف أنه من الثقلا  
سخف ، وأما بغير ذلك فلا  
يصدر عنه فتحت منه خلا  
هون ورحب به إذا رحلا  
وامزج له من لسانك العسلا

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٧٧ .

(٢) نفسه ص ٦٨ .

(٣) ديوان الإلبيري ص ٧٠ .

(٤) نفح العليب ٢ / ١٣٤ .

وبرع الشعراء فى تناولهم لهذه الصفة كما يبدو فى قول أمية بن أبى الصلت الإشبيلي :<sup>(١)</sup>

لى جليس عجبت كيف استطاعت      هذه الأرض والجبال ثقله  
أنا أرعاه مكرها وبقلبي      منه ما يقلق الجبال أقله  
فهو مثل المشيب أكره مرآ      ولكن أصونه وأجله

وكانت صفة ( البخل ) إحدى الصفات التى أكثر الشعراء من تناولها فى قصائدهم ، ومما يوضح كثرة هجاء الأندلسيين بهذه الصفة ما ذكره المقرئ نقلاً عن ابن سعيد فى وصفه لأخلاق أهل الأندلس وعاداتهم فقال<sup>(٢)</sup> : " وهم أهل احتياط وتدبير فى المعاش وحفظ لما فى أيديهم خوف ذل السؤال ، فلذلك قد ينسبون للبخل ، ... ولقد اجتزت مع والدى على قرية من قراها وقد نال منا البرد والمطر أشد النيل ، فأوينا إليها ، وكنا على حال ترقب من السلطان وخلو من الرفاهية ، فنزلنا فى بيت شيخ من أهلها ، من غير معرفة متقدمة ، فقال لنا : إن كان عندكم ما أشتري لكم فحماً تسخنون به فإبنى أمضى فى حوائجكم ، وأجعل عيالى يقومون بشأنكم ، فأعطيناه ما اشتري به فحماً ، فأضرم ناراً ، فجاء ابن له صغير ليصطلى ، فضربه ، فقال له والدى : لم ضربته ؟ فقال : يتعلم استغنام مال الناس ، والضحر للبرد من الصغر ، ثم لما جاء النوم قال لابنه : أعط هذا الشاب كساءك الغليظة يزيدهما على ثيابه ، فدفعت كساءه إلى ، ولما قمنا عند الصباح وجدت الصبى منتبهاً ويده فى الكساء ، فقلت ذلك لوالدى ، فقال هذه مروءات أهل الأندلس وهذا احتياطهم ، أعطاك الكساء ، وفضلك على نفسه ، ثم فكر فى أنك غريب لا يعرف هل أنت ثقة أو لص ، فلم يطب له منام حتى يأخذه كساءه خوفاً من انفصالك بها ، وهو نائم ، وعلى هذا الشئ الحقيق فقس الشئ الجليل " .

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٢ / ١٣٤ .

<sup>(٢)</sup> نفعه ١ / ٢٢٣ .

وكان هذا الحرص الذي أشار إليه ابن سعيد مدعاة لاستثارة قرائح الشعراء ، فأكثرُوا من إلحاق صفة البخل بمهجوِيهم ورسَمُوا لهم كثيراً من الصور الساخرة ، فمن ذلك قول الغزال :<sup>(١)</sup>

قصدت بمدحى جاهداً نحو خالد      أوْمَل من جدواه فوق منانى  
فلم يعطنى من ماله غير درهم      تكلفه بعد انقطاع رجائى  
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة      إذا استخرجت من شدة بكاء

ويصم سعيد بن الفرّج الرشاش مهجوه بهذه الصفة فيقول :<sup>(٢)</sup>

إنك لا تعرف الجميل ولا      تفرق بين القبيح والحسن  
إن الذى يرتجى نذاك لكالحا      لب تيساً من شهوة اللبن  
ويعبر محمد بن شخيص عن خيبة رجائه فيمن قصدهم راغباً فى عطائهم فيقول :<sup>(٣)</sup>

قست بالشعر معشراً فإذا هم      صور الإنسان فى طباع الحمير  
كلما جنتهم لأنشد شعرى      طمعاً من نوالهم باليسير  
فكأنى وضعت فلكة بوق      فى فمى أو ضغطت أنبوب كير

وللمخزومى الأعمى غير قصيدة يهجو فيها بنى سعيد ويرميهم بالبخل ، وقد ذكر ابن سعيد أن جده عبد الملك كان كثير الإحسان له مستحفظاً من لسانه ، وبعد ذلك فما سلم من ذاته ، ومن هجائه فيهم قوله :<sup>(٤)</sup>

لا ترجون بنى سعيد للسدى      فالظل أفيد منهم للسانل  
فلقد مررت على منازلهم فما      أبصرت منها غير بعد منازل  
قوم محبيبتهم بطلعة وافد      وسرورهم أبداً بخيبة وافد

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٠ .

<sup>(٢)</sup> نقد ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

<sup>(٣)</sup> نقد ص ٢٤٢ .

<sup>(٤)</sup> السغوب ١ / ٢٣١ .

وفيهم يقول وقد أسخنوه جوارهم :<sup>(١)</sup>

أبني سعيد قد شقبت بقربكم  
أفنى المدائح فيكم لا وعدكم  
أعطيتهم نزرأ على طول المدى  
ولشد ما عرضتموني للعنا  
فإذا صهلت غدا النهاق مجاوبي  
فليتركوني حيث شئت أسير  
يقضى ، وقلبي فى المطال أسير  
ويقول وغد : إنه لكثير  
فرس عتيق عاشرته حمير  
يارب أنت على الخلاص قدير

واصطنع بعض الشعراء طريقة القدما فى تناولهم هذه الصفة كقول ابن  
المرعزى النصرانى :<sup>(٢)</sup>

نزلت فى آل مكحول وضيئهم  
لا تستضىء بضوء فى بيوتهم  
كنازل بين سمع الأرض والبصر  
لولم يكن لك تطفيل على القمر

وقد نظم الشعراء مقطعات كثيرة فى التندر بالبخلاء سنعرض لها فى  
حديثنا عن هجاء التندر والسخرية .

### هجاء الأهل والأقارب :

اتجه الشعراء الهجاءون إلى هذا الضرب من الهجاء الذى يكشف عن  
بعض جوانب الخلل والقصور فى علاقة الأزواج بزوجاتهم أو الآباء بأبنائهم فهو  
المظهر السلبي لما ينبغى أن تكون عليه الأواصر الاجتماعية التى تقوم على أسس  
من المودة والرحمة ، ونلاحظ أن أغلب نماذج الهجاء التى تتصل بهذا الموضوع  
نظمها شعراء تقوم شهرتهم على فن الهجاء ، كالأعمى المخزومى ، وابن  
حزمون وابن صارة الشنترينى ، وعلى بن بسام وغيرهم .

ونجد بعض هؤلاء الشعراء ينظمون شعراً فى هجاء زوجاتهم ، فنرى ابن  
صارة الشنترينى يهجو زوجته بعد أن طلقها فيثنى على الزمان الذى أسدى

<sup>(١)</sup> نفه ١ / ٢٣١ .

<sup>(٢)</sup> خريدة القصر ٢ / ٩١ .

إليه هذا الصنيع ، ويرميها بالنفاق والخبث ، ويشبهها بالذئبة كما يشبهها بالحية الرقشاء ، فيقول :<sup>(١)</sup>

أما الزمان فرق لي من طلة<sup>(٢)</sup>      كانت تطل دمي بسيف نفاقها  
الذئبة الطلساء عند نفاقها      والحية الرقشاء عند عناقها

وارتبط بهذا الاتجاه - أعنى هجاء الزوجات - اتجاه آخر يرمى إلى هجاء المرأة عموماً والانتقاص من شأنها . وتقوم معانيه على نقيض المعانى التى تداولها شعراء الغزل ، فيذم الشاعر طيف محبوبته بدلاً من أن يمنى نفسه بزيارته ، ويجد فى فتور ألاحظها شيئاً منفراً لأنه أصاب أعضاء جسده بالفتور ويزرى بصفات المرأة ، فيرى أن الجيفة تستقدر رائحة أنفاسها الكريهة ، وأن ما تتخذه من الحلى وأدوات الزينة إنما هى شهادات زور تحاول أن تغطى بها قبحها ودمامتها ، وغالباً ما يصوغ الشاعر أبياته فى أسلوب هزلى وكأنه يتقيل منهج ابن الحجاج شاعر بغداد الذى عرف باتجاهه الهزلى الساخر ، ونستطيع أن نجد هذه المعانى التى أشرنا إليها فى قول محمد بن مسعود - وهو من شعراء الذخيرة :<sup>(٣)</sup>

ما زارنى طيفك يا هذه      فتور ألاحظك ذاك الذى  
وقدك المانس فوق النقا      كم قائل : صفها لنا واختصر  
قيل وزد ، قلت لهم إنها      تستقدر الجيفة أنفاسها  
للحل والغمرة فى وجهها      فقراء شقراء على سمرة

إلا تميت بالألأ يزور  
أعار أعضائي هذا الفتور  
قد فؤادى الهائم المستطير  
ولا تطول ، قلت شمس القدور  
فى سعة مثل الدنا والبحور  
وتجعل الفسومكان البخور  
والطيب والزين شهادات زور  
فهل ترى يا سيدى من فطور؟!

<sup>(١)</sup> الذخيرة ٣ / ٢ / ٨٤٤ .

<sup>(٢)</sup> الطلة : الزوجة .

<sup>(٣)</sup> الذخيرة ١ / ١ / ٥٥٨ ، ٥٥٧ .

ويرسم يحيى بن الحكم الغزال هذه الصورة المزرية لإحدى النساء  
فيقول: <sup>(١)</sup>

جرداء صلعاء لم يبق الزمان لها	إلا لساناً مُلحاً بالملامات
لطمتها لطمه طارت - مامتها	عن صلعة ليس فيها خمس شعرات
كأنها بيضة الشاري إذا برقت	بالمأزق الضنك بين المشرفيات
لها حروف نوات في جوانبها	كقسمة الأرض حيزت بالتخومات
وكاهل كسنام العيس جرده	طول السفار وإلحاح القتودات

ويصور أحمد بن نعيم إحدى النساء تصويراً هزلياً ساخراً يذكرنا بصور ابن  
الرومي فيقول: <sup>(٢)</sup>

كان كلتا صفحتي وجهها	ركبتا من كويتي نافخ <sup>(٣)</sup>
لو كنت نبتا كنت من حرمل	أو أكلت من الكامخ <sup>(٤)</sup>

أما ابن خفاجة فهو يهجو ذلك الصنف من النساء اللاتي يتسترن بالزينة  
والحلي لإخفاء أخلاقهن وطباعهن الرديئة الشاذة ، يقول: <sup>(٥)</sup>

ألا بكى الدر فوق حالية	حلي بها العقد شر ما حلي
ترى بهما ما يمر من خلق	مخبأ تحت منظر يحلي
قد راق مرأى وساء مختبراً	فهل ترى أزهرت بها دفلي

ولم يتورع بعض الشعراء عن هجاء آبائهم وأبنائهم وإخوتهم على شاكلة  
على بن بسام الذي يصفه صاحب الذخيرة بأنه " كان باقعة زمانه ، لم يسلم

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

<sup>(٢)</sup> نفه ص ٢٤٦ .

<sup>(٣)</sup> الكوبة : الطبل الصغير . ولعله أراد بها آلة موسيقية تنفخ بالفم .

<sup>(٤)</sup> الحرمل : نبت كالسم ، يمتنع على الأكلة وفي ذلك يقول طرفة : ( هم حرمل أعياء على كل أكل ) .

والقامخ نوع من الإدام يتعيفه الأعراب ( هامش التشبيهات ص ٢٤٦ ) .

<sup>(٥)</sup> ديوان ابن حناجة ص ١٥١ .

من هجائه أمير ولا وزير من أهل بيته صغير ولا كبير " (١) وقد اشتهر بهجائه المقذع في أبيه وأخيه مما جعل ابن بسام يحجم عن ذكره .

ونجد الأعمى المخزومي يهجو ابنه هجاء حاداً ، فينعتة بجلافة الطبع وكلال الذهن وسوء الخلق ويتندر عليه في أسلوب لاذع فيقول : (٢)

أحيابك الأجلاف ممن يفلح	الحق أبلج ليس أنت وحق من
بملاحة ، لا أنت ممن يصلح	لا تهتدى بفضيلة ، لا ترعوى
وتلج في صمم إذا ما تنصح	يزداد عقلك ما كبرت تناقصاً
لسواهما ما دمت حياً تطمح	أكل وسلح كل حين لا ترى
ولقد تقرر عيونه لو تدبح	أسخت عين المجد يا ابن عميرة

وشارك النثر في هذا النوع من الهجاء ، فأبو عبد الله محمد بن مسعود يكتب رسالة هزلية يتهمك فيها بابنه إذ توجه إلى المغرب ، وقد بلغه خلع عذاره في البطالة والشرب يركب فيها طريقة الجاحظ في السخرية ويحاكيه في رسالة التربيع والتدوير فيقول (٣) : " فأخبرني يا تاجر البحرين ، وسمسار العراقيين ، ودليل الحجازيين ، وخريت الفلاتين ، وابن عظيم القريتين ، أتعس بك من خراج ولاج ، ماض على السرى والإدلاج ... وصف لي موقع الشمس في العين الحمئة ، وكيف كان مخلصك من تلك انبلاد الوبئة ، وكيف رأيت مدينة يونس وجنة إرم ، والبركان المؤنس وجزيرة الغنم ، وكيف كان دكك على المجوس ، بضروب الشعوذة والناموس ... " .

### هجاء المظاهر الحضارية :

إذا كان الشعراء قد أقبلوا على وصف المظاهر الحضارية وتغنوا بها باعتبارها مستحدثات جديدة ساهمت في إسعاد الناس ، وإدخال البهجة إلى نفوسهم ؛ فإن فريقاً آخر من الشعراء لم ترق له بعض هذه المظاهر . فأظهر

(١) الدخيرة ١ / ١ / ص ١٤٣ .

(٢) المغرب ١ / ٢٢٩ .

(٣) الدخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٠ وما بعدها .

إزاءها روح العداة والكراهية . على شاكلة أبى الحسن مختار بن عبد الرحمن  
الرعىنى الذى يصب لعناته على الحمام حىن زاره يوماً فجلس شخص من  
جهال العامة إلى جانبه ، وأساء عليه الأدب ، فقال : <sup>(١)</sup>

الألعن الحمام داراً فإنه      سواء به ذو الجهل والعلم فى القدر  
تضع به الآداب حتى كأنها      مصابيح لم تنفق على طلعة الفجر

وعبر الشعراء عن كراهيتهم لبعض الأطعمة كقول المنفتل فى هجاء  
المرقاس : <sup>(٢)</sup>

لا أكل المرقاس دهرأ لنا      وبل الورى فى قبيح العيان  
كأنما صورته إذا بدت      أنامل المصلوب بعد الثمان

وساك بعض الشعراء مسلك ابن الرومى فى ذم الورد ، فمن ذلك قول ابن  
خفاجة : <sup>(٣)</sup>

الأقل لذات الخال عنى إنى      لأرغب عن خال تطلع فى خد  
وزهدنى فى ذلك الخال نسبة      أراها لخال الخدم من جعل الورد

ونظم الشعراء مقطعات فى هجاء الخدم والعبيد والسقاة ، كقول ابن  
خفاجة فى أسود وجهه فى حاجة فأبطأ : <sup>(٤)</sup>

قبحت من أسود غبى      لا يفهم الوحى حىن يوحى  
أبطأ فى سعيه فحاكى      فى حالتيه غراب نوح

ويقول الأسعد ابن إبراهيم بن بليطة فى ساق أسود : <sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> المغرب ٢٠٧/٢ .

<sup>(٢)</sup> الذخيرة ٢/١ ص ٧٥٨ والمرقاس أو المرقاس نوع من النقانق يدق اللحم ويعرك فى قصه بشيء من الزيت  
ثم يضاف إليه ثلاثة أرباع من الشحم ويحش به المصران ويقلى ثم تصنع له مرقة من خل وزيت . انظر كتاب  
الطبخ ص ٢١ نقلاً عن هامش الذخيرة ٢/١ ص ٧٥٨ .

<sup>(٣)</sup> ديوان ابن خفاجة ص ١١١ .

<sup>(٤)</sup> خريدة القصر ١٦٣/٢ .

<sup>(٥)</sup> الذخيرة ٢/١ ص ٧٩٦ .

يارب زنجى لهوت به  
محدودب قد غاب كاهله  
قد حكم التجعيد لمته  
وإذا سعى بالكأس تحسبه  
وكانه والكأس فى يده  
الشمس عند سناه ممقوته  
فى منكبىه فلا ترى ليته  
فتراكمست فكانها توته  
جعل يدحرج فص باقوته  
نجم رمى فى الجو عفريته

ووجه الشعراء سهامهم إلى المغنين والمغنيات ، وأكثروا من هجاء زرياب ،  
فانقطع لهجائه مؤمن بن سعيد ويحيى بن الحكم الغزال . الذى هجاء هجاء  
مقدعاً أغضب عبد الرحمن الأوسط فأمر بنفيه عن الأندلس ثم عاد وعفا عنه بعد  
توسط أكابر دولته ، وأغلب الظن أن هجاء الشعراء لزرياب يرجع إلى أسباب  
شخصية تتمثل فى حقدهم على المكانة التى حظى بها لدى الحكام ، ومما قاله  
فيه مؤمن بن سعيد : <sup>(١)</sup>

شكوت إليها الشوق لما تحملوا  
وقالت وكف البين تمرى دموعها  
ستصبر أو تبكى من الشوق مثلما  
شكاية محزون من البين حازع  
ونار الهوى تهتاج بين الأضالع  
بكى الخز من إبطى على بن نافع <sup>(٢)</sup>

وقال مؤمن أيضاً فى هجاء زرياب : <sup>(٣)</sup>

تبارك من أذل الخز حتى  
ومن جعل الغوالى سائلات  
تمعك فيه أفواه الكلاب  
على أصداع أسود كالغراب

وقد أفرد الكتانى فى كتابه باباً فى هجو المغنيات . فمن ذلك قول أحد  
الشعراء : <sup>(٤)</sup>

وقبنة تدعى بتفتير  
تبدو بوجه ما رآه امرؤ  
منرثة فى قالب الزور  
إلا تمنى النفخ فى الصور

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٦٥ .

على بن نافع هو زرياب المعنى .

التشبيهات ص ٢٢١ .

ص ٢٤٦ .

كانها والعود فى حجرها  
لكعاء من أحسن حالاتها  
وصيدها الأعراد فى خلوة  
تبأ لها من قينة عقلها  
حاسبة تنسبى بمجدور  
صفع قفاها بالمساوير  
ينسيك من صيد السنانير  
أخف من ريش العصافير

ويمزج إسماعيل بن بدر بين هجائه لبخيل وهجاء مغنية فيقول :<sup>(١)</sup>

تنفس لما لاحظ القوم خبره  
فقلنا له إنا شباع فجد لنا  
فأسمعنا درداء صلعاء رجعت  
فوالله ما أدرى كلاب تهارشت  
وقطب لما لامسته الأصابع  
بعود فما فى القوم غيرك جاع  
بصوت لها تستك منه المسامع  
بحلقومها أم نقتت بى ضفادع

### هجاء المدن :

وهو اتجاه قديم يرجع ظهوره إلى القرن الثانى الهجرى حيث وجد شعر فى هجاء بغداد والبصرة وغيرهما ، وهو مقابل لاتجاه آخر فى مدح المدن<sup>(٢)</sup> ، وكان ظهور هذا الاتجاه فى الهجاء الأندلسى امتداداً لوجوده فى الشعر المشرقى كما كان ظهوره " مرتبطاً بواقع الشعراء وحياتهم الاجتماعية ، فقد فرضت عليهم ظروف العيش أن ينتقلوا من مدينة إلى أخرى ، وكان يحدث أحياناً أن يمر الشاعر بظروف قاسية فى مدينة من المدن ، فيصوب إليها سهام هجائه"<sup>(٣)</sup>.

وقد أكثر الشعراء من هجاء المدن الأندلسية ، فلدينا شعر فى هجاء إشبيلية ومرسية وشاطبة والمرية ورندة وشريش وغيرها ، فمن ذلك قول ابن القاسم البطليوسى فى هجاء إشبيلية .<sup>(٤)</sup>

يا حمص لازلت داراً  
لكل بؤس وساحه

<sup>(١)</sup> نفسه ص ٢٤٥ .

<sup>(٢)</sup> الشعر فى القرن الثانى الهجرى ص ٣١٠ وما بعدها .

<sup>(٣)</sup> الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ص ٢٢٩ .

<sup>(٤)</sup> اختصار القدح المعلى ص ١٥٧ .

ما فيك موضع راحةٍ إلا وما فيه راحة

واتجه بعض الشعراء إلى هجاء مدنهم كما في قول أبي عبد الله بن ياسين الشاطبي يهجو مدينته :<sup>(١)</sup>

شاطبة فـرية ضـينة      ليست لمن أمهامعينة  
تهتضم الطيب اهتضاماً      وتأنف الدهر أن تعينه  
والخبث المحصن تصطفيه      ضداً لما جاء في المدينة<sup>(٢)</sup>

ويلجأ بعض الشعراء في هجاء مدنهم إلى طريقة التلاعب اللفظي بأسمائها أو تصحيف هذه الأسماء لإصاق صفة مستقبحة بها كقول ابن رفاعة في هجاء شريش :<sup>(٣)</sup>

شـريش ما أنت إلا      تصحيف شـريـبين  
فارحل فدينتك عنها      إن كنت ممن تدين  
فقلما ساد فيها      حر ولا ممن يعين

وقد يركز الشعراء في هجائهم للمدن على صفة مذمومة ألصقت بإحدى المدن واشتهرت بها كقذارة سكانها أو عدم نظافة أحيائها أو انتشار الأمراض والأوبئة فيها ، فمن ذلك قول السمسيسر يهجو مدينة ( المرية ) معرضاً بصفة عرفت بها وهي أن مرافقها مجلوبة ، وأن الميرة تأتيها من بر العدو ، فيقول :<sup>(٤)</sup>

بئس دار المرية اليوم دارا      ليس فيها لساكن ما يحب  
بلدة لا تمار إلا بريح      ربما قد تهب أو لا تهب

ويصفها وصفاً مزرياً معرضاً بقذارتها فيقول :<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ١٣٧ .

<sup>(٢)</sup> إشارة إلى الحديث القائل : " المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكبر خبثه " .

<sup>(٣)</sup> المغرب ١ / ٣٠٦ .

<sup>(٤)</sup> نفع "عليب" ٣ / ٣٩٠ .

<sup>(٥)</sup> نفسد ٣ / ٣٩٠ .

قالوا المريرة فيها      نطافة قلت : إليه  
كانها طست نير      وببصق السدم فيه

وقد يهجو الشاعر مدينة من المدن لوحشة انتاتته فيها كقول أبي الفتح بن  
فاخر يهجو مدينة ( رندة ) :<sup>(١)</sup>

قبجاً لـرندة مثلما      قبحت مطالعة الذنوب  
بلد عليه وحشة      ما إن يفارقه القطوب  
ما حلها أحد فيند      سوى بعد بين أن يؤوب  
لم آتھا عند الضحى      إلا وخيل لى الغروب  
أفوق أغصم وساحة      تملا القلوب من الكروب

وقد ينصب هجاء الشاعر على أهل مدينة معينة ، كأن يصفهم بالجبن أو  
الغذالة أو فساد الأخلاق أو سوء الطباع وما إلى ذلك من صفات مستهجنة كقول  
المخزومي الأعمى يهجو أهل مرسية :<sup>(٢)</sup>

على أهل مرسية لعنة      نعم الديار وأربابها  
فما غلقت قط مد فتحت      على فاضل الطبع أبوابها  
كلاب تهر إلى شاعر      وتكشف للشمر أنيابها

ويحتفظ بن بسام بقصيدة لأبي عامر بن الأصيل تعد أطول ما بأيدينا من  
القصائد التي قيلت في هجاء المدن ، وفيها لا يركز الشاعر هجاءه على مدينة  
بعينها ، كما رأينا عند أضرابه من الشعراء ، بل يهجو كثيراً من المدن مثل  
باجه وشلب وشنتمرية وغيرها من مدن الثغور والسواحل التي طاف بها سعيًا  
وراء رزقه ولكنه لم يظفر منها بطائل ، ويعبر عن تجربته المريرة التي صادفها  
في تلك المدن ، ويذم حظه العاثر الذي قدده إليها ، ويلحق الصفات المعيبة

<sup>(١)</sup> المعرب ١ / ٣٣٤ .

<sup>(٢)</sup> راد المسافر ص ١١٨ .

بأهلها ، فيصفهم بأنهم أوغاد . رعاع ، ويرميهم بالخزى والعار ، ويتهمهم  
بالجبن ، والبخل . فيقول : <sup>(١)</sup>

إلى أين الفرار ولا فرار  
أرى الأوغاد يعتمرون دورا  
أجول فلا أرى إلا رعاعاً  
أباحة لا وقاك الله شراً  
أشلب لا جزاك الله خيراً  
أشتمر ية قبحت داراً  
أشلطيش الأغررق وشيك  
أونبة تعدتلك الغوادي  
بلاد عريت من كل خير  
غلطت فزرتها فرأيت قوماً  
نرد على أشعاري ويجفى  
شتوت بها على كره فغطى

ومن لى بالفرار ولا فرار  
ومالي فى بلاد الله دار  
كبارهم إذا اختبروا صغار  
فأهلك أهل مفسدة شرار  
فلا خير لديك ولا خيار  
كؤوس المخزبات بهاتدار  
تموج على لراك به البحار  
ولا هطلت بساحتك القطار  
فملبس أهلها مقنت وعار  
منازلهم وإن عمرت قفار  
رسولى ، والنباهة لى شعار  
على جدى ومعرفتى الغبار

ولم يكتف الشعراء الأندلسيون بهجاء مدنهم بل اتجهوا بهجائهم إلى مدن  
أخرى غير أندلسية ، فنجد أبا الحسن ابن الإمام الغرناطى كاتب الأمير تميم  
ابن يوسف بن تاشفين ينظم شعراً فى هجاء مراكش حاضرة الأندلس خلال  
حكم المرابطين والموحدين ، فيعرض بجوها الكدر ، ومياها الآسنة ، كما يعرض  
بخيانة بعض سكانها . <sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> الذهيره ٢ / ٣ / ٨٦١ .

<sup>(٢)</sup> سج العليب ٤ / ص ١٢ .

## الفصل الخامس

### هجاء التندر والسخرية

- التندر بالمؤدبين والقضاة والنجلاء

- هجاء الذات

- العيوب الخلقية

- الرسالة الهزلية لابن زيدون



نقصد بهجاء السخرية والتندر هذا الضرب من الهجاء الذن لا يصدر فيه الشاعر غالباً عن حقد أو سخط ، وإنما يعمد فيه إلى العبث بأحد الأشخاص وإظهاره في صورة هزلية على سبيل التندر والدعابة والظرف ، وهو لون من ألوان التسلية وإزجاء الفراغ ، وإثبات القدرة على التصوير والإضحاك ، وهو بهذا المعنى نتاج الترف الحضارى .

ويعتمد هذا الهجاء على الطرفة أو النكتة أو الصورة المضحكة ، وقد شاء هذا الضرب من الهجاء فى الأندلس ، حتى لقد رأى الأستاذ غرسية غومس أن الهجاء الأندلسى أصبح آخر الأمر مجرد تصوير فكه لاذع .<sup>(١)</sup>

وقد أعان على ذبوعه أسباب متعددة ، يرجع بعضها إلى البيئة الأندلسية المتحضرة بما شاع فيها من لهو وفراغ وميل إلى الدعابة والتظرف ، كما يرجع بعضها الآخر إلى طبيعة الأندلسيين أنفسهم الذين جبلوا على خفة الظل وكلفوا بالمزاح ، وقد أشار إلى ذلك المقرئ فقال :<sup>(٢)</sup> " ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة فى محاوراتهم وأجوبة بديهية مسكته ، والظرف فيهم والأدب كالغريزة " <sup>(٣)</sup> ، كما أشار إلى هذه الظاهرة الشقندى فى رسالته حين تحدث عن وادى إشبيلية فوصفهم بقوله :<sup>(٤)</sup> " وأحله أخف الناس أرواحاً ، وأطبعهم نواذر ، وأحملهم لمزاح ، بأقبح ما يكون من السب ، فقد مرنوا على ذلك فصار لهم ديدناً ، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه ولا يتلاعن ممقوناً ثقيلاً " .

وتحفل مصادر الأدب الأندلسى بكثير من النوادر والظرف التى تدل على تأصل روح المزح والدعابة عند الأندلسيين ، ولم يخل عصر من عصور الأندلس من شعراء يتصفون بهذه الصفة ، وحظيت فترة الخلافة بطائفة من الشعراء العابثين على شاكلة القلظاء والغزال ومؤمن بن سعيد وابن الشمر . وكان القلظاء

<sup>(١)</sup> الشعر الأندلسى ص ٦١ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٢ / ٦١ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ٢ / ٦١ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ٣ / ٢١٢ .

ذا ولع بالمؤدبين يعبت بهم . وكان الغزال . ومؤمن بن سعيد لا يدعان فرصة من العبت تفوتهما ، وكثير ما يكون ضحاياهما من القضاة أنفسهم " (١)

وكان القاضى ( يخامر ) ضحية عبت هذه الطائفة من الشعراء الذين تندرنا كثيراً بتصرفاته وسخروا مما عرف عنه من بله وغفلة ، فمن ذلك ما أشيع من أنه كان بين سحياته سحاة مكتوب فيها : " ( يونس بن متى والمسيح ابن مريم ) وخرجت السحاة إلى يخامر ، فأمر أن يدعى بهما ، فهتف الهاتف ( يونس بن متى والمسيح بن مريم ! ) فصاح ابن الشمر : نزولهما من أشرط الساعة ؛ ثم أخذ سحاة فكتب فيها : (٢)

دعوت ابن متى والمسيح ابن مريما	يخامر ما تنفك تاتى بفضحة
فإنهما بقى على الأرض فاعلما	بما قلبت حيناً ثم ناداك صانح
وعقلك ما يسوى من البعر درهما	قفاك قفا خربا ووجهك مظلم
ولا مت مفقوداً ولا مت مسلما	فلا عشت مودوداً ولا عشت سالماً

ويذكر الخشنى أن " القاضى يخامر حين ولى القضاء عامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعر ، وصلابة جاوزت المقدار ، فلم تحتل له العامة ذلك ، فسلطت عليه الألسن وكثرت فيه المقالة " (٣) ، وكان يحيى بن الحكم الغزال أكثر الشعراء تندراً بهذا القاضى وذماً له ، ومن شعره فيه قوله : (٤)

فسبحان من أعطاك بطشاً وقوة	وسبحان من ولى القضاء يخامرا
وتهكم عليه فى قصيدة أخرى فقال : (٥)	

لقد سمعت عجبياً	من آبدات يخامر
قرأ عليه غلام	طسه وسورة غافر

(١) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ١١٨ .

(٢) قضاة قرطبة ص ٥٤ - ٥٥ ، المقتبس (تحقيق د. مكى ص ٢٠١) .

(٣) قضاة قرطبة ص ٥٤ .

(٤) نفسه ص ٥٤ .

(٥) المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ٢٠١ .



فأجابه صديقه

لقد صرخت مراراً جمّة عدداً      قبل الصباح وبعد الصباح ناران  
لكن علمتك نواماً وذا كسل      قليل ذكر لجبار السموات

وساعدت حلقات المؤدبين ومجالس الأئس والسمر على انتشار هذا اللون  
من الهجاء الذى يقوم على التفكه والدعابة ، فمن ذلك ما ذكره المقرئ من أن  
أبا عامر التيارى أنشد يوماً فى حلقة أبيات ابن الرومى التى نظمها فى خباز  
وهى :

إن أنس لا أنس خبزاً مررت به      يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر  
ما بين رؤيتها فى كفه كرة      وبين رؤيتها قوراء كالقمر  
إلا بمقدار ما تنداح دالرة      فى صفحة الماء يرمى فيه الحجر

فقال بعض تلامذته : أما أنه لا يقدر على الزيادة على هذا ، فقال :

فكاد يضطر إعجاباً برؤيتها      ومن رأى مثل ما أبصرت منه خرى  
فضحك من حضر وقال : البيت لائق بالقطعة ، لو لا ما فيه من ذكر  
الرجيع ، فقال : <sup>(١)</sup>

إن كان بيتى هذا ليس يعجبكم      فمجلوا محوه أو فالفقه طرى  
ويذكر صاحب ( زاد المسافر ) أن المخزومى الأعمى دخل مرسية فهجا  
بها القاضى أبا محمد عاشراً بقطعة منها :

تأملت تسعة رهط الفساد      فأفويت عاشرهم عاشراً  
فضاق به ذرعه ، فقال فيه أحد طلبة مرسية :

إن مخزومىكم رجـل      ألف الأعواد من صغره  
لو أننى كحلت أسفله      لانجلي عنه عمى بصره

<sup>(١)</sup> نصح الطيب ١١١/٢ .

فكان الصبيان يقولون له : أحتاج كحلاً يا أستاذ ؟ فكان ذلك سبب انتقاله من مرسية .<sup>(١)</sup>

وقد راج هجاء التندر والدعابة فى أوساط الشعراء والأدباء ، فالعتبى يداعب الرصافى ويسخر من بغلته التى لا تقدر على السير فيقول :<sup>(٢)</sup>

هالكه يركبها هالك      يعجب رائيه ورائيها  
تضعف إن تشحج إلا كما      بين مضنى النفس شاكيها  
يمشى بها الجهد رويداً كما      يهدى عروس الحى مهديها

ويتندر سعيد بن العاص بثوب أحد أصدقائه فيقول :<sup>(٣)</sup>

وثوبه فى سالف الزمان      خلة فرعون على هامان  
أفنى اللبالي وهو غير فان      حتى غدا كالإفك فى العيان

فهو عليه وهو كالعريان

ووجد الشعراء فى البخلاء والطفيليين مادة خصبة للتندر مثل قول ابن نصر القرطبى<sup>(٤)</sup> :

يا أيها الخارج من بيته      وهارباً من شدة الخوف  
ضيفك قد جاء بمزاد له      فارجع تكن ضيفاً على الضيف

ويتندر ابن رضوان الملقى بأحد البخلاء فيقول :<sup>(٥)</sup>

وبخيل لما دعوه لسكنى      منزل بالجنان ضن بذلك  
قال لى مخزن بدارى فيه      كل مالى فلست للدار تارك  
قلت رفقت للصواب فحادر      قول خب مرغب فى انتقالك  
لا تعرج على الجنان بسكنى      ولتكن ساكناً بمخزن مالك

<sup>(١)</sup> زاد المافر ص ١١٩ .

<sup>(٢)</sup> التشبيات ص ٢٦٢ .

<sup>(٣)</sup> التشبيات ص ٢٥٢ .

<sup>(٤)</sup> جدوة المقتبس ص ٢٥٦ .

<sup>(٥)</sup> نفع العيب ٦ / ١١١ .

ورسم الشعراء صوراً كثيرة لمظاهر البخل عند بعض الناس ، وتندروا كثيراً بموائدهم وأطعمتهم على نحو يذكرونا بأحاديث الجاحظ في كتاب البخلاء ، فمن ذلك هذه الصورة الساخرة لأحمد بن محمد بن فرج : <sup>(١)</sup>

فعل اللنيم وليته لم يفعل	وأتى بفعل مثله لم يجمل
ذبح الضفادع في الصنيع ولم يدع	للنمل جارحة ولا للقمل
وضع الطعام فلو علت ذبابة	وقعت لتكمل شعبة لم تكمل
وكانما خرطت صحاف طعامه	- من دقة ودمامة - من خردل
وكان فترة صحفة عن صحفة	في البعد والإبطاء فترة مرسل

ويتندر ابن وهيب بمائدة صنعها أحد البخلاء فيقول : <sup>(٢)</sup>

ومائدة جسمها لطفه	بدل على صفقة خاسرة
فتلك لنا قد غدت دائرة	ونحن عليها نرى دائرة

ويركب ابن عبد ربه هذه الطريقة في السخرية والتندر فيقول : <sup>(٣)</sup>

طعام من لست له ذاكراً	دق كمداق بأن يذكرا
لا يفطر الصائم من أكله	لكنه صوم لمن أظفرا

وسخر الشعراء من الطفيليين الذين يقحمون أنفسهم في الحفلات وموائد الطعام ، فمن ذلك قول ابن فرج في طفيلي يدعى بابن الإمام وفي أشياعه : <sup>(٤)</sup>

أفديك من مستوجد غضبان	حتى يلوح له ضباب دخان
يقتاده شم القطار بأنفه	مثل اقتياد النجم للحيران
وعلا الدخان بشنت بولة مربياً	بنبيه أين مطابخ الإخوان
فترى الإماميين حول ركابه	كالخيل صائمة ليوم رهان
لو يسمعون بأكلة أو شربة	بعمان أصبح جمعهم بعمان

<sup>(١)</sup> المقتبس (تحقيق د. مكى) ص ١٧٥ - ١٧٦ .

<sup>(٢)</sup> التشبهات ص ٢٣٣ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ص ٢٤٤ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

منه ولا شوق إلى لقيان  
بهماً عليه تساقط الدبان  
في لقمة كتخبط السكران  
حمل وفي أعفاجه حملان  
جيان لو أبت قري جيان  
عزمات نيته مدى نجران  
منه وتلقاه بكل مكان

رار الفتى القرشى لا لتعهد  
حتى إذا وضع الخوان تساقطوا  
ورأيته من بينهم متخبطاً  
لم ينصرف إلا وفي أكمامه  
وأحو ثقيف فر منه قاصداً  
لو حل في نجران لم يبعد علي  
كالموت تسعى في التخلص جاهداً

وتندر الشعراء بالألقاب المضحكة أو الشاذة كقول ابن رضوان المالمقي في  
رجل يلقب بالبعير :<sup>(١)</sup>

مأرب لم يسعد عليهن مسعد  
أبا أحمد ، وارتد عنهم يهدد  
مرامك بالمطلوب توفي وتحمد  
وقد هدرت منه الشقاشق تزيد  
فقلت له لا نخش فالعود<sup>(٢)</sup> أحمد

وذي لقب عنيت له عند صجبه  
دعوه بعيراً فاستشاط فقال مه  
فقلت له عد نحوهم لتعود من  
فقال وقد غص الفضاء بصوته  
لئن عدت نادوني بعيراً كمثلها

ووجد الشعراء في بعض المؤذنين والقراء مجالاً للدعابة ، فتصيدوا  
أخطاءهم ، وتندروا بأصحاب الأصوات الغليظة منهم ، فمن ذلك قول سعيد بن  
حكم في مؤذن سيء النعمة :<sup>(٣)</sup>

لـلـخـمـس فـيـه هـوـان  
آذاننا والبـنـان

للأبـدى آذان  
مـن أجـلـه تـتـلاقـي

ويذكر ابن سعيد أن أحد القراء غلط ليلة في بعض قراءته في التراويح  
فقال مكان ( والزاني والزانية فاجلدوا كل واحد منهما إلى نهاية الآية )  
فانكحوهما ، فقال أحد الشعراء :<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> نوح الطيب ١١ / ٦ .

<sup>(٢)</sup> يورى بكلمة ( العود ) وتعنى ( البعير ) أيضاً .

<sup>(٣)</sup> اختصار القدح ص ٣٠ .

<sup>(٤)</sup> المغرب ١ / ٣٣١ .

أُسدع القارء مـسني      لم يكن في السـنقـلب  
أمر الناس جميعاً      بـ سـنكـاح الزانـبـين

ويذكر المقرئ أن ثلاثة شعراء صلوا خلف إمام مسجد قرية خارج مرسية فأخطأ في قراءته وسها في صلاته ، فلما خرج أحدهما كتب على حائط المدجد : <sup>(١)</sup>

بـا خـلـسـتـي لـصـلاة      صـلـيـتـها خـلـف خـلـف <sup>(٢)</sup>  
وكتب الثاني تحته :

أغـض مـنـها حـبـاء      مـن المـهـيـمـن طـرفـي  
وكتب الثالث تحته :

فـلـيس تـقـبـل مـنـا      لـو أنـهـا أـلـف أـلـف

ويندرج تحت هذا الضرب من الهجاء الأشعار التي نظمها الشعراء في هجاء أنفسهم ، وقد اشتهر بهذا اللون ابن حزمون الذي وصف بأنه كان صاعقة من صواعق الهجاء ، عاصر ابن عنين ، فكان هذا في المشرق وهذا بالمغرب <sup>(٣)</sup> ، كما وصف بأنه " أحد بواقع الدهر ، بذى اللسان ، مقذع الأهاجي " <sup>(٤)</sup> ، وقال عنه صاحب المعجب <sup>(٥)</sup> : " إن له في الهجاء يداً لا تطاول ، غير أنه يفحش في كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة ، فقال في هجاء نفسه :

تأملت في المرأة وجهي فخلتني      كوجه عحوز قد أشارت إلى اللهو  
إذا شئت أن تهجو تأمل خليقتي      فإن بها ما قد أردت من الهجو

<sup>(١)</sup> نفع العيب ٤ / ١٨ .

<sup>(٢)</sup> الخلف : المتخلف الذي لا خير فيه .

<sup>(٣)</sup> المغرب ٢ / ٢١٤ .

<sup>(٤)</sup> الذيل والتكملة ٥ / ٢٤٠ .

<sup>(٥)</sup> المعجب ص ٣٧٣ .

كان على الأزرار منى عورة  
فلو كنت ممن تنبت الأرض لم أكن  
وأقبح من مرآى بطى فإنه  
وللمخزومي الأعمى مقطعة يهجو فيها نفسه ويلف الهجاء بالغزل لفاً  
حسناً فيقول :<sup>(١)</sup>

رب حسناء كالغزالة حيداً  
كلمتني فطار قلبي إليها  
فتجافت عن منظري ثم قالت  
لم ألمها على الصدود لاني  
والتفاتاً تزرى بحور الخلود  
وتزجيت للظماء ورودي  
أترى الحور واصلات القسود  
كنت أهلاً من مثلها للصدود

وسبق الأعمى وابن حزمون شعراء آخرون إلى هذا اللون من الهجاء ، على  
شاكلة مؤمن بن سعيد الذي يقول<sup>(٢)</sup>

فها أنا قد جئت أحمل لحية  
كأني تيس قد تطاول عمره  
ولي صاحب تحت السراويل فاسق  
إليك لها خطب وشان من الشان  
وأفنى فنوناً من تيس وجديان  
يقود بعث نوني إلى كل خسران

واتخذ بعض الشعراء مما يلبسون مادة للدعابة ، فتندروا بقدم ملابسهم  
وإخلاقها ، ولهم في ذلك صور طريفة مثل أبيات ابن قلزم التي يقول فيها :<sup>(٣)</sup>

وملبسى جبة صوف عفت  
قد رفيت دهرأ وقد رفعت  
واختلفت ألوان أخياطها  
سود وبيض مثل شيب بدا  
تشق فيها الرياح أو تفتق  
والتف فيها الزمن المخلق  
بالرفق والتلفيق إذ تافق  
في شعرات ضمها المفرق

ويصف ابن هذيل طيلسانه فيقول<sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> المغرب ١ / ٢٣١

<sup>(٢)</sup> النشيبات ص ٢٥١ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ص ٢٥١ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ص ٢٥٢

طيلساني طالر من نفس      هو فوزى غبش فى غلس  
والدى ألفه ألفه      من هواء فارغ أو نفس

### العيوب الخلقية

وجد الشعراء فى العيوب الخلقية عند بعض الناس مادة خصبة للتندر والدعابة ، فالتقطوا هذه العيوب مثل ضخامة الجسم أو احدودابه أو تضخم الأنف أو طوله أو تجدر الوجه ، وأبرزوها فى صور كاريكاتورية ساخرة على نحو ما كان يفعل ابن الرومى ، فمن ذلك هذه الصورة التى يرسمها عبد الله بن كليت لأنف الزهرى :<sup>(١)</sup>

أنفك يا زهرى فى قبحه      كأنه فى صورة البوق  
يقعد فى بيت لحاجاته      وأنفه يمشى إلى السوق

ويستغل المخزومى الأعمى صفة ( الحول ) عند أحد الأشخاص ويفتن فى التعريض بها فيقول :<sup>(٢)</sup>

خا نجل إبراهيم ليلا بعرسه      فجامعها فى ساعة الدبران  
فجاءت به مافون أشوه خلقه      كريم عجان لا كريم بنان  
وتزور إحدى مقلتيه لأختها      كأنهما عنزان تنطحان

ويلتقط ابن صارة صفة اتساع فم أحد الأشخاص وقبح ثناياه فيسخر منه سخرية لاذعة لا تخلو من إقذاع فيقول :<sup>(٣)</sup>

أما الثنايا فإنى لست منثنياً      عن الثناء عليها آخر الأبد  
يبدو لدرفك منها حين تبصرها      سن كمثل سن الصيقل الفرد  
كان جن سليمان بنوا فمه      بنيان تدمر بالصفاح والعمد  
له فم كحرفى شكل صورته      " ترمى غواربه العبرين بالزبد "

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٨ .

<sup>(٢)</sup> أخبار القصر ٢ / ٢٥٦ .

<sup>(٣)</sup> الدجيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

ويشبهه المخزومي الأعمى شخصاً أحذب بالقوس ويسخر منه سخريّة مرة  
فيقول : <sup>(١)</sup>

وأحـدب لـيس له هـمة      ولا لـدة في سـوى فيشـة  
يقول أنا القوس في شكله      فلا تنكروا الهم في بدرتـي  
فصولكم أبداً زانـد      أفقحتكم تلك أم فقحتـي

ولأبى إسحاق بن خفيف صورة طريفة التقط مادتها من أحد المشاهد التي  
رآها حيث قبض على أحذب - وهو مع صبي في خلوة - فضربا ، وطيف  
بهما ، والأحذب على عنق الصبي . فقال في ذلك : <sup>(٢)</sup>

رأيت اليوم محمولاً      وأعجب منه من حملـه  
جمال الناس تحملهم      وهذا حامل جمـله

وتندر الشعراء بضخامة الجسم ، فمن ذلك ما حكاه البياسي من أن  
شخصاً ضخم الجثة مستثقلاً دخل عليه في مجلس أنس فقال البياسي : <sup>(٣)</sup>

أسقني الكأس ضاحيه      ودع الشيخ ناحـيه  
فقال الكاتب أبو جعفر أحمد بن رضى :

إن تكن ساقياً له      ليس ترويه ساقـيه

ونظم الشعراء مقطعات كثيرة في هجاء اللحي ، وتندروا بها وبحامليها ،  
ورسموا لها صوراً طريفة مثل قول عبيدیس الكاتب : <sup>(٤)</sup>

يامن عليه للعلاج      إنى إلى اللحية محتـاج  
وعندكم فى وشقة لحية      بحملها المائق حجـاج  
للشعر فى جانبها مسرح      فـيه من الأنعام أزواج

<sup>(١)</sup> المغرب ١ / ٢٢٩ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٤ / ١٨ .

<sup>(٣)</sup> نفه ٣ / ٣٩٠ .

<sup>(٤)</sup> التشبيهات ص ٢٤٩ .

ومن صنوف الطير فى بعضها	بسط وسمان ودراج
يسيل من شاربه فوقها	ملح غزير الفطر ثجاج
للبق فى عنونه مكمين	ومن ديب القمل أفواج
إذا مشى تبصر أفواجهها	كأنها فى البحر أمواج
يعدها فى شعر وجعانه	فهو إذا ما شاء صنّاج

وقد شارك الزجل فى التندر بأصحاب اللحي ، بل لعله كان أقرب من الشعر فى التعبير عن هذه الناحية ، لأنه يخاطب جمهور العامة ، وكذلك فهو ادعى إلى الذبوع والرواج ، وأعلق بالأفواه والأذنان ، ولابن قزمان زجل يسخر فيه من أحد أصحاب اللحي ، وفيه يقول :<sup>(١)</sup>

من ننتف وشقرف	أفزع أنت عـنو
وأش تعمّل بواحد	مالو خير فى ذقنو؟
قد اصبح نعثر	فى شى بردو يغلى
مدلل محـير	ودقنو تقـول لى
خليه أنت واصبر	وافرح لو بمثلى
هو يقلع وأنا اطلع	ومنى ومـنو
كم ليلة ضـممتوا	كالغزال الأحـور
وشعروا لو اسطوا	والخدبـد أحـمر
واليوم صار فى دقنو	كنو تـيس مصـور
وهو التيس بعينو	وأش حاجـه نكـنو؟

وقد راج هذا الهجاء الذى يقوم على الدعابة والإضحاك فى أوساط الأمراء والحكام ، بل إن بعضهم كان يشارك فيه على نحو ما يذكره الحميدى من أن الوزير سليمان بن واتسوس - أحد رؤساء البربر - كان أثيراً عن الأمير عبد الله ابن محمد ، فدخل عليه يوماً وكان عظيم اللحية ، فلما رآه جعل الأمير ينشد :

معلوقة كأنها جوالق  
نكداء لا بـارك فيها الخالق

<sup>(١)</sup> تنقود الأمل ورقة ٩٠ .

للقمل فى حافاتها فنانق  
فبها لباعى المتكى مرافق  
وفى احتدام الصيف ظل رائق  
إن اللى يحملها طائق

وتقول الرواية إن الوزير البربرى لم يتسع صدره لهذه الدعابة فرد على الأمير بقوله : " إنما كان الناس يرغبون فى هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضيم ، وأما إذا صارت جالبة للذل ، فلنا دور تسعفنا وتغنينا عنكم ، ثم وضع يده فى الأرض وقام من غير أن يسلم ، ونهض إلى منزله فغضب الأمير وأمر بعزله " (١) ويذكر المقرئ أن عبد الرحمن الناصر جلس ذات يوم فى جماعة من خواصه ومعهم أبو القاسم بن لب ، وكان يعده للمجون والتطايب ، فطلب منه أن يهجو عبد الملك بن جهور -- أحد ورائه -- فقال : أخافه ، فقال لعبد الملك وزيره : فاهجه أنت ، فقال : أخاف على عرضى منه ، فقال الناصر : أهجوه أنا وأنت ، ثم قال :

لب أبو القاسم دولحية      طوبلة أزرى بها الطول  
فقال عبد الملك :

وعرضها كيلان إن كسرت      والعقل مأفون ومخبول  
فقال الناصر لللب : اهجه فقد هجاك ، فقال بديها :

قال أمين الله فى عصرنا      لى لحية أزرى بها الطول  
وابن جهير قال قول اللى      ماكولـه القرضيل (٢) والفول  
لولا حيانى من إمام الهدى      بخست بالمنخس شو..... (٣)

<sup>١</sup> نية الملتمس ص ٣٠١ .

<sup>(١)</sup> القرضيل : شوك له ورقى عريض تأكله البقر .

<sup>(٢)</sup> كلمة ( شو ) اسم لذكر الرجل بالرومية وكلمة ( قولو ) اسم للاست بها ، فكأنه قال : لولا حيانى من إمام الهدى بخست بالمنخس الذى هو الذكر استه . نفع العليب ٦١٨/٣ .

ثم سكت فقال له الناصر : هات تمام البيت . فامتنع ، فقال له ( قولوا )  
يعنى تمام البيت . وهى كلمة قالها الناصر مسترسلا غير متحفظ من زيادة الواو  
وإبدال الهاء الأخيرة واوا ، إذ صوابها ( قلها ) على حكم المشى مع الطبع  
والراحة من التكلف ، فقال لب : يا مولانا ، أنت هجوته ، ففطن الناصر  
والحاضرون إلى ذلك .<sup>(١)</sup>

ويحتفظ ابن بسام بأرجوزة مزدوجة خاطب بها الوزير ( ابن بقية ) على  
لسان جاربية كان أهداها إليه ، وضاحت بها الحال عنده ، فقالت تسخر منه  
وترميه ببعض الصفات المعيبة كالقبح والبخل والفجور :<sup>(٢)</sup>

أدفع ما حل من المحدور  
فى القبح والفقر خفى الموضع  
من فقره حتى دهى بالشيب  
لطلعة حالكة صعلوكه  
وهو شقى ليس بالمحمود  
أسود كالسروة فى الظلماء  
إذا لم يفز بطائل الملاحه  
لفرط الإلمام بسوق الغزل  
والاكل والشرب وحلة الطرف  
واطرحى عن نفسك المطامع  
فمما له عند البرايا قدر  
أعجز فى البيت من الضريس  
إذا بدا فى كسوة الغر نسوق  
مداولا عصاه فى كفيه  
منكمشاً فى طلعة الصياد  
ومرة بمشى وعشراً يقع  
لقلت سبحان الذى أبلاه

إنى بسالله وبالوزير  
وهبتنى لأوحد منقطع  
ولم يكن لى بهذا العيب  
جعلتنى أسيرة مملوكة  
يعزى على الفال إلى مسعود  
كما يكنى بأبى البيضاء  
وكنت أرجو معه للراحه  
إذا به أدخلنى فى شغل  
وقال لى إن كنت تهوين التحف  
فانتبهى وحكمى الأصابع  
قد كسدت آدابه والشعر  
الحن فى أشعاره من تيس  
ولو تراه سائراً للسوق  
مشمراً فى الطين عن ساقبه  
ياخذ فى التعبير والإزهاد  
فمرة يعطى وألفاً يمنع  
ولو ترى ياذا الندى مثواه

<sup>(١)</sup> فتح العليب ٢ / ٦٦١٧ - ٦١٨ .

<sup>(٢)</sup> الذخيرة ١ / ١ / ص ٥٥٣ - ٥٥٤ .

وعلى هذا النحو تمضى الجارية فى السخرية من صاحبها ، والإزاء به على نحو يذكرونا بطريقة ابن حجاج البغدادي فى الهزل والإحماض .

ونافس النثر الشعر فى هذا الضرب من الهجاء ، وبرع بعض الكتاب فى التندر والدعابة على شاكله الأديب أبى عبد الرحمن بن طاهر الذى قال عنه ابن بسام : " ولسه عدة نوادر أحر من الجمر ، وأدفع من الصخر " (١) ، ويحتفظ له برسالة يتهم فيها بصاحب له حضر محاصرة شاطبة وأظهر من الجبن والخوف ما جعل ابن طاهر يقول فيه (٢) : " ورأيت مآل الأمر بوقوع الحرب وشروع النقب ، وأنه وضعت الملاطيس (٣) ، فقلت : الآن حمى الوطيس فأرجو أن يصحب الظفر ، ويسعد القدر ، وحدثت أنه دعيت " نزال " فكنت أول نازل ، فقلت لمحدثى : أمجد أنت أم هازل ؟! سيدى أشد بأساً وأعز نفساً ، من أن يرى يوم جلاذ ، إلا على ظهر جواد ، فإن لبس زغفاً ، هزم ألفاً ، وإن تقلد صمصامه ، لم يبق هامة ، ولكن أذكره بهذه الشهامة قول أبى دلالة :

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة      بكر على صفى تميم لولت  
وقوله :

إذا صوت العصفور طار فؤاده      زيت حديد الناب عند الثرائد

وعمد بعض الكتاب إلى التصوير الهزلى فى رسم شخصياتهم ، على النحو الذى نراه فى رسالة ابن عباس الكاتب التى يتندر فيها برسول أبى المغيرة بن حزم ويصوره تصويراً أقرب إلى التصوير الكاريكاتيرى فيتخيله تارة فى زى حاو أو لعاب ، ويتفتته بثيابه الواسعة الفضفاضة ، فيقول : (٤) " أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة ، صعل الهامة ، بعينيه ليانه ، وعلى أسنانه طرامة ، وفى شاشتته وضارة ، وفى منطقته لكنة صعبة ، وعلى أنفه عقدة

(١) الدخيرة ٦٨ / ١ / ٣

(٢) نفسه ٦٨ / ١ / ٣ - ٦٩ .

(٣) الملاطيس : المناقير من حديد .

(٤) الدخيرة ٦٤٥ / ٢ / ١ وما بعدها .

كالكبة ، وفي أطواقه سعة يخرج منكباها من أقطارهما ، كأنها ثياب والده ، أو شبارق راهب تائه ، وفي مشيته تفج قبيح كأنه عائم في يابس . وعليه غفارة شفافة شبكية السيدارة ، <sup>(١)</sup> وأظن العمالقة غزلت صوفها في زمن الفتحل ... فوحق الطرب وحرقة الأدب لقد هممت أن أوفى الشطارة حقها ، وأسم الخلاعة وسمها ، فأجعل في يده عكاز قصبه خضراء . وفي رأسه قلنسوة بيضاء وأضع على عاتقه ضرباً بنخالة ، وأقيم من نفسي ومن حضر عراقاة وآلة ، وآخذ به من طرق بني مرخادي على قارعة المحجة بين الناس . وأقلده سيف الباجي أبي القاسم ”

## الرسالة الهزلية لابن زيدون :

تعد الرسالة الهزلية لابن زيدون من أكثر الرسائل الأندلسية تعبيراً عن هذا النوع من الهجاء الساخر ، وقد كتبها ابن زيدون على لسان ولادة يسخر فيها من ابن عبدوس غريمه ومنافسه في حبها وتمتزج فيها السخرية بالذم وقد استهلها بقولـه<sup>(١)</sup> : " أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البين سقطه الفاحش غلظه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتني مستهدياً من صلتى ما صفرت منه أيدي أمثالك ، متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك مرسلا خليلتك مرتادة ، يستعملا عشيقتك قواده ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على " .

ويصطنع ابن زيدون طريقة الجاحظ في السخرية ، فيخلع على ابن عبدوس ما خلعه الجاحظ على أحمد بن عبد الوهاب في رسالة " التربيع والتدوير من صفات ليست فيه إيغالا في الإزراء به ، وامعانا في السخرية منه ، أكثراً من الأمثلة والشواهد التي تمثل ثقافة ابن زيدون في شتى ضروب المعرفة على نحو ما يبدو في قوله : " ولا شك أنها قلتك إذ لم تضن بك ، وملتك إذ لم تغر عليك ، فإنها أعذرت في السفارة لك . وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخلال ، حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك والإسكندر قتل دارا في طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف

(١) ديوان ابن زيدون ص ٢٣٥ وما بعدها تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية .

لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مسالمتك ، وجذيمة الأبرش تمنى منادمتك ، وشيرين قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غايرت الزباء عليك ، وأن مالك بن نويرة إنما ردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك .. ”

وعلى هذا النحو من التهكم وحشد الإشارات التاريخية والدينية والفلسفية وغيرها يمضى ابن زيدون فى رسالته ، فالسموأل تعلم الوفاء من ابن عبدوس وحاتم الطائي جاد بوفره ، وسحبان أخذ عنه الفصاحة ، وأفلاطون أعطى تلميذه أرسطو فضل علمه ، وبطليموس ابتكر آلة الاضطراب على هدى من تفكيره وتدبيره ، ويمعن ابن زيدون فى المبالغة بقصد السخرية من غريمه فهو الذى ” أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية ، وفك المعنى ، وفصل بين الاسم والمسمى ، وصرف وقسم وعدل وقوم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال ، وتصفح الأديان ورجح بين مذهبي مانى وغيلان ” وأنه لو شاء خرق العادات ، وخالف المعهودات ، فأحال البحار عذبة وفجر من الحجارة مياهاً رطبة ، ونقل الغد فصار أمساً ، وزاد العناصر فكانت خمساً ” .<sup>(١)</sup>

ومثل هذه المبالغة فى الوصف تستشير القارىء وتدعوه إلى مشاركة ابن زيدون سخريته واستخفافه بابن عبدوس ، وطريقة ابن زيدون هنا تقترب أيضاً من طريقة البلاغيين فى الذم بما يشبه المدح ، غير أن ابن زيدون لا يسير فى هجائه على وتيرة واحدة ، فهو ينتقل من الذم غير المباشر إلى الذم المباشر على نحو ما يبدو فى قوله : ” هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، سىء الجابة والسمع ، بغيض الهيئة ، سخييف الذهب والجينة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعاييب مشهور المثالب ، كلامك تمتعة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة وعلمك مخرقة :

<sup>(١)</sup> ديوان ابن زيدون ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

مساو لو قسمن على النوانى لما أمهرن إلا بالطلاق<sup>(١)</sup>

ويمعن ابن زيدون فى الاستخفاف واستهزاء بابن عبدوس حين يقارن بينه وبين من شهروا بالبله والسفه والغباء على مر العصور كما فى قوله :  
" حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستوجب لاسم العقل  
إذا أضيف إليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك ، فوجودك  
عدم والاعتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر " .<sup>(٢)</sup>

ويعمد ابن زيدون إلى تضخيم الصورة والإضافة إلى حواشيها واستقصاء جوانبها وتتبع جزئياتها ودقائقها لتبدو أكثر سخرية وإضحاكاً كقوله :  
" عطرت أردانك ، وجررت هميانك ، واختلت فى شيتك ، وحذفت فضول  
لحيتك ، وأصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ،  
واستأنفت عقد إزارك .. " .<sup>(٣)</sup>

والتشابه واضح بين رسالة ابن زيدون وبين رسالة التبريع والتدوير للجاحظ التى كتبها إلى أديب " كان يكثر من نقده وذمه وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادي ، واتفق إن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً فنعتته بأنه مربع مدور ، واستمر يضيف عليه صوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل النسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال فى كل ميدان من ميادين الثقافة " .<sup>(٤)</sup>

وقد وصلت رسالة الجاحظ إلى الأندلس فى وقت مبكر ، فقد أورد ياقوت على لسان أبى محمد النجيرى من قوله : " كنت بالأندلس فقيل لى : إن هاهنا تلميذاً لأبى عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن زيد ، ويكنى أبا خلف ،

<sup>(١)</sup> ديوان ابن زيدون ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٢٤٢ .

<sup>(٣)</sup> ديوان ابن زيدون ص ٢٤٥ .

<sup>(٤)</sup> ابن زيدون ، تأليف الدكتور شوقى ضيف ص ٤٤ .

فأتيته وسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان . ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال : كان طالب العلم بالشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان . فوقع إلينا كتاب " التربيع والتدوير " له .... " (١)

وأعجب ابن زيدون برسالة الجاحظ ، فحذا حذوه ، واصطنع طريقته في السخرية والتهكم ، وقلده في تضمين الشواهد والاقتباس من القرآن والحديث والشعراء والأمثال والتاريخ والفلسفة والعلم ، وأسرف في هذه الناحية حتى غدت الرسالة معرضاً لإظهار ثقافته ، واستحالت إلى ما يشبه المتن مما حدا بابن نباتة إلى شرحها وفك معمياتها في كتاب سماه ( سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ) .

---

(١) معجم الأدباء ١٠٤١٦ وما بعدها .

## **الفصل السادس**

**المعارك الهجائية بين الشعراء**



يعكس شعر الهجاء تلك الخصومات والمعارك الهجائية التي نشبت بين شعراء الأندلس ، وكان الجانب الأكبر من هذا الشعر نتاجاً للمنافسة الأدبية بين الشعراء ، إذ كان كل شاعر يسعى إلى إثبات تفوقه وجدارته حتى يضمن الزواج لبضاعته في سوق الأدب ، وفي قصور الملوك والأمراء ، وكان كثير من الشعراء يتكسبون بالشعر ويعتبرونه بضاعتهم الوحيدة التي تهيب لهم أسباب العيش والرزق ، وطبيعي أن تشتد المنافسة بين أصحاب المهنة الواحدة حتى تصل إلى درجة العدا والخصومة في بعض الأحيان .

وترجع هذه الخصومات الشعرية بين شعراء الأندلس إلى عهد مبكرة ، ففي ( المغرب ) رواية تتحدث عن خصومة وقعت بين الشاعر أبي المخش عاصم ابن زيدون وبين شاعر يدعى ( ابن هبيرة ) ، وكان أبو المخش مشهوراً بقول الشعر إلا أنه كان جسوراً على الأعراض ، فقطع لسانه هشام بن عبد الرحمن ، وتعرض أبو المخش في محنته لهجاء الشعراء ، فكانوا يطعنون في نسبه ، ويتهمونه بالنصرانية ، كما كانوا يعرضون بحادثة قطع لسانه ، وإلى ذلك يشير ابن هبيرة بقوله : <sup>(١)</sup>

أقلفتك التي قطعت بشوش دعتك إلى هجائي وانتضالي

ورد عليه أبو المخش بقصيدة التزم فيها بالبحر والروى ، لم يبق منها إلا قوله : <sup>(٢)</sup>

سألت وعند أمك من ختاني بيان كان يغنى عن سؤالي

ويحدثنا ( ابن بسام ) عن خصومة أخرى نشبت بين أبي حاتم الحجارى وبين شاعر يدعى ( ابن أحمد ) ، ويحتفظ ببعض قصائد الهجاء التي تبودلت

<sup>(١)</sup> المغرب ٢ / ١٢٣ ، بدائع البداهة ص ٢١ .

<sup>(٢)</sup> المغرب ٢ / ١٢٣ .

بينها ، وتقوم معانى الهجاء على ادعاء كل منهما السابق على الآخر فى إجادة الشعر . كما يعرض ( ابن أحمد ) بلقب الحجارى ، كقوله : <sup>(١)</sup>

قالوا الحجارى وظنى أنه حجر  
عنى إليك من اشعار لها غرر  
بيت بيت ومصراع بمشبهه  
والدر ليس بمنحوت من الحجر  
شبرى يباحث بالتحجيل والغرر  
حتى يصدق خبرى ذائع الخبر

وقد رد عليه الحجارى بقصيدة قال فيها : <sup>(٢)</sup>

قف يا ابن أحمد لا تجمع على غرر  
ولا تعرض فعندى كل شاردة  
إن شئت سلماً فسلماً أو محاربة  
كوقفة العير بين الورد والصدر  
كالنار تلقى إلى الأشرار بالشرر  
عندى أناة وعندى بطشة القدر

واستمر التراشق بين الشاعرين ، ونظم ( ابن أحمد ) قصيدة أخرى يشيد فيها بشاعريته ، وينتقص من قدر أبى حاتم وفيها يقول : <sup>(٣)</sup>

أمرت منى جفاء غير مؤتمر  
والعير مستوقف الأفراس سابقة  
إن كنت مستأخراً يوماً فلا عجب  
وبين فكرى ونفسى كل صائبة  
كالذئب نهنه عدو الضغيم الهصر  
كوقفة العير بين الورد والصدر  
فوالد الكتب قد أثبتن فى الطرر  
كالسهم ينفذ بين القوس والوتر

ويعارضه أبو حاتم بقصيدة مماثلة يفخر فيها بشعره ويعرض بمنافسه فيقول : <sup>(٤)</sup>

أنا الحجارى والياقوت من حجر  
وركن مكة فيه ما سمعت به  
لا تحسب الشعر إلا دوح باسقة  
لى المحاسن وانظر قلما خفيت  
أخفى عليك ولكن سوف تعرف بى  
والماء ينبع سلسالا من الحجر  
تراك تجحد أو تعمى عن النظر  
أصبحت أقطف منها يانع الثمر  
إلا على جاهل بالشمس والقمر  
ليئناً تكنف ملتقاً من الشجر

<sup>(١)</sup> الدخيرة ٢ / ٣ / ص ٧٥٤ وما بعدها .

<sup>(٢)</sup> نفسه ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

<sup>(٤)</sup> الدخيرة ٢ / ٣ / ص ٧٧٠ .

ماذا تريد بنسج هلهلته يد أخشى عليك هجوم القر في صفر

ولا نجد فيما أورده ابن بسام من تهاجي الشعراء أكثر من هذا التفاخر أو هذه المباهاة بشاعرية كل منهما ، مما أفقد شعرهما كثيراً من توهج الهجاء وحيويته .

وشهد عصر الطوائف معارك هجائية حامية بين الشعراء وذلك لوجود كثرة من شعراء الهجاء البارزين في هذا العصر كالسميسر والأبيض وابن صارة وغيرهم بالإضافة إلى اهتمام ملوك الطوائف بالشعراء وإغداقهم الأموال والصلوات عليهم ، مما أدى إلى وجود تنافس قوى بين هؤلاء الشعراء للاستئثار بحظوة الملوك ، وكان المعتمد بن عباد أكثر ملوك الطوائف تقريباً للشعراء وإيثاراً لهم ، فتنافسوا فيما بينهم للظفر بإعجابه ، وأخذ هذا التنافس صوراً عديدة كأن يلجأ أحد الشعراء إلى الفخر بشعره أمام المعتمد أو أن يعرض بأضرابه الشعراء فيزرى بمكانتهم ويسعى إلى الانتقاص من شأنهم كما فعل يوسف بن عبد الصمد حين أنشد قصيدة أمام المعتمد عرض فيها بمنافسيه من الشعراء أمثال ابن اللبانة والقزاز والحجام وافتخر بشاعريته فقال :<sup>(١)</sup>

والشعر بهجته إذا نطقت به	بين المحافل ألسن الأعيان
ما كان قول الشعر إلا خطبة	كانت مراتبها على كيوان
حتى تدنس ثوبها بزعانف	نشأت على الأوضار والأدران
من صنعة القزاز والحزار أو	من صنعة الحجام واللبنان

واحتدمت معارك عنيفة بين شعراء الهجاء البارزين ، وكانت هذه المعارك أشبه بميدان يحاول كل شاعر فيه أن يبرز أقوى ما لديه من أسلحة الهجاء . فلم يترك أحدهم صفة معيبة إلا وألصقها بصاحبه ، فمن ذلك هذه المعركة التي نشبت بين الأبيض وبين ابن صارة الشنتريني ، وكلاهما هجاء خبيث الهجاء

<sup>(١)</sup> الدخيرة ٢/٣ ص ٨١٤ .

وقد أدى إلى تشابك الشاعرين سخرية ابن صارة من أحد أبيات الأبيص . وذلك حين نظم غزلية كان مما قاله فيها : <sup>(١)</sup>

كونى على حذر فإن عداتنا      بترقبونك بالمكان البلقع  
فإذا لقيت سراتهم فتقننى      حذراً على خلق الهمام الأروع  
لقى بنانك بالرداء وسلمى      تكفى الكريم إشارة بالإصبع

وكان ابن صارة إذا لقي الأبيص لف إصبه في كفه وسلم عليه تعريضاً بهذا البيت حتى أخرجته ، فكانت تلك هي الشرارة التي أشعلت الحرب بينهما ، فقال ابن صارة يهجو الأبيص : <sup>(٢)</sup>

ومن العجائب أن يكون الأبيص      بحماره وسط السوايق يركضُ  
أنى له تقربها أو خبها      ما العير إلا أن يحث فينهض  
العير عير مدلة إن لم يهن      أو لا فما إن فيه عرق ينبض

ورد عليه الأبيص بقصيدة موجعة أفحش فيها وأزرى بشاعريته فقال :

جن ابن صارة والحوادث تعرض      والكلب فى مهوى العصا يتعرض  
أغروه أن قالوا شويعر قطعة      لا شاعر فحل يمر وينقض  
ولقد نزوت على القوافى نزوة      كادت لها أبقارها تتمحض  
والله لولا أن يقال تجاهلا      إنى صبوت وإن رأسى أبيض  
لجعلت غرمول الحمار بكفه      حتى يرى هل فيه عرق ينبض

وتذكرنا هاتان القصيدتان - إلى حد ما - بأسلوب جرير والفرزدق في النقائض من حيث محاولة كل منهما الإزراء بصاحبه والانتقاص منه ، ومن حيث النسج والصيغة كما أننا نحس بأن الأبيص حاول أن يركب طريقة الفرزدق في الهجاء وإن كان ثمة فرق كبير بينهما .

راد المسافر ص ١٠٨ .

ص ٢١ / ص ٩٠١

وكان السميسر أحد بواقع عصره في الهجاء ، فلم يسلم أحد من هجائه ويحتفظ له ابن بسام بقطعة في هجاء معاصره أبي عبد الله بن الحداد قال فيها :

قالوا ابن حداد فتى شاعر      قلت وما شعر ابن حداد  
أشعاره مثل فراخ الزنا      فتش تجد أخبث أولاد

وكان الشعراء يخافون السميسر ويخشون سلاطة لسانه ، حتى لنجد شعراً في هجائه مجهول النسبة والهوية كقول أحدهم : <sup>(١)</sup>

إن كنت تهوى مليحاً      فلا تقل بمعذر  
واهو الصغار ففبيهم      على الحقيقة تعذر  
دع الكبار لقوم      دانوا بدين السميسر

ومن الطريف أن نجد شاعر الأندلس ينزلقن إلى معارك الهجاء ، ويخضن فيما خاض فيه الشعراء ، فقد هجت مهجة القرطبية ولادة ، رغم ما عرف عنهما من صلة وطيدة ، إذ علقت بها ولادة ، وتأدبت عليها ، ولكن وقع بينهما ما اقتضى تغير مهجة على ولادة فهجتها هجاء موجعاً قالت فيه : <sup>(٢)</sup>

ولادة قد صرت ولادة      من غير بعل ، فضح الكاتم  
حكيت لنا مريم لكنه      نخلة هدى ذكر قاتم

وينسب إلى ولادة شعر في هجاء ابن زيدون رغم أنه شغف بها حباً ، وخلع فيها عذاره ، وقال فيها القوائد الطنانة والمقطعات ، وفي هجائها تخلع على ابن زيدون أقبح الصفات ، كاللواط والزنا والسرقعة على نحو ما يبدو في قولها : <sup>(٣)</sup>

ولقبت المسدس وهو نعت      تفارقك الحياة ولا تفارق

<sup>(١)</sup> الدخيرة ١ / ٢ / ص ٨٩٤ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٤ / ٢٩٣ .

<sup>(٣)</sup> نفع ٤ / ٢٠٥ .

فلوطى ومأبون وزان وديوث وقرنان وسارق

وتهجوه مرة أخرى هجاء مقذعاً فتقول :<sup>(١)</sup>

إن ابن زيدون على فضله  
لو أبصر الأير على نخلة  
يعشق قضبان السراويل  
صار من الطير الأبابل

كما ينسب لولادة بيتان آخران فى هجاء شخص يدعى ( الأصبحي )  
وهما لا يختلفان عما سبقهما من نزوع إلى الفحش كما فى قولها :<sup>(٢)</sup>

يا أصبحي اهنا فكم من نعمة  
قد نلت باست ابنك ما لم ينل  
جاءتك من ذى العرش رب المنن  
بفرج بوران أبوها الحسن

وشهد عصر المرابطين معركة حامية بين المخزومي الأعمى وبين نزهون  
الغرناطية ، وكان الأعمى من أبرز شعراء الهجاء الذين عرفتهم الأندلس ، وقد  
وصفه ابن الخطيب بأنه كان شديد القحة والشر ، معروفاً بالهجاء ، مسلطاً  
على الأعراض سريع الجواب ، ذكى الذهن ، فطناً للمعاريض ، سابقاً فى  
ميدان الهجاء ، فإذا مدح ضعف شعره " (٣) ، وأما نزهون فكانت من أشهر  
شواعر غرناطة فى عصر المرابطين ، وقد بدأت المهاترات الهجائية بينهما  
عندما اعترضت على معنى بيت أنشده الأعمى فى أحد المجالس ووجهت إليه  
كلاماً عنيفاً نحو قولها : " إن من يجيء من حصن المدور ، وينشأ بين تيبوس  
وبقر ، من أين له معرفة بمجالس النعيم " (٤) فأثارت كلماتها الأعمى فهجأها  
بقوله :

على وجه نزهون من الحسن مسحة  
قواصد نزهون توارك غيرها  
وإن كان قد أمسى من الضوء ما  
ومن قصد البحر استقل السراويل

(١) زاد المسافر ص ١٠٩ .

(٢) نفسه ٢٠٦ / ٤ .

(٣) الإحاطة ٤٣٢ / ١ .

(٤) نفسه ٤٣٤ / ١ . فتح العيب ١٩٢ / ١ .

وردت عليه نزهون بقصيدة رمته فيها بأقبح الصفات ، وملأتها بالبذاءة  
والفحش قالت فيها :<sup>(١)</sup>

قل للوضيع مقالا      يتلى إلى حين يحشر  
من المدور أنشئت والخرا منه أعطى  
حيث السبداوة أمسيت      فى أهلها تتبخر  
لذاك أسيت صبا      بكل شىء مدور  
خلقت أعمى ولكن      تهيم فى كل أعور  
جازيت شعراً بشعر      فقل لعمري من اشعر  
إن كنت فى الخلق أنثى      فإن شعري مذكر  
ورد عليها الأعمى بقوله :<sup>(٢)</sup>

ألا قل لنزهون مالها      تجر من التيه أذبالها  
ولو أبصرت فيشة شمريت      - كما عودتني - سر بالها

ولم تنته هذه المعركة الهجائية بين الشاعرين إلا بتدخل والى غرناطة فى  
ذلك الوقت أبو بكر بن سعيد .<sup>(٣)</sup>

وكانت نزهون منرفاً فى معركة هجائية أخرى مع ابن قزمان الذى هجاها  
هو الآخر هجاء مقذعاً ذكره المقرئ .<sup>(٤)</sup>

والواقع أن الأعمى ونزهون وابن قزمان كانوا زعماء طبقة من أدباء الأندلس  
عرفوا بالمجون والتهتك ، والقدرة على الإضحاك والتفنن فيه ، وكانوا لا  
يتورعون عن الإغارة على الأعراض أو الخوض فى أفحش الأمور فخافهم  
الناس ، واتقاهم الحكام . واختصوا بكثير من الهدايا والطرف اتقاء لألسنتهم .  
وتحتفظ كتب الأدب ببعض الروايات التى تكشف عن مجونهم وتهتكهم .

<sup>(١)</sup> نفسه ١ / ٤٣٤ .

<sup>(٢)</sup> نوح الطيب ١ / ١٩٣ . المغرب ١ / ٢٢٨ .

<sup>(٣)</sup> نفسه ١ / ١٩٣ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ٤ / ٢٩٧ .

ولم يخل ( عصر الموحدين ) من وجود معارك هجائية بين الشعراء ، فقد قامت خصومات بين ابن الأبار وبعض الشعراء <sup>(١)</sup> ، كما نجد هجاء لابن سهل فيمن رآهم يتطفلون على الشعر <sup>(٢)</sup> ، ولعل أوضح هذه الخصومات ما كان بين ابن مرج الكحل وبين أبي حريزة محفوظ بن مرعي الشريف ، إذ يحتفظ صاحب ( زاد المسافر ) بمقطعات تبودلت بين الشاعرين ، وفيها يلصق الشريف صفة الشؤم بشعر ابن مرج الكحل كما يبدو في قوله : <sup>(٣)</sup>

مالي أرى شعر مرج كحل      أشام من ناقة البسوس  
فإنما شعره مغسير      شن مغاراً على النفوس

ويرد هذه المعاني في مقطعة أخرى فيقول : <sup>(٤)</sup>

تبت يدا مرج الكحول فإنه      أفنى الأنام بشعره المشؤوم  
قد أهلك الإسلام شؤم مديحه      هلا أشار بمدحه للروم

ويدور هجاء ابن مرج الكحل للشريف حول اتهامه بالزندقة والقتل بالتعطيل والتحريف . كقوله : <sup>(٥)</sup>

أيا عجباً ما للشريف يدمني      وبينضني حتى كأني مسجد  
ولا عيب عندي غير أني مسلم      وأن اسمي اسم الناشمي محمد

ويقول : <sup>(٦)</sup>

وغد يرى الصلوات نافلة له      ويقول بالتعطيل والتحريف

كما يتهمه ابن مرج الكحل بوضاعة النسب وانحطاط الأصل : <sup>(٧)</sup>

<sup>(١)</sup> ابن الأبار - حياته وكتبه - ص ١٦٣ .

<sup>(٢)</sup> ديوان ابن سهل ص ٦٥ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١٢٤ .

<sup>(٤)</sup> ضد ص ١٢٤ .

<sup>(٥)</sup> ضد ص ١٢٥ .

<sup>(٦)</sup> ضد ص ١٢٦ .

<sup>(٧)</sup> ضد ص ١٢٥ .

أيسا ناقصاً يدعى أنه      كريم الجدود شريف السلف  
الأجىء لنا بسبب واحد      وضع ونحن نخط الشرف

وفى العصر الغرناطى ، نشبت خصومة عنيفة بين ابن الخطيب وبين تلميذه ابن زمرك ، ولكن أسدءها لم تنعكس بصورة واضحة فى شعرهما ، وقد أورد ( المقرئ ) قصيدة لابن زمرك قالها بعد وفاة ابن الخطيب وخلع السلطان أبى العباس أحمد بن أبى سالم الذى قتل ابن الخطيب فى دولته ، وفيها تعريض بأحد الوزراء <sup>(١)</sup> ، وهناك تلميحات وإشارات أخرى تتناثر فى بعض قصائده التى توجه بها إلى محمد الخامس ، وهذا ما جعل ( بلاشير ) يرى أن ابن زمرك نال من ابن الخطيب بعد وفاته هاجياً ، وأغلب الظن أن هذه الإشارات ربما كان المقصود بها الوزير ابن الكاس الذى قامت بينه وبين ابن زمرك عداوة عنيفة . <sup>(٢)</sup>

وكان للتنافس التقليدى بين شعراء الأندلس والمغرب أثر فى احتدام المعارك الهجائية بينهم ، إذ كان أنصار كل فريق يدعون لأنفسهم البروز والسبق على الآخرين ، فمن أمثلة هذه الخصومات ما كان بين أبى عبد الله محمد بن معمر وبين ابن شرف ، وفيه يقول ابن معمر : <sup>(٣)</sup>

قولوا لشاعر برجة هل جاء من      أرض العراق فحاز طبع البحترى  
وافى بأشعار تصيح بكفة      وتقول هل أعزى لمن لم يشعر  
يا جعفرأرد القريض لأهله      واترك مباراة لتلك الأبحر  
لا تزعمن ما لم تكن أهلا له      هذا الرضاب لغير فيك الأبحر

كما دارت معركة هجائية أخرى بين ابن الياسمين وبين عدد من الشعراء المغاربة كأبى العباس الجراوى وأبى الحجاج النمى الفاسى ، واشتهر قول الجراوى فيه : <sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٥ / ١٧٧ وما بعدها .

<sup>(٢)</sup> مع شعراء الأندلس والمنتبى ص ٣١٧ .

<sup>(٣)</sup> المغرب ١ / ٤٣٣ .

<sup>(٤)</sup> العيون البانعة ص ٤٦ .

است الحبارى ورأس النسر بينهما  
لون الغراب وأنفاس من الجمل  
خدها إليك بحكم الوزن أربعة  
كالنعت والعطف والتوكيد والبدل

ورد عليه ابن الياصمين بقوله طاعناً في نسبه : <sup>(١)</sup>

يا أعرق الناس في نسل اليهود ومن  
تأبى شمائله التفصيل للجمل  
خدها بحكم اجتماع الدم واحدة  
تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

وقد ركز الشعراء في معاركهم الهجائية على استغلال نقاط الضعف في منافسيهم لاسيما إذا كانت عيوباً خلقية : كما في قول أبي زيد ابن أبي العافية في هجاء ابن العطار القرطبي يعرض بطوله وحوله : <sup>(٢)</sup>

وكيف يفيق ذو صبر قصير  
حليف وساوس حول طوال

وقد راجعه ابن العطار بقصيدة عرض فيها بداء الجرب الذي كان قد

أصيب به فقال : <sup>(٣)</sup>

كأنك لم تجرب قط خلقاً  
أنسيت التجارب إذ تجارى  
فلا تغفل عن التجريب يوماً  
وجرب جاربيتك واختبره  
وجار بنيك لا تستحي منه  
وأجر ببالك الجرباء تبصر  
وجرب أهل جربة تلف قوماً  
تجاراً باعة تجروا بزيت  
إذا سمعوا بتمر في جريب  
إذا جربت هذا الخلق أبدى  
جرى بالضح دهرأ جر بؤساً  
ولم تعرف بتجربة الليالى  
يهن الجزيئات مع الشمال  
ولوأ عطيت فيه جراب مال  
وجر برجله إن كان قالى  
ومن نجار بابك لا تبالي  
نجوم الأفق تجرى بانتقال  
أبوا لبس الجوارب والنعال  
تسموا بالتجار بغير مال  
جروا ببطاء ذى التمر البوالى  
لك التجريب أجربة خوالى  
عليك وجار بالنوب الثقال

<sup>١</sup> نوح الطيب ٤ / ص ١٧

<sup>٢</sup> نوح ٤ / ص ١٧، ١٨.

نوح ٤ : ١٨.

وهى قصيدة جيدة ، لعل أحسن ما فيها أسلوب التعريض والتلميح الذى استغله الشاعر فى مهارة . فهو لم يشأ أن يصرح تصريحاً مباشراً بداء الجرب الذى أصاب مهجوه ، ولم يسف أو يقذع فى استغلال هذه الصفة : وإنما عرض بها تعريضاً مقبولاً بدا فى إكثاره من استخدام مادة ( جرب ) فى ألفاظه كقوله ( تجرب - تجربة - التجارب - الجربياء .... إلخ ) حتى لا يكاد يخلو بيت من وجود لفظة أو أكثر تتردد فيها هذه المادة .

ونرى ( المنفتل ) شاعر البيرة فى عصر الطوائف يستغل صفة ضعف البصر عند أحد الشعراء فيقول فى هجائه : <sup>(١)</sup>

إن كنت أخفش عيين      فإن قلبك أعمى  
فكيف تنثر نثرأ      أم كيف تنظم نظماً

وكما استغل الشعراء العيوب الخلقية فى أضرابهم ، استغلوا أيضاً ما فى ألقابهم من صفات تدعو للهزاء والسخرية ، وتفننوا فى تصيد أوجه الشبه بين هذه الألقاب وبين ما تدل عليه فى الأصل وعقدوا صلوات طريفة بين الطرفين فمن ذلك قول بعضهم فى شاعر كان يلقب بالبعيرة : <sup>(٢)</sup>

قالوا البعيرة يهجوننا فقلت لهم      ماذا دهيت به حتى من البقر  
هذا وليس بثور بل هو ابنته      وأين منزلة الأنثى من من الذكر

وكان أعداء ابن الأبياء يلقبونه بـ " الفار " . ووقعت مهاجاة بينه وبين أبى الحسن على بن شلبون البلمسى . فقال يعرض بلقبه : <sup>(٣)</sup>

لا تعجبوا لمضرة نالت جميع      مع الناس صادرة عن الأبار  
أو ليس فأراً خلقة وخليقة      والفار مجبول على الإضرار

<sup>(١)</sup> المغرب ٢ / ١٨٢ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٤ / ١٤٤ .

<sup>(٣)</sup> نفع ٢ / ٥٩٣ .

ويتلاعب ( المنفتل ) تلاعباً ظريفاً بلقب ابن ميمون الفراء فيقول : <sup>(١)</sup>

لابن ميمون قريض      زمهرير البرد فيه  
فإذا ما قال شعراً      نقتت سوق أبيه

وكانت المهن التي يمتنها بعض الشعراء مجالاً للمهاجاة بينهم ، كاتهام  
ابن الصائغ لابن زهر الحفيد - وكان طبيباً - بقتل مرضاه كقوله : <sup>(٢)</sup>

يا ملك الموت وابن زهر      جاوزتما الحد والنهاية  
ترفقا بالورى قليلاً      فى واحد منكما الكفاية

واستغل ابن زهر فى ابن الصائغ اشتغاله بالفلسفة فرماه بالزندقة وتوعده  
بما ينتظره من مصير مؤلم فقال : <sup>(٣)</sup>

لابد للزنديق أن يصلباً      شاء الذى يعصونه أو أبى  
قد وطأ الجدع له نفسه      وصوب الرمح إليه الشبا

<sup>(١)</sup> الدحيرة ١ / ١ - ص ٧٦٠ .

راد الصائر ص ١١١ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ١١٢ .

# الباب الثالث

الجوانب الفنية



سيدور حديثنا عن الجوانب الفنية فى شعر الهجاء حول نقطتين أساسيتين هما : لغة الهجاء ، وصوره الفنية . وإن كان هناك ظاهرتان جديدتان بالتسجيل لأنهما تدخلان فى نطاق الجوانب الفنية . أما الملاحظة الأولى فهى :

### الميل إلى المقطعات :

الغالب على شعر الهجاء الأندلسى هو ميل الشعراء إلى نظم أهاجيهم فى مقطعات قصيرة لا تتجاوز الأبيات القلائل ، وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح عند كثير من الشعراء على شاكلة السميسر ، ويشبهه فى هذه الناحية ابن صارة الشنترينى ، وقد تنبه ابن بسام إلى هذه الظاهرة فى شعره فقال إنه -ابن صارة- " أولع بالقصار فأرسلها أمثالا ، ورشق بها نبالا لاسيما قوارع كدرها على مرده عصره ، وسم بها أنوف أحسابهم ، وتركها مثلا فى أعقابهم " (١) . وأشار إلى ذلك مرة أخرى فقال : " ورأيت له عدة مقطوعات فى الهجاء ترمى على حصى الدهناء " . (٢)

وانتحاء المقطوعة أو اتخاذها قالباً للهجاء مذهب ارتضاه بعض الشعراء القدماء لأن ذلك أدعى إلى ذبوع الهجاء وحفظه وعلوقه بالأذهان ، والنأى به عن الإطالة والاستثقال ، وحين قيل للفردق : ما اختيارك للقصار ؟ قال لأنى رأيتها أثبتت فى الصدور ، وفى المحافل أحول وقيل للحطيئة : ما بال قصارك أكثر من طوالك ؟ قال : لأنها فى الآذان أولج ، وفى أفواه الناس أعلق . (٣)

وهذا الضرب من الهجاء القصير الذى نجد مثيلاً له فى الأدب اليونانى واللاتينى فيما يسمى *Epigram* ، قد انتشر أيضاً بصورة واضحة فى القرن الثانى وما بعده " لأن طبيعة الحياة دعت إلى عدم الإطالة فى القصائد عموماً ،

(١) الدخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٣٤ .

(٢) نفسه ٢ / ٢ / ص ٨٣٥ .

(٣) الأغاني ٢ / ٢٣ .

فى حىن أن الهجاء كان يستلزم ذلك ضرورة لىبلغ الشاعر بأبىاته القليلة التى ىركز فىها معانى محددة ما ىرجوه من سرعة إىلام لهجو ، وما ىتمناه من سرعة انتشار هذه الأبىات بىن جماهىر الناس " (١)

فاتجاه أغلب شعراء الأندلس إلى نظم الهجاء فى مقطوعات قصيرة إنما كان امتداداً أو استمراراً لهذا الاتجاه الذى اختاره بعض الشعراء القدماء من أمثال الحطىئة وجرىر والفردق .

### **التأثر بمذاهب المشاركة فى الهجاء :**

وهذه الظاهرة ترتبط بسابقتها ارتباطاً وثيقاً ، فإذا كان نظم أكثر الأهاجى الأندلسية فى مقطعات امتداداً لتىار قديم ، فإن كثيراً من شعراء الأندلس تأثروا بمذاهب المشاركة فى الهجاء ، فركب بعضهم طريقة الحطىئة فى هجاء الذات ، وكلف أكثرهم بطريقة ابن الرومى فى التصوير الهزلى أو الكارىكاتىرى ، وتأثر آخرون بطريقة ابن حجاج وابن سكرة فى السخف والإحماض ، وترددت أصداء جرىر والفردق فى الهجاء الأندلسى وإن كانت بصوت خافت ، ولم يقتصر هذا التأثير على الشعر وحده ، بل إنه وجد طريقه إلى النثر أيضاً ، وظهر ذلك بشكل واضح فى الرسالة الهزلية التى انتحى فىها ابن زىدون طريقة الجاحظ فى السخرىة .

<sup>١</sup> الشعر فى القرن الثانى ص ٣٠١ .

# الفصل الأول

## لغة الهجاء

- الميل إلى السهولة والبساطة
- النزوع إلى الشعبية
- التأثر بالثقافات الشائعة
- استلهام التراث
- الاحتفاء باللغة



## لغة الهجاء :

تتباين لغة الشعر من موضوع إلى آخر ، فلغة الغزل بما فيها من رقة وعذوبة وسلاسة تختلف عن لغة المدح بما فيها من قوة وجزالة وفخامة ، وقس على ذلك موضوعات الشعر الأخرى ، فلكل موضوع لغة تناسبه وتوائمه .  
ولما كان فن الهجاء يستمد خصائصه ووجوده من عاطفة الغضب ، فمن الطبيعي أن تنعكس هذه الخاصية على لغته ، فتأتي مشحونة بالحدة والتوتر والانفعال ، وتلك صفة عامة تتميز بها لغة الهجاء في كل عصر ، غير أن هناك سمات فارقة تختلف باختلاف البيئات والعصور ، فإذا كانت لغة الهجاء الجاهلي تتصف بالعنف والقوة ، وتستمد مفرداتها وألفاظها وتراكيبها من طبيعة البيئة الجاهلية بما فيها من صراع ومعارك ، فإن لغة الهجاء الأندلسي قد اتخذت وجهة أخرى تبعاً للتطور الحضاري والزمني ، فتأثرت بأساليب الحضارة ، وثقافة العصر ، وخضعت لمقتضيات البيئة المتحضرة التي اختلفت اختلافاً بيناً عن البيئة القديمة بما فيها من بداوة وخشونة ، ومن ثم نستطيع أن نجمل خصائص لغة الهجاء الأندلسي فيما يلي :

### الميل إلى السهولة والبساطة :

حرص الشعراء الأندلسيون على أن ينظموا أهاجيهم في لغة بسيطة سهلة لا توغر فيها ولا إغراب ، تمشياً مع الذوق الحضري وما يستتبعه من رقة وسلاسة ولكي يضمّنوا لها الذبوع والانتشار على ألسنة الناس ، فاقتربت لغة الهجاء من لغة الحياة اليومية ، واقتربت من النثرية إلى حد بعيد ، وتضمنت العبارات والألفاظ التي تتردد على ألسنة العامة في مقام التخاصم أو التشائم مثل عبارة ( فلان أعمى القلب ) التي يرددها المنفتل في قوله يهجو الأخفش الشاعر :<sup>(١)</sup>

<sup>(١)</sup> المعرب ٢ / ١٨٢ .

إن كنت أخفش عين      فإن قلبك أعمى  
فكيف تنثر نثرأ      أم كيف تنظم نظماً

وهذه اللغة السهلة ذات التراكيب النثرية والتي تشبه لغة الكلام العادى  
نلمسها أيضاً فى قول ابن الياسمين يهجو أبا الحجاج بن نمرى الفاسى : <sup>(١)</sup>

إنما الشأن فقيه      عالم ليس يعلم  
لا تراه الدهر إلا      بغريم الناس مغموم  
وإذا صلى رياء      كان فيها مثل أبكم  
ذا جوابى وهو ظلم      بك والبادئ أظلم

ويستخدم ابن الخطيب تعبيراً مألوفاً يجرى على ألسنة الدهماء ، ولا يزال  
يتردد فى أيامنا هذه ، فيقال ( فلان يأكل باليسار وباليمين ) دلالة على ما  
يتصف به من شره وطمع ونهم ، فيقول ابن الخطيب فى هجاء رجل يحتال  
على الولاية : <sup>(٢)</sup>

حلفت لهم بأنك ذو يسار      ودو ثقة وبر فى اليمين  
ليستندوا إليك بحفظ مال      فتأكل باليسار وباليمين

### النزوع إلى الشعبية :

الهجاء فن واقعى يفرخ فى أوساط العامة ويذيع وينتشر على ألسنة  
الدهماء ومن ثم فقد جنحت لغة الهجاء إلى الشعبية فى أساليبها وألفاظها  
ومعانيها ، وتمثل ذلك فى إكثار الشعراء من استخدام ألفاظ السباب المتداولة  
على ألسنة العامة ، وصاغوا أهاجيهم فى قوالب شعبية لتكون أدعى إلى الذيوع  
والرواج ، فمن ذلك هذه التعبيرات التى يرددها ابن الخطيب فى هجائه للوزير  
ابن أبى الفتح والتى لا تخرج عن الشتائم التى تتردد على ألسنة العامة : <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> الغمون البانعة ص ٥٠ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٦ / ٤٦٩ .

نفسه ١٤١ / ٥ .

يا مفرط الجهل والغباوة لا  
يا ناقص الدين والمروءة والعنف  
يا ولد السحق غير عكنتم  
يا بغل طاحونة يدور بها  
يحسب إلا من جملة البقر  
لـ ومجرى اللسان بالهدر  
حديثه يا ابن فاسد الدبر  
مجتهد السير مغمض البصر

ومن أمثلة هذه التعبيرات الشعبية قول حبلان الرندي : (١)

لا تفرحن بولاية سوغتها  
وقول أبي عامر ابن الأصيل : (٢)

أكرم به من قائد ماجد  
يصلح للحرث ورعى العجول

وتتمثل هذه النزعة إلى الشعبية أيضاً في استخدام الأمثال الشائعة ، كما  
تتمثل في الإشارة إلى بعض العادات المستمدة من البيئة وواقع الحياة اليومية ،  
على نحو ما يبدو في قول الغزال : (٣)

فديتك ماذا نحسب المرء صانعاً  
يدق خلاياها ويأكل شهدها  
فقلت وماذا يصنع الدب بالنحل  
ويترك للدبان ما كان من فضل

ونلمس ذلك قول أبي عامر بن الأصيل : (٤)

من كل حراث له لحية  
تدهن بالشحم وبالزيت

ويشير القلظ إلى عادة الاستيقاظ على صياح الديكة فيقول : (٥)

يا ديك مالك لم تصرخ فتنبهنا  
لقد أسأت بنا ديك الدجاجات

(١) نفع الطيب ٤ / ١٣٣ .

(٢) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٣) قضاة قرطبة ص ٨٦ .

(٤) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٥) طبقات الزبيدي ص ٣٠٠ .

## التأثر بالثقافات الشائعة :

وتأثرت لغة الهجاء بالثقافات الشائعة على اختلاف أنواعها ، فتسربت مصطلحات النحاة إلى لغة الهجاء ، كقول ابن الياسمين في هجاء الجرأوى :<sup>(١)</sup>

يا أعرق الناس في نسل اليهود وما      تأبى شمائله التفصيل للجمل  
خدها بحكم اجتماع الدم واحدة      تغنى عن النعت والتوكيد والبدل

واستعان بعض الشعراء بصيغ التصغير للتحقير من شأن المهجو كقول إبراهيم بن خلف في هجاء أحد الكتاب :<sup>(٢)</sup>

أعرضت عنه فدلانى كويتبه      من الغرور بحبل جد مضعوف  
وأكثر الشعراء من الإشارات الدينية والتلويح ببعض الآيات القرآنية كقول ابن حجاج الإشبيلي :<sup>(٣)</sup>

على معاذ قرون لوبعابنها      فرعون ما قال: أوقدلى على الطين<sup>(٤)</sup>  
وقول أبى عامر بن الأصيل :<sup>(٥)</sup>

يحسد فرعون على قوله      " وهذه الأنهار من تحتى "  
ويقتبس الرندى أيضاً من القرآن الكريم فيقول فى أحد الثقلاء :<sup>(٦)</sup>

تزلزلت الأرض زلزالها      فقلت لسكانها ما لها  
فقالوا أنا أبو خالد      فأخرجت الأرض أثقالها

(١) دمية القصر ١ / ١٥٥ .

(٢) زاد المسافر ص ١٠٣ .

(٣) نفسه .

(٤) إشارة إلى ما جاء فى سورة القصص آية ٣٨ ( وقال فرعون ... فأوقدلى يا هامان على الطين ) .

(٥) خريدة القصر ٢ / ٣١١ .

(٦) أبو البقاء الرندى ، شاعر الرثاء فى الأندلس تأليف الدكتور رضوان الداىة ص ٧٨ .

ويعمد شاعر آخر إلى التلويح بما ورد في القرآن الكريم من آيات في التهديد والوعيد ، فيقول في شأن المتخاذلين عن الجهاد .<sup>(١)</sup>

في سورة الحشر آيات مفصلة      في شأنكم أنزلت لم تعدكم عددا  
نعم وفي الكهف في العشرين خاتمة      تقضى عليكم بأن لا تفلحوا أبدا

وكلف الشعراء بتضمين الأحاديث الدينية كقول ابن سهل<sup>(٢)</sup> يشير إلى الحديث المشهور : " امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار " .

أيام تطفلا في الشعر يبدو      على وجناته طفل المساء  
إذا الضليل يوم الحشر وافي      فليست بداخل تحت اللواء

ويضمن ابن ياسمين حديثاً آخر فيقول في هجائه لشاطبة :<sup>(٣)</sup>

شاطبة قرية ضنينة      ليست لمن أمهامعينة  
تهتضم الطيب اهتضاماً      وتأنف الدهر أن تعينه  
والخبث المحض تصطفيه      ضداً لما جاء في المدينة<sup>(٤)</sup>

### استلهام التراث :

التفت شعراء الهجاء الأندلسيين إلى تراث القدماء ينهلون منه ، وتمثل ذلك في تضمينهم أو استعارتهم بعض المعاني الذائعة الصيت فالأبيض يلوح إلى معنى جرير المشهور في هجاء الأخطل فيقول في هجائه لشخص يدعى ابن حمدين :<sup>(٥)</sup>

يريد ابن حمدين أن يعتفى      وجدواه أنأى من الكوكب  
إذا ذكر الجود حك استه      لبشت دعواه في تغلب<sup>(٦)</sup>

البيان المغرب ص ١١٠ .

ديوانه ص ٦٥

<sup>(٢)</sup> زاد المسافر ص ١٢٧ .

إشارة إلى الحديث المائل ( المدينة بفي حثها كما بفي الكير خبثه ) .

سند ١٢٨ / ٢

حك اسد ويمثل الأمثالا

والمعلى إذا نحج للقرى

شير على قول جرير :

ويضمن الأعمى المخزومي بيتاً شهيراً فيقول :<sup>(١)</sup>

لابن القصير مع ابته وصغيره      حجج بها سوق الفسوق تقوم  
ألقاه يوماً تحت أسود حالك      فبدأ يعاتبه لئذا ويلوم  
فأجابته متعجباً وجوابه      بيت على مر الزمان قديم  
لأنه عن خلق وتأتى مثله      عار عليك إذا فعلت عظيم

ويردد ابن الأبار أحد معاني النابغة المشهورة فيقول :<sup>(٢)</sup>

قل لابن شلبون مقال تنزه      غيرى يجاريك الهجاء فجار  
إننا اقتسمنا خطيننا بيننا      فحملت برة واحتملت فجار

ويتمثل استلهام التراث أيضاً في تضمين الأمثال العربية القديمة كقول أبي

حريز محفوظ بن مرعى الشريف في هجاء مرج الكحل :<sup>(٣)</sup>

مالي أرى شعر مرج كحل      أشام من ناقة البسوس

### الاحتفاء باللغة :

واحتفى بعض الشعراء بلغتهم وتأنقوا فيها مظهرين بذلك مهارتهم

وتفوقهم اللغوى ، واتخذ هذا الاحتفاء صوراً عديدة كان يعتمد بعض الشعراء إلى

طريقة التلاعب اللفظي نحو قول ابن خفاجة الذى مر بنا من قبل :<sup>(٤)</sup>

ما إن درى ذاك الدميم وقد شكا      من نيل ممستدح ورمح جواد  
هل يشتكى وجعاً به فى سره      بالسين أم فى صرة بالصاد

وكلف بعض الشعراء بتصحيح الألفاظ لتوليد معان جديدة كقول

الحضرمي فى هجاء شريش :<sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> زاد المسافر ص ١١٨ .

<sup>(٢)</sup> نفع الطيب ٢ / ٥٩٣ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١٢٤ .

<sup>(٤)</sup> ديونه ص ٢٣٥ .

<sup>(٥)</sup> المغرب ١ / ٣٠٦ .

شـريش ما أنت إلا تصـحيف شـريـبين

ويتلاعب ابن الخطيب بكلمة ( فتح ) فيقول : <sup>(١)</sup>

يا ابن أبي الفتح نسبت عكست فلا بفتح أنت ولا ظفر

وبرع بعض الشعراء فى انتقاء الألفاظ المعبرة عن المعنى مثل كلمة ( فسكل ) التى تعنى الفرس الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل والتى استخدمها إبراهيم بن خلف فقال : <sup>(٢)</sup>

فجاء فسكل من لاقيت متنداً أخاعنان عن الأحرار مصروف

وقد يعمد شاعر إلى حرف معين يديره فى أغلب ألفاظ البيت أو القصيدة مثل تكرار ( القاف ) فى قول الأبيض : <sup>(٣)</sup>

وصده عن قراع الدارعين بها قرع القواقير أفواه الأباريق

وقد وظف ابن العطار القرطبي اللغة لموضوعه توظيفاً جيداً فى القصيدة التى عرضناها من قبل ويقول فى مطلعها : <sup>(٤)</sup>

أجل يا نافث السحر الحلال أنانى منك نظم كاللآلى

ويعرض فيها بما أصاب شاعر آخر من داء الجرب ، ويستغل مادة ( جرب ) المعجمية على اختلاف معانيها ودلالاتها ، ويصوغ منها ألفاظاً ومعانى كثيرة تتردد فى كل بيت بل قد تتردد فى البيت الواحد غير مرة ، ويصبح حرف الجيم هو مفتاح القصيدة والمهيمن على كل أبياتها .

واعتمد بعض الشعراء على عنصر ( التورية ) فى هجائهم ، كقول ابن رضوان المالقي يورى بكلمة ( مالك ) :

<sup>(١)</sup> نفع الطيب ٥ / ١٤٠ .

<sup>(٢)</sup> دمية القصر ١ / ١٥٥ .

<sup>(٣)</sup> زاد المسافر ص ١١٢ .

<sup>(٤)</sup> نفع العيب ٤ / ١٧ .

لا تعرج على الجنان بسكنى      ولتكن ساكناً بمخزن مالك  
ويورى بكلمة ( العود ) التى من معانيها ( البعير ) فى هجاء رجل يلقب  
بهذا اللقب فيقول :

لئن عدت نادونى بغيراً كمثلها      فقلت له لا تخش فالعود أحمد  
ولا بن خفاجة بعض مقطعات فى الهجاء نلمح فيها أثر الصنعة اللفظية ،  
كاستخدام المحسنات ، والتزام مالا يلزم مثل قوله .<sup>(١)</sup>

أنى تطاوتلنى ودونى بسطنا      جد يساعدنى وجد يسعد  
هاقد حللت وللتقلل غاية      فى حيث يشرف بى ويشرف مقعد  
طلت السماك فهل سمعت بحلية      ترقى بها نحو السماك وتصعد  
إلزم ثراك وعض طرفك ذلة      فمكانتى أنأى عليك وأبعد  
ولئن طربت وقد عرتنى وعكبة      والليث يورد والمهند يردد  
فقد استطلت على الكلام بمقول      بك من ذلاقته المقيم المقعد

وتبدو هذه الصنعة أيضاً فى قوله فى هجاء أسود حسود :<sup>(٢)</sup>

يا جامعاً بمساويه وطلعته      بين السوادين من ظلم ومن ظلم  
أمثله حسداً فى مثله جسداً      لقد تألف بين النار والفحم

ومن مظاهر هذه الصنعة كلف بعض الشعراء بتجنيس القوافى لتوليد معان  
جديدة وإثراء شعرهم بالموسيقى كقول أحدهم :<sup>(٣)</sup>

هم البرابر لا نرجو نوالهم      وسل من الله تعجيل النوى لهم

<sup>(١)</sup> ديوانه ص ١٤٥ .

<sup>(٢)</sup> نسه ص ٧٧ .

<sup>(٣)</sup> أدب الفقهاء ص ١٧٣ .

## **الفصل الثانى**

### **صور الهجاء الأندلسى**

- التآثر بالبيئة
- الثقافات الجديدة
- التراث الدينى
- الموروث القديم



## صور الهجاء الأندلسي :

شاعر الهجاء فنان ذو طبيعة خاصة ، فهو يشبه الممثل الذي يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس ، والإضحاك - ولا شك - مهمة شاقة ، وموهبة لا تتأتى لكل إنسان ، وكذلك الهجاء ، فهو فن عسير ، ليس بمقدور أى شاعر أن يطرقه إلا إذا رزق قدرة خاصة ، وعيناً لاقطة ، وخيالاً نافذاً ، فالهجاء ليس وصفاً ينقل العالم الخارجى فى مهارة وإتقان ، أو مصوراً يحمل فى يده آلة تصوير تلتقط الصور بدقة وبلا إضافات ، ولكن الهجاء فنان ذو خيال خلاق مبدع تذوب المشاهد أمامه وتتلاشى وتتحطم لكى تخلق من جديد ، فهو لا ينقل الصورة كما هى ولكنه يضوعها لموهبته ، ويحتال عليها بوسائل كثيرة ، فيعمد إلى تكبيرها أو تحويرها ، أو تشخيصها ، أو قلبها ونقضها ، أو إضافة زوايا جديدة إليها ، فتصير أقرب إلى الصورة الهزلية الساخرة التى تبعث على الضحك ، ولكنها فى الوقت نفسه تثير الاشمئزاز والنفور ، ولا مجال فى هذه الصور لإعمال الفكر أو قدح الذهن أو الإسراف فى الخيال ، لأن الهجاء " يعتمد فى تأثيره على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول ما يقرأه ، فهو كالنكتة ، إذا لم تفهم إلا بعد تفكير فترت وبردت وذهب بريقها .. ولذلك كان أصحاب الصنعة من الشعراء أقل الناس توفيقاً وإصابة فى هذا الفن " .<sup>(١)</sup>

وإذا كانت الصورة من العناصر الهامة التى تقوم عليها القصيدة ، فإنها تعتبر أهم العناصر التى تقوم عليها قصيدة الهجاء ، ويمكن أن نجمل أهم خصائص صور الهجاء الأندلسي فى النقاط التالية :

### التأثر بالبيئة :

استوحى الهجاءون كثيراً من صورهم من البيئة التى عاشوا فيها على اختلاف مظاهرها وتنوع مشاهدتها . فأثر البيئة المسيحية يتضح فى هذه الصورة

<sup>(١)</sup> الهجاء والبهاءون فى الجاهلية ص ٣٤ .

التي يرسمها أبو إسحاق الإلبيري لأحد الثرثارين ، وفيها يشبه لسانه بجرس  
أو بناقوس يرن في إحدى البيع .<sup>(١)</sup>

ولقد عجبت لمؤمن في شذقه      جرس كناقوس ببيعة كافر  
ويبدو أثر البيئة الحربية واضحاً في قول الغزال يهجو امرأة فيشبه  
صلعتها ببيضة المحارب التي تلمع بين صلال السيوف :<sup>(٢)</sup>

كانها بيضة الشاري إذا برقت      بالمأزق الضنك بين المشرفيات  
ويبدو هذا الأثر في قول ابن صارة في هجاء شخص قبيح الفم والثنايا  
فيشبه أسنانه بحد السيف :<sup>(٣)</sup>

يبدو لظرفك منها حين تبصرها      سن كمثل مسن الصيقل الفرد  
ويستوحى المنفتل صورة البيئة الأندلسية بما فيها من صقيع وزمهرير  
فيقول في هجائه لابن ميمون الفراء :<sup>(٤)</sup>

لابن ميمون قريض      زمهرير البرد فيه  
فإذا بيست بيتاً      نفقت سوق أبيه

واستوحى الشعراء صورهم من واقع حياتهم ومما تحفل به معيشتهم من  
مظاهر وعادات وتقاليد ، فابن هذيل يشبه تهدل أنف ابن قزمان بالقدم  
فيقول :<sup>(٥)</sup>

يقرب وجهاً منك في خلق قرية      كأن انهدال الأنف منه قدم

<sup>(١)</sup> ديوان الإلبيري ص ٨٠ .

<sup>(٢)</sup> يحيى بن الحكم الغزال ، تأليف صالح البنداق ص ١٨٥ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ١ / ٢ / ص ٧٦٠ .

التشبيهات ص ٢٤٩ .

ويشبه ابن وهيب أنف أحد الأشخاص يعود المستراح كما يشبه وجهه في  
قبحه وشؤمه بإقبال الرزايا : (١)

ووجهه مثل إقبال الرزايا وأنف مثل عود المستراح

ويستمد جعفر بن إبراهيم اللورقي إحدى صورته من عادة انتشرت بين  
الناس وهي جدُّ فتيل الذبال ليصبح أكثر توهجاً وإضاءة ، فيقول في أحد  
أصدقائه : (٢)

هو السم الزعاف لشاربيه وإن أبدى لك الأرى المشورا  
ويوسعني أذى فأزيد حلماً كما جد الذبال فزاد نورا

ويسترفد ابن خفاجة إحدى صورته من أحد الأمراض الشائعة في عصره  
وهو مرض ( الفالج ) فيقول في ذم خط واستبراد شعر : (٣)

لحي الله أبياتاً بعثت ذميمة فلو كن أعضاء لكن مخارجا  
معوجة أسطارها وحروفها كان بها من برد لفظك فالجا

ويلتفت الغزال في هجائه لأحد البخلاء إلى عادة نزع الضرس التي  
يمارسها الحجام فيقول : (٤)

فلم يعطني من ماله غير درهمه تكلفه بعد انقطاع رجائي  
كما اقتلع الحجام ضرساً صحيحة إذا استخرجت من شدة بكاء

ويستحضر محمد بن شخيص صورة النفخ في ( البوق ) أو الضغط في  
أنبوب الكير فيقول في هجائه لقوم جبلوا على البخل : (٥)

كلما جنتهم لأنشد شعري طمعاً من نوالهم باليسير

(١) التشبيهات ص ٢٤٩ .

(٢) خريدة القصر ٢ / ١٤٥ .

(٣) ديوانه ص ٣٥٣ .

(٤) التشبيهات ص ٤٠ .

(٥) التشبيهات ص ٢٤٢ .

فكأنى وضعت فلكة بوق      فى فمى أو وضعت أنبوب كير  
ويهبجو أحمد بن نعيم امرأة فيشبه انتفاخ وجهها بإحدى آلات النفخ  
الموسيقية فيقول : <sup>(١)</sup>

كأن كلتا صفحتى وجهها      ركبنا من كوبتى نافخ  
ويلتفت أبو عبد الله بن القزاز إلى صورة غطاء الرأس فيقول فى هجائه  
لأحد الأشخاص : <sup>(٢)</sup>

تبدلت شرطياً بصاحب شرطة      كريم نجار النفس ممتنع الجار  
فأصبحت كالطرطور كان لسيد      فأخلق حتى صار فى رأس عيار  
وبستوحى شاعر آخر عادة الصيد فى إحدى صورته فيقول فى هجاء  
قينة : <sup>(٣)</sup>

وصيدها الأعراد فى خلوة      ينسبك من صيد السنانير  
ويشبهه عبيد الله المفجع أحد أصحابه الثقلاء بنهار الصيف فى طوله وما  
يحدثه فى النفوس من ضيق وخمول فيقول : <sup>(٤)</sup>

لنا صديق مليح الوجه مقتبل      وليس فى وده نفع ولا بركة  
شبهته بنهار الصيف يوسعنا      طولاً ويمنع عنا النوم والحركة  
وحين يسخر العتبي من بغلة الرصافى التى تسير ببطء ومشقة يستحضر  
صورة العروس حين يحملها أحد أقربائها إلى زوجها ويسير بها سيراً هادئاً  
متريناً . <sup>(٥)</sup>

يمشى بها الجهد رويداً كما      يهدى عروس الحى مهديها

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٢ . والكوبة : الطبل الصغير . أو آلة موسيقية تنفخ بالنفث .

<sup>(٢)</sup> الدخيرة ١ / ٢ / ص ٨٠٤ .

<sup>(٣)</sup> التشبيهات ص ٢٤٦ .

<sup>(٤)</sup> جدوة المقتبس ص ٣٠٤ .

التشبيهات ص ٢٦٢ .

ويهجو عبد الله بن فرح طفيلياً فيشبهه اهتدائه إلى موضع الطعام بحاسة الشم القوية عنده ، بشخص يسير ليلاً مهتدياً بنجوم السماء : <sup>(١)</sup>

يقتاده شم القطار بأنفه      مثل اقتياد النجم للحيران  
ويسترفد ابن فرح صورة الخيل الصائمة تاهباً ليوم الرهان في هجائه  
لطايفة من الطفيليين يلقبون بالإماميين : <sup>(٢)</sup>

فترى الإماميين حول خيامه      كالخيل صائمة ليوم رهان  
وحين يهجو أحد الشعراء أميراً ظالماً يتظاهر بالتقوى ويكثر من التسبيح  
يشبهه بالجزار الذي يردد اسم الله وهو يتأهب للذبح : <sup>(٣)</sup>

قد يلينا بأمير      ظلم الناس وسبج  
فهو كالجزار فيهم      يدكر الله ويدبج

وعمد الهجاءون إلى استيحاء صورهم من أجواء الحيوانات فقارنوا بينها وبين مهجويهم في الشكل والهيئة والطبع للتقليل من شأنهم والإزاء بهم ، وإظهارهم في شكل هزل يدعو إلى الضحك ، وبرعوا في هذا الجانب براعة كبيرة ، فالمخزومي الأعمى يشبه عيني شخص أحول بعنزتين تنتطحان : <sup>(٤)</sup>

وتزور إحدى مقلتيه لأختها      كأنهما عنزان تنتطحان  
وهيئة أحد الثقلاء تذكر أبا الفرج الرشاش بصورة الفيل : <sup>(٥)</sup>

ما إن جلست إلى جليس مرة      إلا كأن عليه منك الفيلا

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٥ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ص ٢٤٥ .

<sup>(٣)</sup> نفع الطيب ٦ / ٢٦٣ .

<sup>(٤)</sup> خريدة القصر ٢ / ٢٥٦ .

<sup>(٥)</sup> التشبيهات ص ٢٤٧ .

وتتردد صورة ( الفحل ) و ( التيسر ) في قصائد الهجاء على نحو ما يبدو  
في قول ابن الجدي في هجاء ملوك الطوائف .<sup>(١١)</sup>

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه له خوار ولكن حشوه خور  
ويقول أبو الفرج الرشاش في هجاء أحد الأشخاص :<sup>(١٢)</sup>

إنك لا تعرف الجميل ولا تفرق بين القبيح والحسن  
إن الذي يرتجى نذاك لكالحا لب يسأمن شهوة اللبن

ويشبه ابن الخطيب ابن أبي الفتح ببغل يدير الطاحونة وهو مغمض  
العينين :<sup>(١٣)</sup>

يا بغل طاحونة يدور بها مجتهد السير مغمض البصر  
ويهجو إسماعيل بن بدر مغنية قبيحة الصوت ، فيتخيل أن كلاباً  
تهارشت في حلقومها ، ويشبه صوتها بنقيق الضفادع :<sup>(١٤)</sup>

فوالله ما أدري كلاباً تهارشت بحلقومها أم نقنت بي ضفادع  
ويستحضر الرشاش صورة القرد بما توحى به من دمامة وما ترمز إليه من  
إيحاءات جنسية ، فيقول في هجائه لأحد الأشخاص :<sup>(١٥)</sup>

ووجهه يحكى لنا القرد في صورته قبحاً وفي نعته

<sup>(١١)</sup> أعمال الأعلام ص ٢٤١ .

<sup>(١٢)</sup> التشبيهات ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

<sup>(١٣)</sup> نوح الطيب ١٤١ / ٥

<sup>(١٤)</sup> التشبيهات ص ٢٤٥ .

<sup>(١٥)</sup> نوح ص ٢٥١

## التأثر بالثقافات الجديدة :

تسللت أنماط الثقافات والعلوم الجديدة إلى صور الهجاء ، كقول أحدهم  
في هجاء مغنية : <sup>(١)</sup>

كأنها والعود فى حجرها      حاسبة تنسبى بمجدور  
ويسخر ابن عبد ربه من مائدة أحد البخلاء فيشبهها بالنقطة التى يلتف  
حولها المدعوون فى دائرة : <sup>(٢)</sup>

ومائدة جسمها لطفه      يدل على صفقة خاسرة  
فتلك لنا قد غدت نقطة      ونحن عليها نرى دائرة

## التراث الدينى :

واتكأ الهجاءون على التراث الدينى ، فاسترفدوا منه كثيراً من صورهم ،  
فمن ذلك قول أحد الشعراء فى هجاء امرأة قبيحة الوجه : <sup>(٣)</sup>

تبدو بوجه ما رآه امرؤ      إلا تمنى النفخ فى الصور  
ويستحضر ابن الخطيب صورة أصحاب الرقيم فى هجائه لأهل عصره  
فيقول : <sup>(٤)</sup>

أدور فلا أرى إلا نياما      كأنى بين أصحاب الرقيم  
ويشبه المنفقل صاحب لبلة فى عنقه وقسوته بخدام جهنم : <sup>(٥)</sup>  
إن ابن يحيى ضحكة فتوسم      واذكر به خدام نار جهنم

<sup>(١)</sup> التشبيهات ص ٢٤٦ .

<sup>(٢)</sup> نفسه .

<sup>(٣)</sup> التشبيهات ص ٢٤٦ .

<sup>(٤)</sup> نفسه ص ٦١٨ .

<sup>(٥)</sup> الذخيرة ١ / ٢ / ص ٧٦١ .

وأكثر الشعراء من اقتباس الصور المستمدة من القصص الديني كقول ابن خفاجة في غلام وجهه في حاجة فأبطأ فيها : <sup>(١)</sup>

أبطأ في سعيه فحاكي      في حالتيه غراب نوح

ويسخر سعيد بن العاص من شخص أخلعه ثوبه فيقول <sup>(٢)</sup>

وثوبه في سالف الزمان      خلعة فرعون على هامان

ويقتبس ابن صارة إحدى صوره من قصة سليمان فيقول في هجاء شخص قبيح الفم : <sup>(٣)</sup>

كان جن سليمان بنوا فمه      بنيان تدمر بالصفاح العمد

ويسترفد السميصر من قصة إبراهيم في هجائه لأحد البخلاء : <sup>(٤)</sup>

جاد عن بخل على      تلك في العالم ندره  
فهي كالنار اعترتها      عصر إبراهيم قره

ويشير إلى تفجر المياه من الصخر في قصة موسى فيقول : <sup>(٥)</sup>

جاد نزرأ فقبلنا      درهم السالط بـدره  
عجب الناس وقالوا      كيف نيلت منه ذرة  
هل رأيتم بعد موسى      أحداً فجسر صخره

ويسترفد إبراهيم بن أغلب الخولاني صورته مما ورد في سورة ( المسد ) فيقول : <sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> ديوانه ص ٣٧٤ .

<sup>(٢)</sup> التشبيهات ص ٢٥٢ .

<sup>(٣)</sup> اللخيرة ٢ / ٢ / ص ٨٤٥ .

<sup>(٤)</sup> خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

<sup>(٥)</sup> نفسه ٢ / ١٦٨ - ١٦٩ .

خريدة القصر ٢ / ١٦٨ .

بعلا فكانت له حمالة الحطب  
فكان كالكافر الأشقى أبى لهب  
رجمتموها اتباع الشرع بالحصب

سائل بقفصة هل كان الشقى لها  
تبت بدا كافر بالله أهبها  
لما زنت وهى تحت الأرض محصنة

### الموروث القديم :

واستوحى بعض الهجائين صورهم من التراث القديم . كصورة الطلل  
والرسوم التى استحضرها سليمان بن عبد الله البردى فى قوله

كان مرجيه المؤمل واقف يسائل منه صامتاً غير ناطق  
على طلل من ساكنى الحى باند  
كمتخبر جهلا رسوم المعاهد

وتتردد صورة الرسم القديم أيضاً عند ابن الخطيب .<sup>(١)</sup>

عفت أعلام آدابى وعلمى بهم فبقيت كالرسم القديم  
وأكثر بعض الشعراء من تديد الصور والتشبيهات القديمة كقول ابن  
حربون :<sup>(٢)</sup>

فمزقتهم شملهم فى البلاد كأنهم جمل أجرب  
ويشبه الغزال كاهل امرأة بسنام العيس الذى أصابه الهزال من كثرة السفر  
والترحال -- وهى صورة قديمة - فيقول :<sup>(٣)</sup>

وكاهل كسنام العيس جرده طول السفر والحاح القتودات  
ويستعير أحمد بن نعيم إحدى صورده من البيئنة الصحراوية القديمة فيقول  
فى هجاء امرأة :<sup>(٤)</sup>

لو كنت نبتاً كنت من حرمل أو أكلت من الكامخ<sup>(٥)</sup>

(١) التشبيهات ص ٦١٨ .

(٢) المن بالإمامة ص ٣٦١ .

(٣) يحيى بن الحكم الغزال للسنداق ص ١٨٥ .

(٤) التشبيهات ص ٢٤٠ .

(٥) الحرمل نبت كالسمسم يمتنع على الأكلة . وفى ذلك يقول طرفة : ( هم حرمل أعيا على كل الأكل )  
والكامخ : نوع من الأدم تنعنه الأعراب .

## الصور المقذعة والمنفرة :

مال كثير من الهجائين في شعرهم إلى الإقذاع ، ولم يتورعوا عن سياغة الصور التي تخذش الحياء ، وتثير الاشمئزاز والنفور ، وسنجتزيء في ذلك ببعض الأمثلة للدلالة على شيوع هذه الظاهرة ، فمن صورهم المقذعة قول ابن صارة :<sup>(١)</sup>

له فم كحرفى شكل صورته " ترمى غوار به العبرين بالزبد "  
ويقول الأعمى المخزومي في رجل يطير لعابه إذا تكلم :<sup>(٢)</sup>

لا شيء أشبه من خسيس طباعه إن حققت بطباع أسد الماء  
يمتص أفواه ..... بفقحة ويبثها فى أوجه الجساء

ومن هذه الصور قول ابن شهيد فى أحد الكتاب :<sup>(٣)</sup>

وذو عرق ليس ماء الحياء ولكنه رشح فضل الجنابه  
جرى الماء فى سفله جرى لين فأحدث فى العلومه صلابه

ولم تسلم صور شاعر كابن خفاجة من صفة الإقذاع ، فحين كتب إليه ابن دراج النحوى شعراً يعرض فيه بسبه وقع ابن خفاجة على ظهر رقعتة بقوله :<sup>(٤)</sup>

ومعرض لى بالهجاء وهجره جاوبته عن شعره فى ظهره  
فلئن نكن بالأمس قد لطنابه فاليوم أشعارى تلوط بشعره

ومن الصور التي تثير التقرز والنفور قول السميسر فى هجاء المرية :<sup>(٥)</sup>

كانها طست نبر وبصق الدم فيه

<sup>(١)</sup> الذخيرة ٢ / ٢ / ٨٤٥ .

<sup>(٢)</sup> زاد المسافر ص ١١٧ .

<sup>(٣)</sup> ديوان ابن شهيد ص ٩٥ .

<sup>(٤)</sup> ديوانه ص ٣٥٢ .

<sup>(٥)</sup> نوح الغيث ٣ / ٣٩٠ .

ونقع على مثل هذه الصور المقززة في قول ابن صارة :<sup>(١)</sup>

فإذا شحافاه رأيت خنافساً      يأوين من فيه إلى المرحاض

وتلمسها أيضاً في هجاء المنفتل للأفوه الجزار :<sup>(٢)</sup>

تبدو على أضراسه صفرة      كأنه من فمه قد خرى  
حديثه أوحش من وجهه      وشعره يشبه ذاك الطرى

### الصور المعنوية :

واستمد بعض الشعراء صورهم من الأوصاف المعنوية ، ولهم في ذلك صور

جيدة كقول عبادة في رجل قصير القامة :<sup>(٣)</sup>

وصاحب لي كأن قامته      أقصر من يوم وصل معشوقى

وقول إدريس بن اليمان العبدري في لحية طويلة عريضة :<sup>(٤)</sup>

لو أنهادون السماء سحابة      لم تخترقها دعوة المظلوم

ونقع في هجاء الأندلسيين على كثير من الصور التي تتسم بالغرابة

والطرافة كقول ابن بليطة في ساق أحدب أسود اللون :<sup>(٥)</sup>

وإذا سعى بالكأس تحسبه      جعلاً يدحرج فص ياقوته

وكأنه والكأس فى يده      نجم رمى فى الجو غريته

وعلى هذا النحو تراوحت صور الهجاء الأندلسي بين الطرافة والإغراب

والميل إلى الإقذاع والتأثر بالبيئة والاتكاء على التراث الدينى والموروث القديم .

<sup>(١)</sup> الدخيرة ٢/٢/٨٤٥ .

<sup>(٢)</sup> نفسه ٢/١/٧٦٠ .

<sup>(٣)</sup> الدخيرة من ٢٤٨ .

<sup>(٤)</sup> المغرب ١/٤٠٠ .

<sup>(٥)</sup> الدخيرة ٣/١/٧٩٦ .



# الخاتمة



## الخاتمة

يمكن أن نجمل أهم نتائج هذه الدراسة في النقاط التالية :

**أولاً:** أن سوق الهجاء الأندلسي كانت راجحة بخلاف ما توهم كثير من الباحثين فتنوعت موضوعاته وتعددت ، ولولا إعراض بعض نقاد الأندلس عن إثبات الهجاء في مؤلفاتهم لظفرنا بقدر كبير من شعر الهجاء .

**ثانياً:** كان الهجاء السياسي أكثر اتجاهات الهجاء الأندلسي رواجاً وازدهاراً لارتباطه بدوافع سياسية فرضتها ظروف الأندلس وقد تنوعت موضوعات الهجاء السياسي فكان هناك هجاء الملوك والحكام والهجاء القبلي وهجاء اليهود وهجاء الفرنجة وهجاء البربر .

**ثالثاً:** اتسع مفهوم الهجاء الأندلسي وتطور تبعاً للتطور الحضاري ، فلم يعد الهجاء محدوداً بنزعة قبلية أو هجاء شخصي بل اتسع نطاقه فتوزع بين هجاء سياسي واجتماعي وملاحاة بين الشعراء وشمل هجاء المدن والمظاهر الحضارية والمغنين والعلماء ومال إلى الدعابة والتظرف تأثراً بروح الحضارة .

**رابعاً:** لم يعتمد الشعراء الأندلسيون في هجائهم إلى السب المباشر بل اتجه كثير منهم إلى رسم الصور الكاريكاتورية الساخرة التي تقوم على التجسيم والتضخم والبراءة في لمح الدقائق والعيوب التي تثير السخرية والإضحاك .

**خامساً:** لم يقتصر الهجاء الأندلسي على القصيدة الشعرية وحدها بل تجاوزها إلى النثر وإلى أشكال أدبية أخرى كالموشح والزجل .

**سادساً:** وجد شعراء أندلسيون قامت شهرتهم على الهجاء كالسييسر والأبيض وابن حزمون والمخزومي الأعمى وغيرهم .

**سابعاً:** لم ينفرد الشعراء وحدهم بفن الهجاء بل شاركهم فيه شواعر أندلسيات مثل نزهون ومهجة وولادة وغيرهن .



## المصادر والمراجع



## المصادر والمراجع :

- ١- ابن الأبار - حياته وكتبه - تأليف عبد العزيز عبد المجيد ط .  
تطوان ١٩٥٤ .
- ٢- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق  
محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٣٧٥ هـ .
- ٣- اختصار القدر المعلى فى التاريخ المحلى ، ابن سعيد ، تحقيق  
الإبيارى ، القاهرة ، ١٩٥٩ .
- ٤- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د. أحمد هيكل ، دار  
المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٥- أدب الفقهاء ، عبد الله كنون ، ط . دار الكتاب اللبنانى .
- ٦- أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، المقرئ ، تحقيق السقا  
والإبيارى وشلبى ، القاهرة ، ١٩٧٠ .
- ٧- أساس البلاغة ، الزمخشري ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- ٨- أعمال الأعلام فىمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، لسان  
الدين ابن الخطيب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- ٩- الأغانى ( ج٢ ) ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة .
- ١٠- ابن ريدون ، د. شوقى ضيف ( سلسلة نوابغ الفكر العربى ) ط. دار  
المعارف بمصر . الطبعة الثانية .
- ١١- أبو البقاء الرندى شاعر رثاء الأندلس . د. محمد رضوان الداية ، ط.  
مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٧٦

- ١٢- بدائع البدائ ، ابن ظافر ، ط. بولاق ، ١٢٧٨ هـ .
- ١٣- بغية الملتبس ، الضبى ، ط. مجريط ، ١٨٨٤
- ١٤- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الزاهن والهاجس ، ابن عبد البر القرطبى ، القسم الثانى ، تحقيق محمد مرسى الخولى ، ط. دار الكاتب العربى بالقاهرة .
- ١٥- البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . ابن عذارى :
- أ : القسم الثالث ، تحقيق هويس مرانده ، ط. تطوان ١٩٦٠ .
- ب : الجزء الثالث ، تحقيق ليفى بروفنسال ، باريس ، ١٩٣٠ .
- ١٦- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر سيادة قرطبة - د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ١٧- تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين - د. إحسان عباس ، بيروت .
- ١٨- تاريخ افتتاح الأندلس ، ابن القوطية ، ط. مجريط ، ١٨٦٨ .
- ١٩- تاريخ مسلمى أسبانيا ( الحروب الأهلية ) ، دوزى ، ترجمة د. حسن حبشى ، ط. دار المعارف ١٩٦٣ .
- ٢٠- تاريخ النقد العربى من القرن الخامس إلى العاشر الهجرى ، د. محمد زغلول سلام ، ط. دار المعارف . القاهرة ، ١٩٦٢
- ٢١- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، ابن الكتانى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الشروق . بيروت ١٩٨١

- ٢٢- التطور والتجديد فى الشعر الأموى ، د. شوقى يف ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ .
- ٢٣- التكملة لكتاب الصلة ، ابن الأبار . مجريط ، ١٨٨٦ .
- ٢٤- ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٢٥- جذوة المقتبس ، الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٢٦- حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٢٧- الحلة السيرة ، ابن الأبار ، تحقيق د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٢٨- الحيوان ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة .
- ٢٩- خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهاني ( قسم شعراء المغرب) ، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين ، ط. تونس ١٩٧١ - ١٩٧٣ .
- ٣٠- دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة .
- ٣١- دراسات فى الأدب العربى ، العصر العباسى - د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

- ٣٢- درة الحجال فى أسماء الرجال ، ابن القاضى ، تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ، نشر دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧١ .
- ٣٣- دمية القصر وعصرة أهل العصر ، الباخري ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة .
- ٣٤- ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط. بيروت ، ١٩٧٦ .
- ٣٥- ديوان ابن حمد يس ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٠ .
- ٣٦- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق د. السيد مصطفى غازى ، الإسكندرية ، ١٩٦٠ .
- ٣٧- ديوان ابن زيدون ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ط. البابى الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ٣٨- ديوان ابن سهل ، ط. بيروت ١٩٦٧ .
- ٣٩- ديوان ابن شهيد ، تحقيق يعقوب زكى ، ط. دار الكاتب العربي ، القاهرة .
- ٤٠- ديوان المعانى ، لأبى هلال العسكري ، ط. مصر ١٣٥٢ هـ .
- ٤١- ديوان ابن هانى ، تحقيق كرم البستاني ، ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٢ .
- ٤٢- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

- ٤٣- الذيل والتكملة لكتاىى الموصول والصلة ، عبد الملك المراكشى ،  
تحقيق د. إحسان عباس ، ط. بيروت ٦٤ / ١٩٦٥
- ٤٤- الرد على ابن النفريلة اليهودى ورسائل أخرى ، ابن حزم . تحقيق  
د. إحسان عباس ، القاهرة ١٩٦٠
- ٤٥- رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان عباس ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٤٦- روض القرطاس ، ابن أبى زرع ، فاس ، ١٣٠٣ هـ .
- ٤٧- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، صفوان بن إدريس ، تحقيق  
عبد القادر محداد ، بيروت ١٩٧٠ .
- ٤٨- الشعر الأندلسى ( بحث فى تطوره وخصائمه ) ، غرسية غومس ،  
ترجمة د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
- ٤٩- الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، د. فوزى عيسى ، الهيئة  
المصرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .
- ٥٠- الشعر العربى فى صقلية ، د. فوزى عيسى ، الهيئة المصرية  
للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .
- ٥١- الشعر فى ظل بنى عباد ، محمد مجيد السعيد ، مطبعة النعمان ،  
العراق ، ١٩٧٢ .
- ٥٢- الشعر فى القرن الثانى الهجرى ، د. محمد مصطفى هدارة ، دار  
المعارف .
- ٥٣- صحيفه المعهد المصرى للدراسات الإسلاميه بمديرى . المجلد الرابع  
عشر .

- ٥٤- طبقات الأمم ، القاضي صاعد ، ط. مصر .
- ٥٥- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، تحقيق محمود شاكر ،  
دار المعارف ، القاهرة .
- ٥٦- طبقات النحويين واللغويين ، الزبيدي ، تحقيق محمد أبو الفضل  
إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
- ٥٧- العقد الفريد ، ابن عبد ربه ، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ،  
القاهرة ، ٥٢ - ١٩٦٥ .
- ٥٨- عقود اللآل فى الموشحات والأزجال ، النواجى ، مصورة عن  
مخطوطة الاسكوريال .
- ٥٩- الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ابن سعيد ،  
تحقيق إبراهيم الإبيارى ، ط. دار المعارف ، الطبعة الثالثة .
- ٦٠- فن الهجاء ، إيليا حاوى ، بيروت .
- ٦١- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د. شوقى ضيف ، ط. دار المعارف ،  
القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٦٢- فهرسة ابن خير ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٣ .
- ٦٣- فى الأدب الأندلسى ، د. جودت الركابى ، ط. دار المعارف ،  
القاهرة ، ١٩٦٠ .
- ٦٤- قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، الخشنى ، ط. مصر ، ١٣٧٢ هـ .
- ٦٥- قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، ط. مصر ١٢٨٣ هـ .

- ٦٦- لسان العرب ، ابن منظور ، ط. الدار القومية ، القاهرة .
- ٦٧- مجلة عالم الفكر ، المجلد الثاني عشر ، ١٩٨١ .
- ٦٨- محمد بن عمار الأندلسي ، د. صلاح خالص ، ط. بغداد ، ١٩٥٧ .
- ٦٩- مذكرات الأمير عبد الله ( التبيان ) ، تحقيق ليفي بروفسال ط. دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٥ .
- ٧٠- مطمح الأنفس ومسرح التانس ، الفتح بن خاقان ، ط. الجوائب ، ١٩٠٢ .
- ٧١- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، تحقيق العريان وآخرين ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ٧٢- معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، ط. مصر .
- ٧٣- معجم السفر . السلفي ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ .
- ٧٤- مع شعراء الأندلس والمتنبي ( سير ودراسات ) ، غرسية غومس ، تعريف ، د. الطاهر مكى ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤ .
- ٧٥- المغرب في حلى المغرب ، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقي ضيف ، ط. دار المعارف ، القاهرة .
- ٧٦- المقتبس من أنباء أهل الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. محمود مكى ، ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧١ .

- ٧٧- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، ابن حيان ، تحقيق د. عبد الرحمن الحجى ، ط دار الثقافة . بيروت . ١٩٦٥
- ٧٨- المن بالإمامة على المستضعفين ، ابن صاحب الصلاة ، تحقيق د. عبد الهادى التازى ، بيروت ، ١٩٦٤
- ٧٩- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، المقرئ ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .
- ٨٠- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تحقيق محمد عيسى منون ، القاهرة.
- ٨١- نقد النثر ، تحقيق د. طه حسين والعبادى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٣٧ .
- ٨٢- نوادر المخطوطات ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ٨٣- الهجاء والهجاءون فى الجاهلية ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .
- ٨٤- الهجاء والهجاءون فى صدر الإسلام ، د. محمد محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، مصر ، الطبعة الأولى .
- ٨٥- وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان . ، ابن خلكان ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
- ٨٦- يحيى بن الحكم الغزال ، محمد صالح البنداق ، دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ٨٧- The Moors in Spain, Stanly Lane - Poole, London, 1920

# الفهرس



## التمهيد

### الباب الأول

- ٩ ..... (مراحل تطور الهجاء)
- ١١ ..... الهجاء بمعناه اللغوي والأدبي
- ١٦ ..... العوامل المؤثرة في الهجاء الأندلسي
- ١٦ ..... العوامل السياسية
- ١٧ ..... العوامل الاجتماعية
- ١٨ ..... أثر البيئة المتحضرة
- ١٨ ..... التكسب بالهجاء
- ٢٠ ..... نقاد الأندلس والهجاء

### الباب الثاني

- ٢٧ ..... (اتجاهات الهجاء الأندلسي)

#### الفصل الأول

- ٣١ ..... الهجاء السياسي
- ٣٤ ..... هجاء الملوك والحكام
- ٥٨ ..... الهجاء القبلي
- ٦٢ ..... هجاء البربر
- ٦٨ ..... رسالة الشقندي في الدفاع عن الأندلس

٧٢	هـاء الیهود
٨٠	هـاء الشعبیه
٨٤	رسالة ابن غرسية
٨٩	رد ابن الدودین البلیسی علی رسالة ابن غرسية
٩٢	رد ابن من الله
٩٤	رد یحیی بن مسعدة
٩٧	هـاء الفرنجة

### الفصل الثاني

١٠٣	هـاء أصحاب المناصب الرسمية
١٠٥	هـاء الوزراء
١٠٩	هـاء الولاة والعمال
١١٢	هـاء القضاة
١١٥	هـاء الفقهاء

### الفصل الثالث

١١٩	هـاء العلماء وأصحاب المهن
١٢١	هـاء المعلمین والمؤدبین
١٢٢	هـاء النحاة
١٢٢	هـاء الفلاسفة
١٢٧	هـاء أصحاب العلوم الطبيعية

١٢٩ ..... هجاء الكتاب

### الفصل الرابع

١٣٣ ..... الهجاء الاجتماعي

١٣٥ ..... نقمة الفرد على المجتمع

١٣٨ ..... الرذائل الخلقية

١٣٩ ..... التصدى لمظاهر الفساد

١٤١ ..... هجاء البخلاء

١٤٣ ..... هجاء الأهل والأقارب

١٤٦ ..... هجاء المظاهر الحضارية

١٤٨ ..... هجاء المغنين والمغنيات

١٤٩ ..... هجاء المدن

### الفصل الخامس

١٥٣ ..... هجاء التندر والسخرية

١٥٥ ..... التندر بالمؤدبين والقضاة والبخلاء

١٦٢ ..... هجاء الذات

١٦٤ ..... العيوب الخلقية

١٧١ ..... الرسالة الهزلية لابن زيدون

### الفصل السادس

١٧٥ ..... المعارك الهجائية بين الشعراء

## الباب الثالث

١٨٩ ..... الجوانب الفنية لشعر الهجاء

### الفصل الأول

١٩٣ ..... لغة الهجاء

١٩٥ ..... الميل إلى السهولة والبساطة

١٩٦ ..... النزوع إلى الشعبية

١٩٨ ..... التأثر بالثقافات الشائعة

١٩٩ ..... استلهام التراث

٢٠٠ ..... الاحتفاء باللغة

### الفصل الثاني

٢٠٣ ..... صور الهجاء الأندلسي

٢٠٥ ..... التأثر بالبيئة

٢١١ ..... التأثر بالثقافات الجديدة

٢١١ ..... التراث الديني

٢١٣ ..... المذروث القديم

٢١٧ ..... خاتمة

٢٢١ ..... المصادر والمراجع



# منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

<https://www.facebook.com/books4all.net>

تم بحمد الله

مع تحيات  
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر  
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية